دم... وخمر

تأليف الكاتب والفيلسوف الروسي

ليو تولستوي

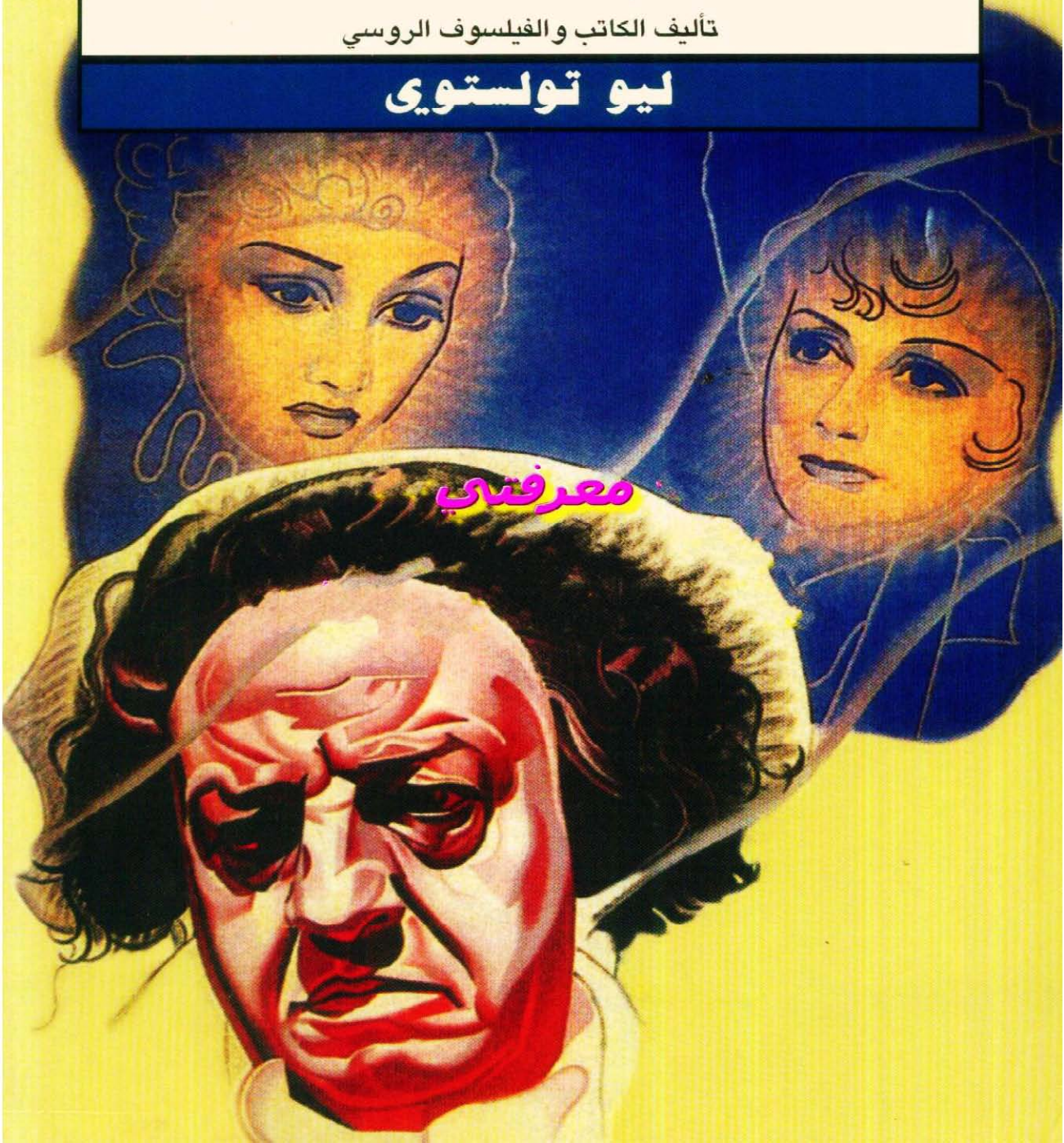

دم... وخمر !

دم... وخمر !

تأليف
ليو تولستوي

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق – بيروت
تلفون : 00 961 1 803 674 فاكس : 00 961 1 790 223
E-mail : darbachir@terra.net.lb

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الترجمة والتأليف وغيرها محفوظة لشركة دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م
وذلك بموجب الإقرار والتنازل الموثق لدى وزارة العدل – مصلحة الشهر العقاري والتوثيق – مكتب شمال القاهرة – توثيق
مصر الجديدة – جمهورية مصر العربية – تحت رقم ١٦١٩ ا لسنة ١٩٩٨ .
ولا يحق لأي كان نشر أي قسم أو جزء من هذا الكتاب أو من مطبوعات كتابي أو كتابي أو أي كتاب يحمل إسم
الكاتب / حلمي مراد وبأية وسيلة كانت . . إلا بعد أخذ موافقة خطية من
(شركة دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م.)
طبع هذا الكتاب بإذن خاص من شركة دار ميوزيك

إسم المؤلف
Léo TOLSTOÏ

عملاق جبّار.. يفيض محبّة وسلاما!

عزيزي القارئ:

وأخيرا جاء دور العملاق.. دور "**ليو تولستوي**"، عملاق الأدب العالمي، لا الأدب الروسي وحده.

ولقد ظللت طويلا أصبو إلى أن أقدّم لك شيئا من إنتاج "**تولستوي**"، فهو ثروة غالية، ثمينة، لا ينبغي أن تخلو منها مكتبة أي قارئ في أي بلد.. ولكن أكبر عملين ضخمين في حياة "**تولستوي**" الكاتب، هما: "الحرب والسلام" و"**أنّا كارنينا**".. وكل منهما تقتضي ترجمته- ترجمة أمينة كاملة، كما هي رسالة "مطبوعات كتابي"- إفراد أعداد، وأعداد متتابعة.. ولقد حدثتك في العدد ٦١ من "كتابي" كيف أن "الحرب والسلام" تتألف من ألف وخمسمائة صفحة، فالترجمة الحرفية لها، كفيلة بأن تشغل أعداد "مطبوعات كتابي" لعشرة أشهر على الأقل.. لذلك وجدتني مضطرا إلى أن أكتفي بتلخيصها لك في ذلك العدد من كتابي، كما لخصت لك قبلها "لحن كرويتزر" في العدد ٣٠.

ولكن الفكرة ظلّت تراودني باستمرار.. أن "مطبوعات كتابي" تظل ناقصة ما لم تتضمن شيئا من إنتاج هذا العبقري الجبار. وأقبلت أقرأ كل إنتاجه، عسى أن أجد منه شيئا يمكن تقديمه في نطاق "المطبوعات دون اختصار، أو مسخ، أو تشويه.. وكان لابد لهذا الإنتاج المنشود، من ألا يكون قد ترجم إلى العربية من قبل ليكون مفاجأة طيبة لك، وليكون في السبق إلى ترجمته تعويض لك عن "إرجاء" تقديم شوامخ "**تولستوي**"..

وأقول "إرجاء" متعمّدا، وعن قصد.. فإن الفكرة لاتزال تراودني، وتلحّ عليّ.. ولا أزال وأسرة "كتابي" ندرس معا، كيف يمكن أن نقدم لك هذه الشوامخ، التي لم تترجم كاملة من قبل.. فمن الصحيح أن "الحرب والسلام" و"**أنّا كارنينا**" و"لحن كرويتزر" و"البعث".. من الصحيح أنها- أو بعضها- قد ترجم إلى العربية، ولكن جميع هذه

الترجمات لم تكن كاملة لضخامة حجم المؤلفات الأصلية!

فاشل في صغره.. عبقريّ في كبره!

وإلى أن يتم تحقيق هذا الحلم الجميل، أقدم لك- من إنتاج "**تولستوي**"- القصتين الطويلتين اللتين يضمهما هذا العدد من "مطبوعات كتابي"، واللتين ترجمهما الزميل "**محمد بدر الدين خليل**".

على أنني قبل أن أذكر لك كيف تم اختيارهما، أحب أن أقدم لك حديثا سريعا عن "**تولستوي**" نفسه.. الكاتب والفيلسوف الذي أجمع النقاد وأهل الأدب، في جميع البلدان، وعلى مر الأجيال على أنه من أعظم الخالدين في تاريخ الأدب والقصة.

ولد "**ليو نيكولايفيتش تولستوي**" في سنة ١٨٢٨، في أسرة نبيلة، عريقة المحتد.. إذ كان أبوه "كونت"، وكانت أمه أميرة، وكانت أملاكهما شاسعة، وثروتهما عظيمة. وقد ذاق "**ليو**" مرارة التيتم وهو في التاسعة من عمره، ولكن أقرباء له أشرفوا على تربيته وتعليمه، حتى إذا بلغ التاسعة عشرة من عمره، ألحق بجامعة "**قازان**"، حيث درس اللغات الشرقية والقانون.. بيد أنه لم يلبث أن انصرف إلى اللهو، فلم يتم دراساته، والتحق بالجيش في سنة ١٨٥١. وقد قدّر له أن يكون بين ضباط لواء المدفعية في (القوقاز)، وكان أحد المدافعين عن مدينة "**سيباستبول**" في حرب القرم..

على أنه لم يلبث أن استقال من الجيش، وقضى أربعة أعوام يجوس خلال أوروبا الغربية، حيث درس أساليب التربية. بيد أن احتكاكه بالمدنية الغربية، جعله يستنكرها ويشمئز منها، إذ لمس أن المادية لبّها، والزيف والاصطناع مظهرها. لذلك عاد إلى ضياع أسرته في "**ياسنايا بوليانا**"، حيث أنشأ مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين.. وحيث تزوج من "**صوفيا اندرييفنا بيهرس**"، التي أنجبت له ثلاثة عشر ابنا وابنة، والتي كانت عونا له في أعماله الأدبية، وكثيرا ما كانت تنقل له مؤلفاته بخطها. حتى ليقال إنها نسخت له "الحرب والسلام" سبع مرات!

يتجرد من متاع الدنيا!

وخلال هذه الفترة- التي امتدت من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٧- تفرّغ "**تولستوي**" للأدب، وكتب خير إنتاجه القصصي.. قصصا أجمع أهل الأدب- في العالم بأسره- على أنها كنز ثمين. بل إن قصته "الحرب والسلام" اعتبرت "الرواية القومية لـ"**روسيا**" .

وبعد سنة ١٨٧٩- أي بعد أن فرغ من "**أنّا كارنينا**" بعامين- بدأ يستعرض حياته، وينتقد الأسلوب الذي جرت عليه. واستبدّت به نزعة روحية بلغت ذروتها في سنة ١٨٨١، حين أقبل على الدين، وراح يمارس طقوسه وينفذ تعاليمه ويدعو إليها، ويبشر بان "السعادة الحقة لا تتحقق إلا إذا جرد الإنسان نفسه من كل المظاهر الزائفة للحضارة، وارتدّ إلى فطرته، وردّ الكنيسة إلى أصولها المسيحية الأولى، وسار على هدي الضوء المنبعث من أعماقه، والذي يقوده إلى حب إخوته من بني البشر". وكرّس "**تولستوي**" قلمه لهذه الدعوة، فأصدر طائفة من المؤلفات والكتيبات الدينية، تدعو إلى المحبة والسلام ومحو الفقر، ونزول الأغنياء عن بعض مالهم للفقراء.. فسبق بذلك الحركة الاشتراكية في بلاده. وقد بدأ بنفسه، فوزّع أرضه على الفلاحين ورقيق الأرض، وتجرد من متاع الدنيا!

على أن تطرّفه في دعوته، أوغر عليه صدر الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، فأصدرت قرارا بحرمانه في سنة ١٩٠١. ولكن هذا لم يفلّ من روحه، ولم يثنه عن الرسالة الروحية التي آلى على نفسه أن يؤديها!

زوجته تطلق الرصاص على صورة ابنتها!

ولكن الحرمان من الكنيسة، لم يكن كل ما أصابه من جرّاء دعوته. فقد نكب بحرمان آخر.. الحرمان من حب زوجته.. فقد كان تخلصه من ثروته وأملاكه سبّب شقاقا أحال حياتهما- التي كانت من قبل نعيما هانئا، بكل ما للكلمة من معنى- إلى

جحيم لا يطاق.. وقد انضمّ أولاده جميعا إلى أمهم، عدا ابنته الصغرى "**الكسندرا**" التي ظلت تناصره، وتلازمه، وتعمل كسكرتيرة له. ومن العجيب أن هذا أثار غيرة أمها، حتى أنها طردتها من المنزل ثم اندفعت إلى حجرتها، وأطلقت الرصاص على صورتها..

إلى هذا الحدّ بلغ الأمر بزوجته! وكانت تصاب- حين يعارضها- بنوبات هيستيرية، وتهدده بالانتحار.. ولكنها- في أحيان أخرى- كانت تذكر حبهما الماضي، فتركع عند قدميه، وتلحف في الرجاء أن يقرأ لها العبارات الغرامية التي كتبها عنها في يومياته- قبل أربعين عاما- فكانا يبكيان معا، وهما يستعيدانها!

على أن حنقها عليه اشتد بعد أن أصرّ على أن يهب الشعب الروسي حقوق نشر كتبه بدون مقابل. ولم يعد يحتمل نوباتها حين بلغ الثانية والثمانين.. وفي ليل ٢١ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩١٠، هرب من بيته- وابنته "**الكسندرا**" ترافقه- وانطلق هائما على وجهه في الظلام والبرد الزمهرير.. وبعد أحد عشر يوما، مات بالتهاب رئوي في محطة "**استابوفو**" للسكك الحديدية.

تسع قصص تمهّد للشوامخ

والآن تعال أحدثك عن القصتين الطويلتين اللتين ستقرأهما في هذا العدد:

لقد كان اختيار المادة من أصعب الأمور، إذ إن روائع "**تولستوي**" قدّمت لك من قبل، وإن لم تكن كاملة أو دقيقة.. كما أن البحث عن تحف جديدة، لم يسبق أن نقلت إليك بالعربية، كان كالبحث عن إبرة وسط كوم من التبن!

وأخيرا ظهر أن "**تولستوي**" كان قد وضع- قبل أن يفرغ لكتبه الضخمة- تسع قصص بين قصيرة وطويلة، تناول في بعضها أحداثاً من صميم حياته مزجها بالخيال، وتناول في بعض آخر مشروعات أفكار لقصص كبيرة، وتناول في اثنتين منها حياة الرقيق في "**روسيا**".. فقد كانت هناك- في تلك الحقبة- من العهد القيصري- طبقة

مستعبدة، لا تختلف كثيرا عن الطبقة التي عهدناها يوما في ريفنا- في بعض العهود المظلمة- اللهم إلا في أنها كانت ترسف في مزيد من الذل والهوان.. تلك هي طبقة الرقيق: رقيق الأرض، الذي كان يعيش على أراضي الأسرات الإقطاعية، فهي تستنزف دمه وقواه وحيويته في سبيل زيادة ثرواتها.. ورقيق البيت، من أبناء الجواري والعبيد الذين لا سبيل لهم في الحياة في مجتمع ساده الظلم والفوضى إلا بالبقاء في إسار السادة!

القصة التي أذهلت "تورجنيف"

وكانت "للعبيد ضمير!"- أو "**بوليكوشكا**" كما أسماها "**تولستوي**"- هي أقوى هاتين القصتين.. وهي صورة لحياة ربما شهدتها أجيال قبلنا في بعض البلاد العربية، ولكنها بالنسبة لجيلنا صورة جديدة، طريفة، تحرك أقسى القلوب الإنسانية صلابة، وتعلي من قدر الكرامة والعزة البشرية التي كانت كامنة تحت مظاهر الذل والاستكانة.. إنها تبين كيف أن الرقيق بشر، يستطيع أن يتوب بعد ضلال، وأن يستقيم بعد تخبط.. فلما أبت الظروف إلا أن تظهر بطل القصة بمظهر يفقده ثقة مولاته، وإيمان زوجته به، وتقدير زملائه، قضى على حياته!

ولست أملك أن أقول في هذه القصة أبلغ مما قاله "**إيفان تورجنيف**"، وهو الآخر من أعمدة القصة الروسية:

"قرأت قصة "**تولستوي**" **بوليكوشكا**"، فأذهلتني قوة موهبته الهائلة.. وإن فيها لصفحات من أروع ما كتب حقا. إنها لترسل قشعريرة باردة في ظهري، رغم ما تعرفه من أن ظهري قد أصبح أكثر سمكا وصلابة.. إنه لأستاذ! أستاذ"

أما القصة الثانية: "**ضابطان وعذراء**"- أو "**ضابطان من الفرسان**" كما أسماها- فلها في حد ذاتها قصة.. إذ إن القصص الأولى لـ"**تولستوي**"- في تلك الحقبة التي بدأ فيها استقراره في أملاك أسرته- كانت مستمدة من تجاربه وحياته الخاصة، دون أن تتعلق

برسالة معينة.. فلما أقدم على كتابة هذه القصة، كان قد بدأ يهتم برسالته في الأدب الروسي فجعل لها نطاقا خاصا خارج نطاق تجاربه الشخصية.

دم وخمر .. بلا حساب!

ولقد تسألني- ومن حقك أن تسأل- لماذا اخترت لهذا العدد من "مطبوعات كتابي"، الذي ضم القصتين، اسم "دم.. وخمرا".. والجواب بسيط.. فإن القصتين تصوران حقبة من تاريخ "**روسيا**" لم يكن في تلك البلاد شيء يراق بإسراف، ودون حساب قدر: الدم والخمر.. دم الرقيق والفلاح.. تلك الطبقة المستعبدة التي كان زمامها في أيدي الإقطاعيين.. وهو "دم" لا يقتصر على ذلك السائل الذي يجري في العروق فحسب، بل يضم أيضا الدمع، والعرق، وعصارة الحياة.. ثم الخمر التي كانت السادة يسرفون في إراقتها ليزدادوا انسياقا وراء لهوهم وعبثهم، كما كان العبيد يغرقون انفسهم فيها؛ لكي ينسوا... ينسوا كل شيء!

*****

وبعد.. أظنني احتجزتك طويلا عن نبع "**تولستوي**" النمير. فلأرفع القلم، لأتركك تغترف من هذا النبع!

(١) سيدة الضيعة

– أنت صاحبة الكلمة يا سيدتي، فالأمر لك.. كل ما هنالك أنه سيكون من دواعي الرثاء أن يقع الخيار على آل "**دوتلوف**".. كلهم صالحون، ولابد من أن يذهب أحدهم، ما لم نرسل واحدا من رقيق البيت على الأقل!

وسكت وكيل الأعمال لحظة، ثم أردف:

– وهذا ما يلمح إليه كل امرئ.. ولكن الأمر رهن بمشيئتك يا سيدتي!

ووضع يمناه على يسراه فوق صدره، ومال برأسه على كتفه اليمنى، وجذب شفتيه إلى الداخل، موشكا أن يحدث صوتا مسموعا (مصمصة)، وصعد بصره إلى أعلى، ولم يزد على ما قال، بل بدا أنه اعتزم أن يلزم الصمت طويلا، وأن ينصت– دون رد– إلى كل لغو كان من المؤكد أن يصدر عن مولاته! وكان وكيل الأعمال الحليق الذي ارتدى سترة طويلة، صيغت على نمط خاص يليق بوكيل الأعمال، والذي جاء في تلك الليلة من ليالي الخريف ليعرض أمرا على مالكة زمامه.. كان وكيل الأعمال هذا عبدا من رقيق البيت، بحكم مولده.. وكان "عرض الأمر"– من وجهة نظر السيدة– معناه الإنصات إلى حديث عن أمر يجري في ضيعتها وإصدار تعليمات للمضي في العمل. أما من وجهة نظر "**ايجور ميخايلوفيتش**"– وهو رئيس الخدم– فإن "عرض الأمر" كان يتطلب الوقوف معتدلا، وأصابع قدميه مرفوعة إلى أعلى في ركن مواجه للأريكة.. مع الإنصات إلى كل ألوان الثرثرة المبتورة العبارات، والعمل بمختلف الطرق والوسائل على تهيئة ذهن السيدة لكي تقول بسرعة ونفاد صبر:

– حسنا.. لا بأس!

ولكل هذا كان "**ايجور ميخايلوفيتش**" قد رسم خطته! وكان "الأمر" المعروض هو تعيين المجندين، فقد كان على ضيعة "**بوكروفسك**" أن تقدم في عيد "**بوكروف**" ثلاثة أفراد ليجندوا في الجيش. ولاح أن القدر قد اختار بذاته اثنين منهما بحكم ظروف عائلية وأخلاقية واقتصادية. ولم يكن ثمة تردد أو نزاع في أمرهما، سواء من جانب السيدة، أو الحكومة، أو الرأي العام. ولكن الذي كان مثار الجدل هو: من يكون الثالث؟

وكان وكيل الأعمال توّاقا إلى أن ينقذ ابناء "**دوتلوف**"– الذين كان في أسرتهم ثلاثة رجال في سن التجنيد– وإلى إيفاد "**بوليكوشكا**"، وهو رجل من رقيق البيت، متزوج، سيئ السمعة، فوجئ– أكثر من مرة– وهو يسرق الأكياس، وسروج الخيل، والتبن.. ولكن السيدة– التي كثيرا ما كانت تعطف على أطفال "**بوليكوشكا**" في أسمالهم، وتعمل على إصلاح أخلاقه بآيات من التوراة– أبت أن تفرّط فيه.. غير أنها–

في الوقت ذاته- لم تكن راغبة في إيذاء آل "**دوتلوف**"، الذين لم تكن قد عرفتهم، ولا رأتهم قط. ولكنها- لسبب ما- لم تبد قادرة على إدراك وجهة نظر وكيل أعمالها، كما أنه لم يقو على أن ينبئها صراحة بأنه لابد لواحد من أبناء "**دوتلوف**" أن يذهب، إذا لم يذهب "**بوليكوشكا**" فقد راحت تقول له في تأثر:

- ولكني لا أبغي سوءا بآل "**دوتلوف**"!

وكان خليقا بوكيل الأعمال أن يقول:

- مادمت لا تبغين، فادفعي ثلاثمائة روبل لبديل![١] ولكن مثل هذا الرد كان سياسة خرقاء؛ ومن ثم ركن "**ايجور ميخايلوفيتش**" إلى وقفة مريحة حتى لقد استند- دون أن يفطن- إلى إطار الباب، بينما كان يحتفظ بمظاهر الخضوع على وجهه، وهو يراقب خلجات شفتي السيدة، ويعجب بحواشي قلنسوتها وظلالها الملقاة على الجدار، تحت إحدى الصور!

ولكنه لم ير من الضروري أن ينتبه لمعاني كلمات السيدة، إذ إنها كانت تتكلم طويلا، وتقول كثيرا.. وتوترت العضلات التي خلف أذنيه، تحت رغبة واتته في التثاؤب، ولكنه تحايل فحولها إلى سعال أطلقه وهو يرفع يده إلى فمه. ومنذ عهد غير بعيد، رأيت "**لورد بالمرستون**"[٢] يجلس وقد أرخى قبعته على وجهه، بينما كان أحد أعضاء المعارضة يصب الحمم على الوزارة. وما لبث اللورد أن نهض فجأة، فرّد على المعارض- نقطة نقطة- في خطاب استغرق ثلاث ساعات. ولم أدهش حين شهدت ذلك؛ لأنني رأيت الشيء ذاته يجري بين "**ايجور ميخايلوفيتش**" ومولاته، آلاف المرات.. على أنه لم يلبث أن ألقى ثقله على ساقه اليمنى بدلا من اليسرى- ولعله خشي أن ينساق للنعاس، أو ظن أن السيدة كانت تتعمد إطالة الموقف- وشرع يمهّد للحديث بمقدمة مليئة بالرياء، كما اعتاد أن يفعل دائما:

- الأمر رهن بمشيئتك يا سيدتي.. على أن ثمّة اجتماعا أمام نافذة مكتبي الآن،

---

(١) كان من الجائز في "روسيا" ان يدفع المجند الميسور الحال مبلغاً لشخص آخر يؤدي الخدمة العسكرية بدلاً منه. فإذا كان المجند من الرقيق وشاء مالكوه ان يحتفظوا به، دفعوا عنه. (٢) لورد بالمرستون: كان رئيساً للوزارة الإنجليزية من سنة ١٨٥٩ إلى ان توفي في سنة ١٨٦٥ ومن كبار ساستها في القرن التاسع عشر.

ولابد أن نبت بقرار، فإن الأوامر تقول بأن المجندين يجب أن يكونوا في المدينة قبل عيد "**بوكروف**"، وهناك إجماع بين الفلاحين على ترشيح أبناء "**دوتلوف**" دون سواهم. أما "الميـر"(١) فليس يشقى بمصالحك، إذ ما الذي يهمه إذا خرّبنا بيت آل "**دوتلوف**"؟ إنني أعرف قسوة الضائقة التي ألمت بهم، فإنهم- منذ توليت وكالة أعمالك- يعيشون في عوز. واليوم وقد كبر ابن أخ الشيخ، وأوشك أن يكون عونا، إذا بالأسرة تمنى بنكبة ثانية.. أما أنا، فكما عهدت أمين على ثروتك كما لو أنها كانت ثروتي.. وهم- على أية حال- ليسوا أهلا لي أو أقارب، ولست أجني منهم شيئا..!

فقطعت عليه السيدة حديثه قائلة:

- ما هذا يا "**ايجور**"؟ كأنما فكرت أنا يوما في هذا!

على أنها ارتابت لفورها في أن يكون قد تقاضى من آل "**دوتلوف**" رشوة. فقد واصل حديثه قائلا:

- إن دارهم هي خير دار في "**بوكروفسك**" من حيث العناية والتدبير. وهم فلاحون مجتهدون، أتقياء، وكبيرهم شيخ للكنيسة منذ ثلاثين عاما.. فهو لا يشرب الخمر، ولا يسب، وإنما هو يواظب على الذهاب للكنيسة..

وكان وكيل الأعمال يعرف الوتر الذي يحسن أن يضرب عليه، فقال:

- على أن أهم ما أريد أن أعرضه عليك، هو أنه لم يؤت غير ولدين، أما الآخرون فأبناء إخوة له، كفلهم برا بهم.. ومن ثم فيجب أن يُجرى الاقتراع بين الأسرات ذات الرجلين. كم من أسرات تفككت بسبب قلة حكمتها، فانفصل عنها أبناؤها، وأصبحوا الآن آمنين(٢). أما آل "**دوتلوف**" فسيتعرضون للعناء لمجرد أنهم طيبون بارون!

ولكن السيدة لم تستطع أن تتبع حديثه عند هذه النقطة، إذ إنها لم تفهم ماذا يعني بالأسرات "ذات الرجلين"، ولا بـ"البر". فقنعت بأن تسمع صوته، وترقب الأزرار المكسوّة بالقماش في سترة وكيل الأعمال. كان أعلاها ثابتا في مكانه، ولعله لم يكن يستعمل كثيرا.. أما الأوسط فكان مدلى، وكان من الواجب أن يثبت في مكانه منذ زمن

---

(١) العمدة أو رئيس القوم.. ولعلها تحريف امير التي إنتقلت إلى اللغة الروسية عبر القبائل المتاخمة لـ"تركيا" والدول الإسلامية. (٢) كان الإقتراع على المجندين يجرى بين الاسرات العديدة الذكور أولاً.

طويل..

على أنه من المعروف أن ليس من الضروري- في المحادثات التي تدور حول الأعمال بوجه خاص- أن تفهم ما يقال، وإنما يكفي أن تتذكر ما تريد أنت أن تقول.. وقد عملت السيدة بهذا، فقالت:

- كيف يتعذر عليك الفهم يا "**ايجور ميخايلوفيتش**؟ ليست بي أدنى رغبة في أن يصبح أحد أبناء "**دوتلوف**" جنديا. كنت أظن أن امرءا يعرفني- كما تعرفني أنت- قمين بأن يشهد لي بالرغبة في أن أبذل ما في طوقي لمساعدة رقيق أسرتي، فأنا لا أبغي أن يصيبهم أي ضر، بل إنني على استعداد لأن أضحي بكل ما أمتلك لأتهرب من هذه الضرورة المحزنة، فلا أرسل "**دوتلوف**" أو "**بوليكوشكا**"!

ولست أدري، هل خطر لوكيل الأعمال أن لا حاجة هناك للتضحية بكل شيء للتهرب من الضرورة المحزنة، وإنما كانت ثلاثمائة روبل كافية.. على أن من المحتمل أن هذه الفكرة طرأت على باله!

- لن أقول لك سوى هذا: لن أفرط في "**بوليكوشكا**"، مهما يكن الأمر. فعندما اعترف لي من تلقاء نفسه- بعد حادث الساعة- وبكى، وعاهدني على الاستقامة، تحدثت إليه طويلا، ورأيت أنه كان صادقا في تأثره، وفي توبته!

وهنا قال "**ايجور ميخايلوفيتش**" لنفسه: "ها هي ذي تضل ثانية!"

وشرع يتأمل الشراب الذي كانت تحتسيه من كوب من أكواب الماء، ويسائل نفسه: "أهو عصير برتقال أو ليمون؟

- أظنه لاذعا قليلا!

بينما استطردت السيدة قائلة:

- ولقد انقضت سبعة أشهر، لم يحنث فيها مرة، بل كان رائع السلوك. إن زوجته تقول لي: إنه أصبح رجلا آخر. فكيف تريدني على أن أعاقبه بعد أن استقام؟ ثم إنه من المجافاة للإنسانية أن تجند رجلا ذا خمسة أطفال، لا عائل لهم سواه.. لا، يحسن ألا تزيد في اللجاج يا "**ايجور**"!

ورشفت من الشراب رشفة، فراقب "**ايجور ميخايلوفيتش**" حركة حلقها والسائل ينساب فيه، ثم أجاب باقتضاب وجفاء:

– إذن فقد استقر الرأي على "**دوتلوف**"؟

وعقدت السيدة يديها، وقالت:

– كيف لا تفهم؟ أفأريد بـ"**دوتلوف**" سوءا؟ أتراني أكنّ له ضغينة؟ الله شاهد على أنني على استعداد لأن أفعل كل شيء من أجلهم..

ونظرت إلى صورة في ركن الحجرة، ثم تذكّرت أنها لم تكن أيقونة، فقالت لنفسها: "لا بأس".. ليس هذا محور الاهتمام!

ومن الغريب، أن فكرة الروبلات الثلاثمائة لم تخطر لها في هذه المرة أيضا.. وعادت تقول:

– حسنا، ما الذي أملك أن أفعله؟ وما درايتي بهذا الأمر؟ من المستحيل أن أعرف. ومن ثم فأنا أعتمد عليك، وها قد عرفت رغباتي، فاعمل على إرضاء الجميع، وفقا للقانون.. ما الذي ينبغي عمله؟ إنهم ليسوا الوحيدين، بل إن كل امرئ يتعرض لأوقات عصيبة. كل ما هنالك أن ليس من سبيل إلى إرسال "**بوليكوشكا**".. يجب أن تفهم أن من أبغض الأمور على نفسي أن أفعل شيئا كهذا!

وكان الحماس قد تملّكها. ومن المحتمل أنها كانت على استعداد لأن تسترسل في الحديث طويلا، لولا أن دخلت إحدى خادماتها الحجرة، فتحولت تسألها:

– ماذا هناك يا "**دنياشا**"؟ فأجابت الخادم:

– لقد جاء فلاح ليسأل "**ايجور ميخايلوفيتش**" عما إذا كان للاجتماع أن يستمر في انتظاره!

ورمقت "**ايجور ميخايلوفيتش**" في حنق، وهي تقول لنفسها: "يا لوكيل الأعمال هذا.. لقد ضايق السيدة؛ ومن ثم فلن تسمح لي بإغماضة عين قبل الساعة الثانية صباحا!

– حسنا يا "**ايجور**" اذهب وافعل خير ما في وسعك!

وأجاب الرجل:

– سمعا يا سيدتي!

ولم يعد إلى الحديث عن "**دوتلوف**"، وإنما تساءل:

– من الذي يذهب إلى الموكل بالبستان، ليأتي بالنقود؟

فقالت السيدة:

– ألم يعد "**بيتر**" بعد من المدينة؟

فأجاب:

– لا يا سيدتي.

وسألته:

– ألا يستطيع "**نيكولاس**" أن يذهب؟

فقالت "**دنياشا**":

– إن أبي مريض، يشكو من ظهره!

وتساءل وكيل الأعمال:

– أأذهب أنا غدا يا سيدتي؟

ولكن السيدة قالت:

– لا يا "**ايجور**"، فإنك مطلوب هنا.

وفكرت قليلا، ثم أردفت:

– كم المبلغ؟

– أربعمائة واثنان وستون روبل..

فقالت السيدة، محملقة في وجه "**ايجور ميخايلوفيتش**" بإصرار:

– أرسل "**بوليكوشكا**"!

وبسط الرجل شفتيه في شبه ابتسامة، دون أن يكشف عن أسنانه.. ولم تتبدل أسارير وجهه. وقال:

– سمعا يا سيدتي!

فقالت:

– أرسله إلى هنا!

فقال وهو ينصرف إلى مكتب المحاسبة:

– سمعا يا سيدتي!

(٢) "بوليكوشكا" .. بيطري بالسليقة!

لم يكن لـ"**بوليكي**" – أو "**بوليكوشكا**"، كما كان ينادى عادة، من قبيل الاحتقار– أي اعتبار لدى حارس الدار، ولا رئيس الخدم، ولا وكيل الأعمال، ولا وصيفة السيدة. إذ إنه كان رجلا قليل القيمة ملوث السمعة.. ولم يكن من أهل القرية أصلا. فكان ركنه أسوأ الأركان، رغم أنه أوتي سبعة أفراد في أسرته. وكان المالك السابق قد أمر ببناء هذه الأركان على النحو التالي: ففي وسط مبنى من الطوب– مساحته حوالي ثلاث وعشرين قدما مربعة– أقيم فرن كبير من الطوب، أحيط بردهة. وكانت أركان المبنى الأربعة تنفصل عن هذه "اللدهة" – كما كان رقيق البيت ينطقونها– بحواجز خشبية، ومن ثم فلم يكن في الأركان فراغ فسيح لاسيما ركن "**بوليكي**" الذي كان أقربها إلى الباب.. وكان سرير الزوجية– بلحاف من قماش منقوش، ووسادتين– ومهد يشغله طفل رضيع، ومنضدة– يجري عليها الطهو والغسل، وتوضع عليها كافة أنواع الأشياء المنزلية، كما كان "**بوليكي**"، الذي كان طبيبا للخيل، يشتغل عليها– وأوعية، وثياب، وبعض فراريج، وعجل، وسبعة أفراد يؤلفون الأسرة.. كل هؤلاء كانوا يملأون فراغ الركن، وما كان بوسعهم أن يتحركوا فيه، لولا ربع الفرن الذي كان تابعا لهم– والذي كان بوسع الناس أن يناموا عليه، وأن يضعوا عليه الأشياء– ولولا أنه كان لهم أن يخرجوا إلى درجات السلم.. وهو أمر لم يكن ممكنا، إذا ما اشتد البرد– في شهر أكتوبر (تشرين الأول) – ولم يكن الأفراد السبعة يمتلكون سوى معطف واحد من فراء الغنم، يتشاطرونه فيما بينهم. على أنه كان بوسع الأطفال– من ناحية أخرى– أن يدفأوا بالجري، كما كان في استطاعة الكبار أن يدفأوا بالشغل.

وكان لهؤلاء وأولئك أن يصعدوا فوق الفرن، حيث كانت الحرارة ترتفع إلى مائة وعشرين درجة فهرنهيتية. وقد يبدو أن الإقامة في مثل هذه الظروف بغيضة، ولكنهم لم يكونوا يحفلون بذلك.. كان يكفيهم أن يستطيعوا أن يعيشوا!

كانت "**أكولينا**" – زوجة "**بوليكوشكا**" – تغسل ثياب زوجها وأولادها وتحوكها، وتغزل، وتنسج، وتبيض النسيج، وتطهو، وتخبز في الفرن المشترك، وتتشاجر وتثرثر مع جاراتها. وكانت المخصصات الغذائية الشهرية لا تكفي الأولاد وحدهم، بل تغذّي البقرة كذلك. وكان خشب الوقود دون مقابل، وكذلك العلف للماشية، كما كان يصيبهم بعض التبن من الحظائر، أحيانا. وكانت لهم رقعة صغيرة من الأرض، يستنبتون فيها الخضر.. وقد أنجبت بقرتهم عجلا، كما كان لديهم بعض الدواجن.. وكان "**بوليكي**" مستخدما في الحظائر للعناية بجوادين فيها، كما كان يقوم بحجامة الخيل والماشية، وينظف حوافرها، ويشرط قروحها، ويعالجها ببلاسم من ابتكاره. وكان يتقاضى أجره عن ذلك نقدا وعينا. وكذلك كان بعض شوفان صاحبة الضيعة يتسرب إلى حوزته، وكان أحد فلاحي القرية يقدم له عشرين رطلا من لحم الضأن– شهريا– في مقابل كيلين من الشوفان. وكان من الممكن أن تكون الحياة محتملة، لو لم يكن ثمة اضطراب ومتاعب.. فقد كانت الأسرة في عناء كبير!

كان "**بوليكي**" قد عاش– في صباه– في مزرعة لتربية الخيل في قرية أخرى. وكان السائس الذي قدر لـ"**بوليكي**" أن يقع بين يديه هو أكبر لص في المنطقة، وقد انتهى أمره إلى أن نفي إلى "**سيبريا**". وقد قضى "**بوليكي**" فترة المران والتدرب، تحت إشراف هذا الرجل؛ ومن ثم اعتاد من صغره تلك "السفاسف" التي لم يستطع في كبره أن يتخلص منها، رغم أنه كان من اليسير عليه أن ينصرف عنها.. كان فتى صغيرا، ضعيفا، لا أب له ولا أي ناصح أمين يعلّمه. ومن هنا جنح إلى الشراب، ولم يعد يحب أن يرى شيئا حوله مهملا دون أن يستحوذ عليه.. فما من شيء، سواء كان عنان جواد، أو قطعة من عدة الركوب، أو قفلا، أو مزلاجا، أو شيئا أهم من ذلك وأعظم قيمة، إلا ووجد له "**بوليكي**" نفعا لديه.. فقد كان ثمة أناس– في كل مكان– يودون أن يحصلوا على

هذا الشيء، وأن يدفعوا ثمنه شرابا أو نقودا.. حسب الاتفاق! ومثل هذه المكاسب من أيسر الأمور، كما يقول الناس، فهي لا تحتاج إلى تعلم أو مران، ولا إلى جهد، ولا إلى أي شيء.. والذي جرّب هذا مرة، لا يحفل بمصدر للكسب سواه. ولم يكن ثمّة سوى عيب واحد.. فمع أنك تحصل على الأشياء بسهولة، ودونما كثير عناء أو نفقة، فتنعم بعيش رغد، إلا أن الأمور قد تنقلب فجأة، نتيجة شر من شخص ما، فإذا الإخفاق يصيب حرفتك، والكساد يلحق بتجارتك، وإذا بك تُسأل- فورا- أن تقدم حسابا عن كل شيء.. حتى لتلعن اليوم الذي ولدت فيه!

وهذا ما جرى لـ"**بوليكي**"! كان قد تزوج، وأنعم الله عليه بحظ طيب. إذ ظهر أن زوجته- ابنة الراعي- كانت موفورة الصحة، ذكية، ذات جلد على العمل، وقد أنجبت له طفلا بعد آخر، أطفالا ملاحا لطافا.. ومع أن "**بوليكي**" ظل دائبا على حرفته، دون أن يصادفه أي سوء. إلا أن الحظ تخلى عنه يوما، فإذا بأمره يفتضح.. وكانت الفضيحة كلها حول شيء تافه، إذ كان قد خبأ بعض أعنّة الخيل الجلدية، التي كانت ملكا لأحد الفلاحين، ثم تسنّى العثور عليها.. فضرب "**بوليكي**" من أجلها، ورفع الأمر إلى مولاته- سيدة الضيعة- وفرضت عليه رقابة.. وضبط مرة ثانية، ومرة ثالثة، متلبسا. وبدأ القوم يسبونه ويعيرونه. وأنذره وكيل أعمالها بأن يزجّ به بين المجندين. ووبخته سيدة الضيعة، وبكت زوجته وأصبحت كسيرة الفؤاد. وهكذا ساءت الأمور جميعا!

وكان رجلا ذا فطرة طيبة، فهو لم يكن سيئا بطبيعته، وإنما كان ضعيفا.. كان مغرما بالخمر، وقد اعتاد الإقبال عليها، حتى لم يعد يقوى على هجرها.. وكانت زوجته تؤنبه- بل وتضربه- أحيانا، إذا عاد إليها ثملا، فكان يبكي ويقول:

- ماذا أصنع وأنا رجل منكود؟ فلأفقد عيني إذا أنا لم أكف عن الخمر.. لن أعود إليها البتة!

وينقضي شهر، ثم يغادر البيت يوما، فيسكر ولا يرى لمدة يومين. وإذ ذاك يقول جيرانه:

- لابد له من أن يحصل على المال، لكي يشرب به!

وكان يعمد إلى الطريقة الميسورة، ثم لا يلبث أن يفتضح أمره!

وكان آخر مآزقه ناشئا عن ساعة مكتب الضيعة.. كانت من ساعات الحائط، قديمة، تعطلت عن العمل منذ أمد طويل. وتصادف أن وجد الباب مفتوحا- من تلقاء ذاته- فدخل.. وأغوته الساعة.. فأخذها، وتخلّص منها في المدينة. وشاء سوء الطالع أن كان صاحب الحانوت الذي اشتراها منه قريبا لإحدى جواري المنزل، فجاء يزورها في يوم عطلة، وحدّثها عن الساعة.. وشرع القوم- لاسيما وكيل الأعمال، الذي كان يكره "**بوليكي**"- يتحرون ويتقصون، وكأن الأمر يعني كلا منهم.. وانكشف الأمر، ورفع إلى السيدة، فأرسلت تستدعي "**بوليكي**"، فإذا به يرتمي على قدميها لتوّه، ويعترف بكل شيء- في لهجة مؤثرة- كما أوصته زوجته أن يفعل.. وأحسن تنفيذ تعليمات زوجته بحذافيرها، فأخذت السيدة تقرعه، ثم أخذت تعظه.. ومضت تتكلم، وتتكلم، مذكّرة إياه بالله، وبالاستقامة، وبالحياة الآخرة، وبالزوجة والأولاد حتى أثرت في نفسه، وأدمعت عينيه.. ثم قالت:

- إنني أصفح عنك على أن تعدني بألا تعود إليها ثانية!

فقال "**بوليكي**"، وهو ينشج ببكاء مؤثر:

- أبدا لن أعود ما حييت.. أو فلأهلك، ولتنفجر أمعائي!

وعاد "**بوليكي**" إلى داره، فقضى يومه مستلقيا على الفرن، وهو يجهش ببكاء أشبه بخوار العجل.. ومنذ ذلك اليوم لم يؤخذ عليه أي مأخذ. بيد أن حياته لم تعد ممتعة، فقد ظل القوم ينظرون إليه كلص، حتى إذا اقترب موعد التجنيد، أخذ كل امرئ يومئ إليه!

*****

ولقد كان "**بوليكي**" طبيبا للجياد، كما قدّمنا.. أما كيف أصبح كذلك فجأة، فهذا ما لم يدره أحد، ولم يدره هو بوجه خاص.. إذ كان واجبه الأوحد في مزرعة الخيل- حيث كان يعمل تحت إمرة رئيس حراس انتهى أمره إلى النفي- أن ينظف الحظائر من

الروث، وأن ينظف الجياد أحيانا، وأن يحمل الماء.. فليس من المحتمل أن يكون قد تعلم المهنة هناك! ثم بات نسّاجا، وعمل- بعد ذلك- في بستان كان يجتث الأعشاب من دروبه، ثم قُضي عليه بتكسير الطوب عقابا على ذنب أتاه، ثم أصبح حمّالا لدى تاجر كان يدفع لخليلته مبلغا سنويا لتدعه في هذا العمل.. ومن ثم فمن الواضح أنه لم يكن ممكنا أن يحظى بأية خبرة بأعمال البيطري هناك أيضا! ومع ذلك فإن شهرته كبيطري رائع المهارة- بل خارقها- بدأت تذيع تدريجا، وبطريقة ما خلال إقامته- آخر مرة- في قريته. إذ حجم جوادا مرة أو اثنتين، ثم أرقده أرضا، وراح ينخسه في خاصرته، ثم أمر بإحكام وثاقه، وراح يجرح خصيتيه- والجواد يناضل عبثا- قائلا إن هذا يؤدي إلى "استنزاف الدم المرتد من الحوافر"! ثم أوضح لفلاح أن من الضرورة- التي لا غنى عنها- فصد الدم من وريدي جواده "زيادة في إراحته"، وشرع يدق المبضع المثلوم السن، بمطرقة من الخشب.. وضمد- بعد ذلك- جرحا في أسفل بطن جواد صاحب فندق القرية بشريحة اقتطعها من شال زوجته.. وأخيرا، راح يمارس علاج كافة أنواع القرح بنثر مسحوق الشب عليها، ثم ترطيبها بمادة من زجاجة لديه.. وكان- أحيانا- يوصي بإعطاء الجواد جرعات من أي شيء يخطر بباله.. وكلما ازداد عدد الجياد التي يعذبها، ويفضي بها إلى الموت، ازداد القوم إيمانا ببراعته وإقبالا بجيادهم عليه!

وأشعر بأنه ليس لنا- معشر المتعلمين- ما يسوغ الضحك من "**بوليكي**"، فإن الأساليب التي اتبعها لبث الثقة، هي عين تلك التي كانت تؤثر على آبائنا، والتي لاتزال تؤثر علينا، والتي ستظل تؤثر على أبنائنا.. فإن الفلاح الذي ينكب على رأس جواده الأوحد- الذي لا يمثل كل ثروته فحسب، وإنما هو فرد من أسرته، في الغالب- وهو يحملق في يقين وخوف إلى وجه "**بوليكي**" العابس، وأساريره الدالة على خطورة شأنه، وكميه المحسورين عن ذراعيه النحيلتين، وقد راح يضغط موقع الداء من الجواد تماما- وبين فكيه خرقة مبللة بدواء، أو زجاجة مليئة بمسحوق الشب، ثم يقدم في جرأة على شق اللحم الحي- وهو يقول لنفسه في السر: "لسوف يتغلب الحيوان المعوج السيقان على جراحه ويبرأ منها!"- في حين يتظاهر بأنه يعرف أين الدم وأين القيح، وأيها رباط

العضل وأيها العرق.. هذا الفلاح الذي يرقب كل هذا لا يمكن أن يرتاب في أن "**بوليكي**" ما كان ليرفع يده كي يشق اللحم، لو أنه لم يكن على دراية بما يفعل، لاسيما وأنه- أي الفلاح- لا يستطيع أن يقدم على شيء كهذا بنفسه.. فإذا حمّ القضاء، وانتهى الأمر فإنه لا ينحو باللائمة على نفسه إذ أذن للبيطري بشق لحم جواده دونما داع لذلك، ولست أدري رأيك في هذا، بيد أنني جرّبت الأمر ذاته مع طبيب راح-برجاء مني- يعذب أولئك الذين أعزّهم.. أليس المبضع، وزجاجة الدواء المتسامي[(١)]، و"يترنح.. السقاوة.. تفصيد الدم.. المادة" وما إليها.. أليس لكل هذه الكلمات من الأثر ما لكلمات: "العصاب.. والروماتيزم.. والكائنات الحية"، وما إليها؟ إن الحكمة القائلة: "يقدمون على الخطأ وهم يحلمون"، لا تنطبق على الشعراء قدر ما تنطبق على الأطباء والجراحين البيطريين!

(٢) في (ركن) "بوليكي"!

وعندما اجتمع أهل القرية في العتمة الباردة- التي شابت ذلك المساء من أمسيات أكتوبر (تشرين الأول) - لاختيار المجندين وإعلان أصواتهم، أمام مكتب إدارة الضيعة، كان "**بوليكي**" يجلس على حافة فراشه، منهمكا في صحن دواء للخيل وضعه على المنضدة وراح يمر عليه بزجاجة.. أما كنه هذا الدواء، فلم يكن "**بوليكي**" نفسه يعرفه.. كان يتألف من المادة الأكالة المتسامية، والكبريت الخام، وأملاح جلوبر، وبعض أنواع العشب التي كان قد جمعها إذ خيل إليه فجأة أنها ذات نفع للخيل المصابة بالرياح المحتبسة[(٢)]، ثم قدر أنها لن تكون غير لازمة للاضطرابات الأخرى!

وكان أطفاله قد ناموا: اثنان على الفرن، واثنان على السرير، وواحد في المهد الذي جلست "**أكولينا**" إلى جواره تغزل.. وكانت بقية الشمعة- إحدى شموع مالكة الضيعة، لم تلق من الصون ما يبعدها عن يد "**بوليكي**"- تحترق في شمعدان خشبي

(١) المادة الكيمياوية المتسامية هي التي تتحول إذا عرضت للهواء إلى بخار يتصاعد... وغالباً ما يكون نفاذ العبير. (٢) إنتفاخ البطن لإحتباس الغازات الناشئة عن سوء الهضم.

على حافة النافذة، و"**أكولينا**" تنهض إليها- من آن إلى آخر- فتسوي ذبالتها بأصابعها، حتى لا يضطر زوجها إلى أن يتعطل عن عمله المهم. وكان بعض المتحررين في الرأي يعتبرون "**بوليكي**" ببطريا غير ذي قيمة، وإنسانا غير ذي شأن. ولكن سواهم- وهم الأغلبية- كانوا يعتبرونه إنسانا غير ذي شأن، غير أنه أستاذ عظيم في فنه.. أما "**أكولينا**" فكانت تراه طبيب الخيل الأول، وخير الرجال بلا مراء، برغم أنها كثيرا ما كانت تؤنبه، بل وتضربه!

ونثر "**بوليكي**" بعضا من مادة خام على كفه؛ إذ إنه لم يكن يستخدم الموازين قط، وقد اعتاد أن يسخر من الألمان الذين يستخدمونها قائلا:

- ليس هذا من صنعة العقاقير في شيء!

ووزن "**بوليكي**" المادة على راحة يده، فلاح له أن الكمية غير كافية، فأفرغ عشرة أمثالها من جديد، وقال محدثا نفسه: "سأضع هذا القدر كله، ليكون أفضل تأثيرا!

وأسرعت "**أكولينا**" تلتفت عند سماعها صوت زوجها- مولاها وسيدها- مترقبة منه أمرا. حتى إذا رأت أن حديثه لم يكن يعنيها، هزّت كتفيها، وجال بخاطرها: "ياللمعرفة! ترى من أين يستقيها؟!". ثم واصلت الغزل. وكان "**بوليكي**" قد وضع المادة على ورقة، فإذا الورقة تهوي إلى الأرض.. ولم يفت ذلك "**أكولينا**"، فصاحت:

- "**آني**"، انتبهي.. لقد أسقط أبوك شيئا، فالتقطيه!

وأبرزت "**آني**" ساقيها العاريتين، الصغيرتين، الناحلتين، من تحت المعطف الذي كانت تتغطى به، وانسابت تحت المنضدة كالهريرة الصغيرة، والتقطت الورقة، قائلة:

- هاك يا أبت!

ثم اندفعت عائدة إلى السرير، وقد أثلج البرد قدميها الصغيرتين. وصاحت أختها الصغيرة بصوت رفيع وسنان، ونطق الثغ:

- لا تدفعيني!

فتمتمت "**أكولينا**":

– لسوف أضربكما!

وعاد الرأسان يختفيان تحت المعطف!

وقال "**بوليكي**" بعد أن وضع المادة في الزجاجة، وأحكم سدادها:

– لسوف يمنحني ثلاثة روبلات. ولسوف أبرئ جواده. ما أرخص الثمن.. إنه جهد يفلق الدماغ.. اذهبي يا "**أكولينا**" فاطلبي من "**نيكيتا**" قدرا من التبغ، وسأدفع له الثمن غدا.

وأخرج من جيب بسرواله أنبوبة غليون من خشب الليمون– كانت مطلية يوما– وقد انتهت بفوهة "مبسم" من الشمع الأحمر، وشرع يثبتها في قصعة الغليون (المكان الذي يوضع فيه التبغ)

وتركت "**أكولينا**" مغزلها وخرجت، وهي تحرص على أن تتفادى كل ما كان في طريقها.. وإن لم تكن هذه بالمهمة الميسورة. وفتح "**بوليكي**" الصوان، فوضع فيه الدواء، ورفع إلى فمه زجاجة "فودكا" فإذا بها خالية، وإذ ذاك قطّب محياه.. حتى إذا عادت زوجته وقد أحضرت التبغ، جلس على حافة السرير، وحشا غليونه وأشعله، ثم أشرقت أساريره رضا واعتزازا، شأن الرجل الذي أتم عمل يومه.. وسواء راح يفكر في غده– وكيف سيمسك بلسان الجواد ويصب دواءه، هذا المزيج القوي في حلقه– أو راح يتأمل كيف أن أحدا لا يرفض للشخص النافع طلبا– "ألم تر بنفسك؟ ألم يرسل له "**نيكيتا**" التبغ؟! فإن "**بوليكي**" شعر بهناءة.

*****

وفجأة دفع الباب– الذي كان معلقا على محور (مفصلة) واحدة– ودخلت "الركن" خادم من "فوق"! ولم تكن الوصيفة الثانية، ولا الثالثة، وإنما الخادم الصغيرة التي كانت مكلّفة بنقل الرسائل. و"فوق"– كما يعرف كل امرئ– يعني منزل سيدة الضيعة، ولو كان مقاما على منخفض من الأرض!

ولقد اعتادت "**أكسيوتكا**"– وهو اسم الفتاة– أن تدخل في اندفاع، مارقة كأنها

رصاصة، دون أن تثني ذراعيها اللتين كانتا تتحركان في اتساق مع سرعتها، وتهتزان كبندول الساعة، لا إلى جانبيها، وإنما أمامها.. وكانت وجنتاها أشد احمرارا من ثوبها الوردي دائما، كما كان لسانها يتحرك بسرعة ساقيها. وقد اندفعت إلى الحجرة، وأمسكت بحافة الفرن، لسبب ما غير معروف.. وشرعت تترنح إلى أمام وإلى خلف، ثم أخذت تخاطب "**أكولينا**"- وهي مقطعة الأنفاس- دون أن تطلق أكثر من كلمتين أو ثلاثا في كل مرة على النحو التالي:

"إن السيدة.. أصدرت أوامرها.. بأن يصعد إليها.. "**بوليكي**" توّا.. أوامرها أن يصعد!".

ثم أمسكت، والتقطت أنفاسها بعناء، وعادت تقول:

- لقد كان "**ايجور ميخايلوفيتش**" مع السيدة.. وقد تحدثا عن المجندين.. وذكرا "**بوليكي**".. وقد أمرت "**أفدوشيا نيكولايفنا**".. بأن يصعد في التو واللحظة.. هكذا أمرت "**أفدوشيا نيكولايفنا**"...

وتنهدت مرة أخرى، ثم أتمت عبارتها:

- بأن يصعد في هذه اللحظة..!

وأخذت "**أكسيوتكا**" تجيل بصرها- لنصف دقيقة- بين "**بوليكي**" و"**أكولينا**"، والأطفال الذين كانوا قد أخرجوا رؤوسهم من تحت الأغطية.. ثم التقطت قشرة ثمرة من ثمار البندق- كانت على الفرن- ورمت بها "**آني**" الصغيرة. وما لبثت أن رددت: "أن يصعد في هذه اللحظة!". ثم اندفعت إلى خارج الحجرة كالإعصار، والبندولان- الممثلان في ذراعيها- يتأرجحان كالعادة، بعرض الاتجاه الذي كانت تندفع فيه!

ونهضت "**أكولينا**" عن مغزلها مرة أخرى، فأحضرت لزوجها حذاءيه.. وكانا حذاءين رثين من أحذية الجنود تخللتهما الثقوب.. ثم أخذت سترة زوجها من فوق الفرن، فناولته إياها دون أن تنظر إليه، وقالت:

- ألا تبدل قميصك يا "**بوليكي**"؟

فأجابها:

– لا. ولم تكن "**أكولينا**" قد نظرت إلى وجهه مرة، وهو يرتدي حذاءيه وسترته. وحسنا كانت تفعل بعدم النظر.. ولقد كان وجه "**بوليكي**"– في هذه المرة– شاحبا، وكان فكه الأسفل يختلج، وتبدت في عينيه نظرة دامعة، وادعة، عميقة الأسى.. نظرة لا يراها المرء إلا في أعين المساكين، والضعفاء، والمذنبين!

ورجّل "**بوليكي**" شعره، ثم همّ بالخروج، ولكن زوجته استوقفته، فدسّت في صدره رباط شريطه الذي كان مدلى تحت سترته، ووضعت له قلنسوته على رأسه.. ومن خلف الحاجز الخشبي، انبعث صوت زوجة النجار:

– ما هذا يا "**بوليكي**"؟ هل أرسلت السيدة في طلبك؟

كانت زوجة النجار قد رفعت صوتها في ذلك الصباح بالذات، متشاجرة مع "**أكولينا**" من أجل وعاء الغسيل المصنوع من رماد الفرن الذي قلبه أولاد "**بوليكي**" في ركن النجار. ومن ثم فقد سرّت– في بداية الأمر– إذ سمعت بأن "**بوليكي**" قد استدعي أمام السيدة.. فغالبا ما يكون الاستدعاء لغير خير!

وكانت امرأة ماكرة، دبلوماسية، ذات لسان لاذع فما كان أحد ليعرف– خيرا منها– كيف يشطر امرءا بكلمة.. أو هكذا كانت تتصور على الأقل.. وقد عادت تقول:

– أتوقع أن توفدك السيدة إلى المدينة لشراء أشياء، فما أعتقد مهمة كهذه تتطلب سوى من هو أهل للثقة، ولهذا فإن السيدة تستدعيك.. فلعلك تبتاع لي ربع رطل من الشاي– من هناك يا "**بوليكي**"!

وكبحت "**أكولينا**" دموعها، وقد راحت شفتاها تختلجان معبرتين عن غضب. وأحسّت بأنها تتمنى لو استطاعت أن تمسك "هذه السليطة، زوجة النجار، من شعرها الرث الأكرت!"

ولكنها نسيت زوجة النجار ذات اللسان السليط؛ إذ نظرت إلى أطفالها وفكّرت في أنهم قد يصبحون بلا أب– إذا جند أبوهم– كما تصبح هي زوجة جندي، لا تكاد تكون أحسن حالا من الأرملة في شيء.. وأخفت وجهها في راحتيها، وجلست على السرير، وأسلمت رأسها إلى الوسائد. فقالت ابنتها اللثغاء، وهي تجذب المعطف– الذي

كانت تتغطى به- من تحت مرفق أمها:

- أماه، إنك تهشميننني!

فصاحت "**أكولينا**":

- ليتكم تموتون.. جميعا! لقد أنجبتكم إلى الدنيا لغير ما شيء سوى الحزن!

واجهشت ببكاء مرتفع، مما سرّ زوجة النجار التي لم تكن قد نسيت بعد انقلاب وعاء الغسيل في ركنها، في الصباح!

(٤) "بوليكي".. مبعوث السيدة إلى المدينة!

وانقضى نصف ساعة.. وشرع الرضيع يبكي، فنهضت "**أكولينا**" وألقمته ثديها. وكانت قد كفّت عن البكاء، ولكنها أسلمت وجهها- الذي ظل محتفظا بوسامته رغم نحوله- إلى يدها، وثبتت بصرها على الومضات الأخيرة للشمعة المحتضرة، وجلست تفكر فيما دفعها إلى الزواج، وتعجب مما يدعو إلى طلب جنود بهذه الكثرة، وتتدبر كيف تستطيع أن تثأر من زوجة النجار!

وسمعت وقع قدمي زوجها، فجففت دموعها، ونهضت لتفسح له مكانا يمر خلاله. ودخل "**بوليكي**" كما لو كان غازيا مظفرا، فطوّح بقلنسوته على السرير، ونفخ، وفك أزرار سترته.

- ترى ما الذي كانت تبغيه منك؟

- أم م م.. طبعا إن "**بوليكوشكا**" هو آخر من يخطر بالبال من الرجال.. ولكن، عندماتكون ثمة مهمة تحتاج للأداء، فمن الذي يرتجى لها؟ "**بوليكوشكا**" بلا شك...

- وأية مهمة هي؟

ولم يجد "**بوليكي**" داعيا للتعجيل بالرد فأشعل غليونه، وبصق قبل أن يقول:

-- أن أذهب فأحضر نقودا من أحد التجار.

وهتفت "**أكولينا**" متسائلة:

– تحضر نقودا؟!

فضحك "**بوليكي**" – بصوت خافت– وراح يهز رأسه، قائلا:

– آه.. أو ليست السيدة بارعة في اختيار الكلمات؟

قالت:

– لقد كنت معتبرا غير أهل للثقة، ولكني أأتمنك أكثر مما أأتمن أي رجل آخر!

وكان "**بوليكي**" يتكلم بصوت مرتفع حتى يسمعه الجيران. واستطرد قائلا:

– قالت: "لقد وعدتني بأن تستقيم، فهاك الدليل الأول على أنني أصدقك.. اذهب إلى التاجر، فخذ منه النقود التي هو مدين بها، وأحضرها إليّ!

فقلت لها:

– إننا جميعا عبيدك يا مولاتي، ومن واجبنا أن نخدمك. ولهذا أشعر بأن بوسعي أن أفعل أي شيء لفخامتك، ولست أملك أن أرفض أداء أي عمل.. مهما تكن أوامرك أصدع بها، لأنني خادمك!

وعاد يبتسم من جديد، تلك الابتسامة المنطوية على ضعف واستخذاء، وتلطف، وشعور بالذنب، ثم استأنف الحديث قائلا:

– فقالت: "أحسنت.. إذن فسوف تؤدي المهمة بإخلاص؟"..

ثم أردفت:

– إنك لتعلم أن مصيرك يتوقف عليها!

فرحت أقول لها:

– كيف أعجز عن أن أدرك أن بوسعي أن أنفذ أوامرك بحذافيرها؟ إذا كانوا قد تقولوا عليّ، فإن كل امرئ يستطيع أن ينسج الأقاويل عن سواه.. ولكني لم أرع يوما أية فكرة توحي بأن فخامتك تصدقين هذه الأقاويل.. أو هكذا اعتقد على الأقل..

وقصارى القول إنني رحت أدق في رفق، حتى لانت مولاتي تماما. فقالت:

– لسوف أحسن الظن بك!

ولاذ بالصمت دقيقة، ثم عادت الابتسامة ترتسم على مُحيَّاه من جديد، واستأنف

الحديث:

– إنني أعرف جيد المعرفة كيف أتحدث إلى أمثالها!

وعندما كنت أنطلق لأعمل لحسابي– فيما مضى– كان يحدث أن يقسو شخص من طبقتها عليّ، ولكني لا أكاد اجتذبه بكلمة أو اثنتين، حتى أروح "أصقله" إلى أن يصبح في نعومة الحرير!

– وهل المبلغ كبير؟

فأجاب "**بوليكي**" في غير اكتراث:

– ألف وخمسمائة روبل.

وهزّت زوجته رأسها، ثم عادت تسأله:

– ومتى أمرت بأن ترحل؟

– لقد قالت: غدا.. خذ أي جواد يروق لك، واذهب إلى إدارة ضيعتي، ثم انطلق في رحلتك.. والله معك!

فقالت "**أكولينا**"، وهي تنهض فترسم علامة الصليب على وجهها وصدرها:

– المجد للرب!

ثم أردفت في همس، حتى لا يسمع صوتها خلال الحاجز الخشبي:

– وليساعدك الله يا "**بوليكي**"..

وأمسكت بكم قميصه، وقالت، وهي سادرة في همسها:

– أصغ إليّ يا "**بوليكي**".. أستحلفك بالله وعاهد الله على ألا تمس قطرة من الخمر شفتيك.

فقال ساخرا:

– أمر محتمل.. أن أشرب وأنا أحمل كل هذه النقود.. آه! ما أبدع العزف الذي كان يوقعه شخص ما على البيانو، هناك! بديع!..

وصمت لحظة، ثم ابتسم وقال:

– أحسبها السيدة الصغيرة.. كنت أقف هكذا أمام السيدة الكبيرة، بجانب ذلك

الذي لا أدريه، وكانت السيدة الصغيرة تعزف خلف الباب. وظلت تدور وتدق، حتى نسّقت بين الأوتار فانسابت في تناسق بديع.. آه، يا عجبي! لكم أتمنى أن أعزف لحنا.. إنني سرعان ما أحذق العزف، وإني بهذا لقمين! لكم أنا بارع في إجادة مثل هذا الأمر.. أعطني قميصا نظيفا في الغد!

وأويا إلى فراشهما سعيدين.

(٥) في اجتماع الفلاحين

وكان الاجتماع صاخبا، خارج إدارة الضيعة في تلك الأثناء. فإن المهمة التي كانوا يعالجونها لم تكن هيّنة. وكان كل الفلاحين- تقريبا- حضورا. وبينما كان وكيل الأعمال مع السيدة، ظلوا مرتدين قلنسواتهم، وازدادت أصواتهم عددا وارتفاعا. وكانت تتخلل اللغط العميق- في أويقات نادرة- أصوات متهدجة، وأصوات متحشرجة، وأصوات رفيعة، تملأ الجو، وتبدو- إذ تنساب خلال نوافذ دار السيدة- كهدير البحر ينساب من بعيد، فيثير في السيدة انفعالا عصبيا كذلك الذي تحدثه عاصفة مرعدة ثقيلة الوطأة.. انفعالا هو خليط من الخوف وعدم الارتياح. فقد كانت السيدة تشعر كما لو أن الأصوات كانت توشك أن تزداد- في أية لحظة- ارتفاعا فوق ارتفاعها، وسرعة فوق سرعتها، ثم يحدث أمر ما.. وراحت تقول في نفسها: "كأنما من العسير أن يجري كل شيء في هدوء وسلام، بدون نزاع وصياح، وفقا لشريعة الحب الأخوي والتواضع المسيحي!"

كانت ثمة أصوات عديدة تتكلم في آن واحد، ولكن صوت "**ثيودور ريسون**" النجار كان أكثرها ارتفاعا. فقد كان في أسرته شابان مكتملا النمو؛ ومن ثم فقد أخذ يحمل على آل "**دوتلوف**". وانبرى الشيخ "**دوتلوف**" يدافع عن نفسه، فبرز من بين الحشد الذي كان يقف خلفه- في بادئ الأمر- وراح يتكلم مرسلا نثارا من لعابه ومخاطه، وهو يبسط ذراعيه آنا، ويمسك بلحيته الصغيرة آنا آخر، ويطلق الكلمات بطريقة كان من العسير عليه- هو نفسه- أن يفهم معها ما كان يقول. وكان ابناه وابن

أخيه- وهم جميعا من الشباب البديع- يقفون خلفه منكمشين، بينما كان الشيخ أشبه بالدجاجة التي تذود الصقر عن أفراخها.. وكان الصقر هو "**ريسون**".. بل إن "**ريسون**" لم يكن يهاجم وحده "**دوتلوف**"، بل راح يهاجمه معه جميع الرجال الذين أوتي كل منهم في أسرته شابين مكتملي النمو.. والآباء الذين أوتي كل منهم ابنا واحدا، وكل المجتمعين تقريبا!

وكانت نقطة الخلاف أن شقيق "**دوتلوف**" كان قد جنّد منذ ثلاثين سنة؛ ومن ثم فقد رغب "**دوتلوف**" في أن تعفى أسرته من دورها- في التجنيد- بين الأسرات التي أوتيت كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان صالحين للجندية.. وأراد أن تحسب خدمة أخيه في الجيش لصالح أسرته، فتمنح بذلك عين الفرصة التي تمنحها الأسرات التي لا يوجد بين أفرادها غير شابين، ويجري الاقتراع بين هذه الأسرات جميعا- على قدم المساواة- ليختار المجند الثالث من بين شبابها. وكانت ثمة أربع أسرات أخرى- إلى جانب أسرة "**دوتلوف**"- تضم كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان. ولكن إحداها كانت أسرة شيخ القرية، وقد أعفتها سيدة الضيعة. أما الأسرة الثانية، فكان أحد أبنائها قد جند في العام السابق.. ومن كل من الأسرتين الباقيتين اختير مجند، في هذه المرة.. بل إن أحد هذين المجندين لم يحضر الاجتماع، ولكن زوجته وقفت محزونة خلف الآخرين جميعا، يساورها أمل مبهم في أن عجلة الحظ قد تتجه نحوها، بطريقة ما.. أما "**رومان**" ذو الشعر الأحمر، والد المجند الآخر، فقد وقف في سترة مهلهلة- وإن لم يكن فقيرا- ونكّس رأسه في صمت، وهو يستند إلى جدار المبنى لا يكاد يتحرك إلا ليرمق باهتمام أي امرئ كان يرفع صوته- من حين إلى حين- ثم يعود إلى تنكيس رأسه من جديد، وكأنما كان كل كيانه ينضح بالتعاسة.. وأما الشيخ "**سمعان دوتلوف**"، فقد كان رجلا يستطيع أي امرئ- عرف عنه شيئا- أن يأتمنه على مئات وآلاف الروبلات، وهو مطمئن. كان رزينا، تقيا، يمكن الركون إليه.. وكان شيخ الكنيسة كذلك. وهذا مما جعل الضجيج الذي أحاط به- في هذه المناسبة- يبدو أكثر إثارة للدهشة والعجب!

وعلى العكس منه، كان "**ريسون**" النجار، وهو رجل طويل أسمر. فقد كان سكيرا

عربيدا، بارعا جدا في محاجة العمال والتجار والفلاحين والسادة ومجادلتهم في الاجتماعات والأسواق. وقد بدا في الاجتماع معتدا بنفسه لاذع السخرية، وراح- من علياء طوله- يسحق شيخ الكنيسة المتداعي بكل ما لصوته الرنان من قوة، وبكل ما أوتي من موهبة للخطابة، حتى لقد اهتيج شيخ الكنيسة وأخرج عن وقاره العميق المعهود.

وإلى جانب هؤلاء كان "**جاراسكا كوبيلوف**" حاضرا، وكان أحد المتكلمين باسم الجيل الشاب، إذ لم يكن قد تجاوز مرحلة الشباب. وكان مستدير الوجه، مربع الرأس، مجعد شعر اللحية، ربعة القوام. وقد حذا حذو "**ريسون**"، وانحاز إليه في الجدال. وكان قد اكتسب مكانة وقدرا في اجتماعات القرية، إذ امتاز بخطبه القاطعة الباترة.. ثم كان هناك، "**ثيودور ميلنيكني**". وكان شابا هو الآخر، طويلا، رفيعا، أصفر الوجه، ملتف الكتفين، خفيف اللحية، ضيق العينين، دائم الهم والاكتئاب، لا يرى سوى الجانب المظلم من كل شيء.. وكثيرا ما أثار الارتباك في الاجتماعات بما كان يوجهه من أسئلة وملاحظات مفاجئة، محرجة!

وقد انحاز كل من هذين الخطيبين- "**كوبيلوف**" و"**ميلنيكني**"- إلى "**ريسون**". وكان هناك- فضلا عنهما- اثنان من المهذارين الثرثارين، راحا ينضمان- بين آن إلى آخر- إلى الثلاثة.. وكان أحدهما يدعى "**خرابكوف**"، وقد أوتي وجها من أكثر الوجوه بشاشة، ولحية بنية مسترسلة، وقد راح يردد:

- آه، يا صديقي الأعز!

أما الآخر فهو "**زيدكوف**"، وكان شابا قلة في الجسم، ذا وجه كوجه الطائر، وقد ظل يردد في كل فرصة:

- هكذا الأمر فعلا يا إخوتي!

موجها الحديث إلى كل امرئ، ومتكلما في لباقة دافقة، دون أن يلزم الموضوع إطلاقا.. وكان هذان الاثنان قد انحازا- في بادئ الأمر- إلى أحد الجانبين، ثم ناصرا الفريق الآخر، ولكن أحدا لم يكن ينصت إليهما. وقد كان هناك غيرهما، ممن على

شاكلتهما، ولكن هذين الاثنين اللذين ظلا يتنقلان خلال الحشد، ويرفعان عقيرتيهما بالصياح فوق كافة الأصوات– فيثيران الجزع في نفس سيدة القرية– كانا أقل الجميع ظفرا بإصغاء الجمع. وإذ انتشيا بالضجيج والصياح، أسلما نفسيهما للذة إطلاق صوتيهما بالجعجعة.

وكان بين أعضاء الاجتماع كثيرون غيرهم، من ذوي الشخصيات الرصينة، المحترمة، وقد وقفوا غير مكترثين، أو مستاءين. كما كانت هناك نسوة وقفن خلف الرجال، وفي أيديهن عصي.. على أنني سأتحدث عنهن في مرة أخرى، إن شاء الله. وعلى كل حال، فإن الشطر الأكبر من الحشد كان من الفلاحين الذين وقفوا كما لو أنهم كانوا في كنيسة يتهامسون– كل من خلف ظهر الآخر– بأحاديث عن شؤونهم المحلية أو عن موعد اقتطاع الحطب من الغابة.. أو كانوا ينتظرون– في صمت– انتهاء الجدال.

كذلك كان هناك فلاحون أثرياء، ما كان الاجتماع ليزيد من رفاهيتهم أو ينقص. من هؤلاء كان شيخ القرية "**أرميل**" ذو الوجه العريض اللامع، الذي كان الفلاحون يطلقون عليه المكرش لأنه كان غنيا.. ومنهم كذلك كان "**ستاروستين**" الذي كان وجهه ينمّ عن رضا ذاتي بقوته ونفوذه، وكأنه يقول:

– لكم أن تتكلموا ما شاء لكم الكلام، ولكن أحدا لن يمسني! إن لي أربعة أبناء، ولكن ما من واحد منهم سيضطر إلى الذهاب!

وكان هذان الاثنان يتعرضان– بين وقت وآخر– لهجوم من بعض ذوي التفكير المستقل، مثل "**كوبيلوف**" أو "**ريسون**"، ولكنهما كانا يجيبان في هدوء وحزم، وباطمئنان إلى مناعتهما.

وإذا كان "**دوتلوف**" قد شابه الدجاجة التي تذود الصقر عن أفراخها، فإن فتيانه لم يكونوا يشبهون الأفراخ في كثير. فلم يحوموا حوله ويشقشقوا، وإنما وقفوا خلفه صامتين.. كان ابنه الأكبر "**أجنات**" قد بلغ الثلاثين من عمره فعلا، كما أن الثاني "**فاسيلي**" كان رجلا متزوجا. أما الثالث– ابن أخيه "**إيليشا**"– فكان قد تزوج من عهد قريب.. وكان شابا أشقر، متورد الوجه، في سترة أنيقة من جلد الغنم، إذ كان من

سائقي عربات البريد.. وقد وقف ينظر إلى الجمع، ويحك- في بعض الأحيان- رأسه تحت قبعته، وكان الأمر كله لم يكن يعنيه في شيء بالرغم من أن الصقور كانت تحوم لكي تنقض عليه هو بالذات!

*****

وقال أحد الحضور معرضا بما قاله "**دوتلوف**" عن تجنيد أخيه:

- إذا كان الأمر كذلك، فإن جدّي كان جنديا، ومن ثم فلي أن أرفض أن أكون بين المقترعين- أنا الآخر- على الأساس ذاته.. ليس هناك قانون يقر هذا يا صديقي. ففي موسم التجنيد الماضي. أُخذ "**ميخيتشيف**" بالرغم من أن عمه لم يكن قد عاد من الخدمة بعد!

وكان "**دوتلوف**" يقول في الوقت ذاته:

- لا أبوك ولا عمك قد خدم القيصر يوما. ولماذا نذهب بعيدا، وأنت نفسك لم تخدم سيدة الضيعة، ولا الحكومة، وإنما كنت تقضي كل وقتك في الحانة.. لقد انفصل عنك أبناؤك لأن من المستحيل عليهم أن يقيموا معك، ولهذا فأنت تتحمس لترشيح أبناء الغير للتجنيد.. أما أنا فقد انضويت في خدمة البوليس عشر سنوات، وخدمت كشيخ للكنيسة. ولقد احترق كل ما كنت أملك مرتين، فلم يمد لي أحد يد العون. فهل يُقضى عليّ اليوم بالخراب لأن الأمور تسير في داري بسلام وتقوى؟ أعيدوا إليّ شقيقي إذن! فقد مات في الخدمة العسكرية، على وجه التأكيد.. احكموا بأمانة، وفقا لقانون الرب، أيها القوم المسيحيون، ولا تنصتوا إلى هذيان سكير!

وفي الوقت ذاته، كان "**جاراسكا**" يقول لـ"**دوتلوف**":

- أفتتخذ من أخيك حجة؟ ولكن أهل القرية لم يرسلوه إلى الجيش، وإنما أرسله سيد الضيعة، بسبب أساليبه الشريرة؛ ومن ثم فهو ليس بالعذر الذي يعفيك!

ولم يكن "**جاراسكا**" قد أتم حديثه، عندما تقدم "**ثيودور ميلنيكني**" - الأصفر الوجه- وشرع يقول وهو بادي الكآبة:

– أجل، هكذا ينبغي القول.. إن السادة يرسلون إلى الجيش بمن يروق لهم، ومن ثم فعلى القوم أن ينفضوا أيديهم. لقد أجمع القوم على فتاك، فإذا لم يرق ذلك لك، فاذهب وسل السيدة، فلعلها تأمرني– أنا الرجل الذي يعول أسرة– بأن أترك أولادي وأذهب..

ثم أردف بمرارة:

– هاك قانونا يرضيك!

ولوّح بيده ثم عاد إلى مكانه السابق. وإذ ذاك، انتبه "**رومان**" ذو الشعر الأحمر– الذي كان ابنه أحد المجندين اللذين تم اختيارهما– فرفع رأسه وغمغم:

– هو كذلك! هو كذلك..!

وجلس على عتبة الباب في استياء وكرب. على أن هؤلاء لم يكونوا كل من راحوا يتكلمون معا، في وقت واحد. فإلى جانب أولئك الذين كانوا يتحدثون عن شؤونهم الخاصة– في المؤخرة– لم ينس المهذاران أن يؤديا دوريهما.

فقال "**زيدكوف**"– الضئيل الجسم– يناصر "**دوتلوف**":

– وهكذا ينبغي أيها القوم الأوفياء.. يجب أن يحكم المرء بضمير مسيحي.. أعني أننا يجب أن نحكم كمسيحيين، أيها الإخوة!

وكان "**خرابكوف**" البشوش يقول مرددا كلمات "**جاراسكا كوبيلوف**"، وهو يجذب سترة "**دوتلوف**" المصنوعة من جلد الغنم: "يجب على المرء أن يحكم وفقا لضميره يا صديقي العزيز.. لقد كانت تلك إرادة السيد، وليس قرار أهل القرية الذي أرسل بأخيك إلى الجيش!

وقال آخرون:

– هذا صحيح! هكذا كان!

وصاح "**ريسون**" في "**دوتلوف**":

– أي سكير يهرف هناك؟ هل قدّمت لي أي شراب؟ أم ترى ابنك– الذي يلتقطونه من قارعة الطريق وهو ثمل– يجرؤ على لومي على الشراب؟ يجب أن نتخذ قرارنا أيها

الأصدقاء! إذا أردتم أن تعفوا آل "**دوتلوف**"، فاختاروا مجندا.. لا من بين الأسرات ذات الرجلين فحسب، بل ومن بين الأسرات التي لم تؤت كل منها سوى ابن واحد.. ودعوا الرجل يضحك منا!

– لابد لواحد من أبناء "**دوتلوف**" من الذهاب! ففيم إطالة الكلام؟

وشرعت أصوات مختلفة تقول:

– من الطبيعي أن تكون الأسرات ذات الأبناء الثلاثة هي الأولى في الاقتراع!

فصاح صوت:

– لابد لنا من أن نرى أولا ما سوف تقول السيدة. لقد كان "**ايجور ميخايلوفيتش**" يقول إنهم كانوا راغبين في إرسال أحد عبيد البيت!

وأوقفت هذه العبارة الجدال برهة، ولكنه سرعان ما تأجج من جديد، وتحول– مرة أخرى– إلى المسائل الشخصية فإن "**أجنات**"– الذي رماه "**ريسون**" بأن الناس يلتقطونه من الطريق ثملا شرع يرمي "**ريسون**" بأنه سرق منشارا من جماعة من النجارين الرحل، وأنه كان يضرب زوجته– حين يثمل– حتى يكاد يقضي عليها.. فرّد عليه "**ريسون**" بأنه يضرب زوجته حقا، ويضربها وهو في وعيه، دون أن ترعوي.. فأضحك قوله كل امرئ. ولكنه استنكر في إباء مفاجئ مسألة المنشار، ودنا من "**أجنات**" وسأله:

– من الذي سرق؟

فأجاب "**أجنات**":

– المتين البنيان– وهو يدنو منه بدوره:

– أنت!

وصاح "**ريسون**":

– من الذي سرق؟

ألم تكن أنت السارق؟

فأجاب "**أجنات**":

– لا.. بل أنت!

ومن المنشار انتقلا إلى سرقة جواد، وكيس من الشوفان، وخضر قطعت من حديقة أحد المنازل.. بل إنهما تبادلا الاتهام بشأن جثة ميت معين. وقال كل من الفلاحين عن الآخر أشياء رهيبة، لو صح جزء من مائة منها، لكانا يستحقان النفي إلى "**سيبريا**" – على الأقل– بحكم القانون.

وكان "**دوتلوف**" – في تلك الأثناء– قد اختار طريقة أخرى للدفاع عن نفسه، فإنه لم يرض عن صراخ ابنه، فحاول أن يوقفه قائلا:

– إنها خطيئة.. كف عن هذا! إنني آمرك!

وفي الوقت ذاته، راح يقول إن الذي أوتي ثلاثة شبان يقيمون معه ليس وحده رب أسرة ذات ثلاثة أبناء، وإنما ينطبق الوصف كذلك على من له ثلاثة أبناء يعيشون منفصلين عنه.

وأشار بذلك إلى "**ستاروستين**". فابتسم "**ستاروستين**"، وأجلى حلقه، وأخذ يسوّي لحيته، كما يفعل الفلاح الذي أوتي بسطة في الرزق، وأجاب بأن الأمر كله يتوقف على سيدة الضيعة، وأن من الجلي أن أبناءه كانوا موضع تقدير؛ إذ إن الأمر صدر بإعفائهم.. وحطم "**جاراسكا**" حجج "**دوتلوف**" بشأن الأسرات التي انقسمت، بأن قال إنه لم يكن ينبغي لها أن تنقسم– إذ كانت هذه هي القاعدة التي سادت خلال حياة سيد الضيعة المتوفى– وأنه ليس للمرء أن يبكي على لبن أريق، فقد تم الانقسام فعلا، وأصبح كل ابن ربا لأسرة، ولا سبيل إلى تجنيد الرجل الأوحد في هذه الأسرة.

وانبعثت أصوات الرجال الذين انقسمت أسراتهم، وقد انضم إليهم المهذاران:

– أتراهم انفصلوا عن أهلهم حبا في اللهو؟ لماذا يقضى عليهم الآن بالخراب المبرم؟

وقال "**ريسون**" لـ"**دوتلوف**":

– يحسن بك أن تبتاع بديلا إذا لم يرضك هذا، وفي وسعك أن تفعل!

فشدّ "**دوتلوف**" أطراف سترته حوله، في حركة يائسة وتقهقر وراء الآخرين، وهو يدمدم مغضباً:

– يبدو أنك تعد عليّ نقودي.. لسوف نرى ما يقول "**ايجور ميخايلوفينش**" عندما

يعود من لدن السيدة!

(٦) وانفض الاجتماع

وفي تلك اللحظة بالذات برز "**ايجور ميخايلوفيتش**" من الدار، فإذا القلنسوات ترتفع واحدة بعد أخرى، أثناء اقتراب وكيل الأعمال حتى تعرّت جميع الرؤوس من شيباء، وسوداء تتخللها بواكير الشيب، وحمراء، وبنية، وصفراء، وصلعاء من أمام، أو صلعاء في أم ناصيتها.. وأخذت الأصوات تخفت تدريجا، حتى ران الصمت في النهاية، وسيطر السكون. وخطا "**ايجور ميخايلوفيتش**" إلى عتبة الباب، وقد تجلّى أنه كان ينتوي الكلام.. ووقف في سترته الطويلة، وقد دسّ يديه في جيبيه الأماميين إخفاء لحرجه، وجذب على جبينه قلنسوته المصنوعة في المدينة.. وقف ثابتا، وقد باعد بين ساقيه على العتبة المرتفعة، فبدا كانه كان يطل من عل على تلك الرؤوس، وعلى الوجوه التي تطلّعت إليه ومعظمها مسن، ملتح، مليح.. وكان في وقفته هذه رجلا غير ذاك الذي كانه حين وقف أمام مولاته.. كان متعاليا، ذا سلطان.. وما لبث أن قال:

– هاكم قرار السيدة يا رجال! ليس مما يسرها أن تقدم أحدا من رقيق الدار. إنما الذين سيذهبون منكم، هم الذين تقررون بأنفسكم اختيارهم. إن المطلوبين– في هذه المرة– ثلاثة، والواجب أن يكونوا اثنين ونصف رجل، ولكن النصف الآخر سيراعى حسابه في المرة المقبلة فالأمر سيان، وإذا لم يذهب اليوم فلابد له من الذهاب باكرا!

فقالت بعض أصوات:

– طبعا، هذا صحيح!

بينما استطرد "**ايجور ميخايلوفيتش**":

– وفي رأيي أن لابد لـ"**خوريوشكين**" ولـ"**فاسكا ميتيوخين**" من الذهاب.. فهذه إرادة الله، كما يبدو!

وقالت الأصوات:

– أجل.. هذا صحيح!

وظل هو ماضيا في الحديث:

– أما الثالث فلابد أن يكون من آل "**دوتلوف**"، أو واحدا من الأسرات ذات الرجلين.. فما قولكم؟

وصاحت الأصوات:

– "**دوتلوف**"! إن في الأسرة ثلاثة من الشبان، في سن التجنيد!

ومن جديد، عاد الصياح يتزايد شيئا فشيئا، وانبعث حديث خضر الحديقة وبعض الأكياس التي سرقت من ساحة السيدة مرة أخرى، بطريقة ما. وكان "**ايجور ميخايلوفيتش**" قد قضى في إدارة الضيعة الأعوام العشرين الأخيرة، فكان أريبا، خبيرا؛ ومن ثمّ فقد ظل واقفا يصغي زهاء ربع ساعة، ثم أمر الجميع بالصمت، وأمر شبان أسرة "**دوتلوف**" الثلاثة بأن يقترعوا على من يذهب منهم. وأعدت أوراق الاقتراع، وخلطت داخل إحدى القبعات ثم سحب "**خرابكوف**" إحداها، فإذا بها ورقة "**إيليشا**".

وسيطر الصمت على الجميع. وقال "**إيليشا**" في صوت مرتعش:

– أهي ورقتي؟ دعني أراها!

فظل الجميع سكونا، بينما أمر "**ايجور ميخايلوفيتش**" بأن يحضر كل امرئ نقود التجنيد في اليوم التالي– سبعة كوبكات من كل دار– ثم أردف أن الأمر قد انتهى، وفض الاجتماع، وتحرك الحشد منصرفين، وأخذت أصواتهم ووقع أقدامهم تخفت رويدا، حتى أصبحت كطنين يسري من بعيد. ومكث وكيل الأعمال واقفا يرقب انصراف الجمع، حتى إذا غاب أبناء "**دوتلوف**" الثلاثة في منعرج الطريق، أشار إلى الشيخ "**دوتلوف**" الذي كان قد وقف من تلقاء نفسه، ثم دخلا غرفة المكتب معا.

وقال "**ايجور ميخايلوفيتش**" وهو يجلس في مقعد وثير أمام المكتب:

– إنني آسف من أجلك أيها الشيخ. على أن الدور كان دورك. فهل ستدفع لمجند يحل محل ابن أخيك أو لا.

– لكم يسرنا أن ندفع لبديل يا "**ايجور ميخايلوفيتش**"، أولا أننا لا نملك إلى ذلك سبيلا. لقد آل جوادان– في هذا الصيف إلى تاجر الجياد التي لم يعد لها نفع(١)، ثم.. كان هناك زواج ابن أخي.. إنه قدر مكتوب علينا، كما ترى.. جزاء أننا نعيش بأمانة وشرف. إن له حقا في أن يتكلم كما يشاء (وكان يفكر إذ ذاك في "**ريسون**").

ومسح "**ايجور ميخايلوفيتش**" وجهه بيده وتثاءب. كانت المهمة قد أتعبته وأسقمته– كما ظهر– وكان توّاقا لأن يتناول الشاي. فقال:

– آه، يا صديقي الكهل، لا تكن شحيحا! ابحث في أرض دارك، فإني لموقن من أنك ستخرج من تحتها زهاء أربعمائة ورقة قديمة من فئة الروبل، وسأبحث لك عن بديل.. واحد ممن اعتادوا التطوع.. لقد جاءني شاب منذ أيام يعرض نفسه!

وتساءل "**دوتلوف**":

– في الحكومة؟ وكان يقصد في المدينة.

– حسنا، هل تدفع له؟

– لكم كان يسرني، والله على ما أقول شهيد، ولكن...

فقاطعه "**ايجور ميخايلوفيتش**" بلهجة صارمة:

– آه، إذن فاسمع أيها الشيخ! حذار من أن يلحق "**إيليشا**" بنفسه أذى(٢)، ولابد من أخذه إلى المدينة فورا.. بمجرد أن أخطركم بذلك، إن اليوم أو غدا. لسوف تصحبه أنت، وستكون مسؤولا عنه، ولو أن شيئا حدث له– لا قدّر الله– فسأبعث بابنك الأكبر بدلا منه! هل تسمعني؟

– ولكن، أما من سبيل لإرسال واحد من أسرة ذات رجلين؟ إن هذا ليس من الإنصاف في شيء يا "**ايجور ميخايلوفيتش**"!

وصمت لحظة، ثم عاد يقول، والدمع يكاد يطفر من عينيه:

– لقد مات أخي في الجندية وها هم أولاء يأخذون ابني! كيف أستحق مثل هذه البلوى؟

---

(١) كانت الخيل المريضة والمكتهلة تباع لتذبح وتتجر في لحمها. (٢) كان من الشائع أن يصيب المجند نفسه بأذى يجعله غير صالح للخدمة العسكرية كان يقطع من يده اصبعاً.

وأوشك أن يهوي جاثيا على ركبتيه، فقال "**ايجور ميخايلوفيتش**" :

– لا بأس، لا بأس.. انصرف! لا سبيل إلى عمل شيء، فهذا حكم القانون! راقب "**إيليشا**" فسوف تكون مسؤولا عنه!

وعاد "**دوتلوف**" إلى داره، وهو يدق الأرض بعصاه المصنوعة من خشب الزيزفون، أثناء سيره!

(٧) "بوليكي" يذهب إلى المدينة

في ساعة مبكرة من الصباح، وقف عند عتبة أركان رقيق الدار، جواد عريض العظام، مخصي– كان يدعى "الطبل" لأمر ما– شد إلى عربة صغيرة، اعتاد وكيل الأعمال أن يستقلها بنفسه أحيانا.. وبالرغم من أن السماء كانت تمطر بردا، والريح قارسة، فإن "**آني**"– ابنة "**بوليكي**" الكبرى– وقفت حافية عند رأس الحصان، ممسكة عنانه على قيد ذراع، بينما أمسكت باليد الأخرى سترة خضراء مصفرة حائلة اللون، كانت ملقاة على رأسها، وكانت تستخدم كغطاء فراش للأسرة، ومعطف، وغطاء للرأس، وبساط، ومعطف لـ"**بوليكي**"، وأداة لعدة أغراض أخرى بجانب ذلك. وكان "ركن "**بوليكي**" يضج بالحركة. وكان الضوء الواهن– لذلك النهار المطير– قد بدأ يتسرب خلال النافذة التي كان زجاجها مهشما– هنا وهناك– وقد سدت الثغرات بالورق.

وتركت "**أكولينا**" الطعام الذي كانت تطهوه في الفرن، كما تركت أطفالها– الذين كان أصغرهم في الفراش– يرتجفون، لأن السترة التي كانت بمثابة غطاء لهم في نومهم، أخذت منهم ولم تستبدل بغير الشال الذي اعتادت أمهم أن تضعه على رأسها. وانهمكت "**أكولينا**" في مساعدة زوجها على التأهب لرحلته.. كان قميصه نظيفا، ولكن حذاءيه– اللذين كانت أصابعه تطل منهما تنشد قوتا، كما يقول المثل– كبداها كثيرا من العناء. فقد نزعت جوربيها الصوفيين الثقيلين– جوربيها الوحيدين– وأعطتهما لزوجها، واقتطعت بمهارة زوجا من النعال الداخلية، من كساء سرج كان

ملقى في حظيرة الخيل مهملا- وقد أحضره "**بوليكي**" إلى داره قبل ذلك بيومين- حتى تسد ما كان في الحذاءين من ثقوب، وتصون قدميه من الرطوبة.

وجلس "**بوليكي**" على السرير بكل جسمه وقدميه، وراح يسوي حزامه حتى لا يبدو كحبل قذر. وكانت الابنة الصغرى اللثغاء، الحولاء البصر، قد التفّت في جلد الغنم- الذي غطى رأسها واسترسل فراحت تجرجره على الأرض- وأوفدت لتسأل "**نيكيتا**" أن يعير أباها قلنسوة. وضاعف الحركة في "الركن" مقدم رقيق الدار ليسألوا "**بوليكي**" أن يأتيهم بمختلف الأشياء من المدينة. فطلب واحد إبرا للحياكة، وطلب آخر شايا، وثالث تبغا، وغيرهم زيت زيتون. وكانت زوجة النجار قد وجدت وقتا لتذكي النار تحت غلاية الماء، وتعد قدحا مليئا بسائل اسمته شايا، قدّمته إلى "**بوليكي**" استرضاء له لتسأله أن يحضر لها قدرا من السكر.

ومع أن "**نيكيتا**" رفض أن يعير قلنسوته، فاضطروا إلى ترتيق قلنسوة "**بوليكي**"، وذلك برد الوبر الذي حشيت به- والذي برز من جوفها- وحياكتها بإبرة من إبر جراحة الخيل.. ومع أن الحذاءين أبيا- في بادئ الأمر- أن يتسعا لقدمي "**بوليكي**" بعد أن زجّ فيهما بالنعلين المصنوعين من كساء السرج.. ومع أن "**آني**" كادت تفلت عنان "الطبل" وقد أثلجت أطرافها، وكان لابد لـ"**ماري**" أن تحل محلها وهي ملتفة بجلد الغنم، ثم اضطرت "**ماري**" أن تخلع عنها جلد الغنم، لكي تلتف به "**أكولينا**" وتحل محلها لتمسك بالجواد.. بالرغم من كل هذا، فقد انتهى الأمر بأن وفق "**بوليكي**" إلى أن يكسو جسمه بكل ما لدى الأسرة من ثياب للتدفئة ، فلم يخلف وراءه سوى السترة وزوجين من النعال المكشوفة!

وإذ استكمل أهبّته، صعد إلى العربة الصغيرة، وأحكم جلد الغنم حول جسمه، وهز كيس التبن المعلق أسفل العربة، ثم عاد فلفّ نفسه جيدا، وأمسك بعنان الجواد، وشد أطراف المعطف حوله من جديد، كما يفعل ذوو الشأن والمكانة وشرع في رحلته.. وأقبل ابنه الصغير "**ميشكا**" على الدرج مهرعا، وتوسّل إليه أن يدعه يركب قليلا، كما

ألحفت عليه "**ماري**" اللثغاء أن يسمح لها بأن يدعها "**تلكب**" – أي تركب– قائلة أنها لا "تشعل ببلد (أي تشعر ببرد) ولو أنها بدون جلد الغنم". فبادر "**بوليكي**" إلى استيقاف "الطبل"، وابتسم ابتسامته الواهنة، بينما كانت "**أكولينا**" ترفع الطفلين إلى العربة. ومالت نحوه فتوسلت إليه همسا أن يتذكر عهده، فلا يتناول أي خمر في رحلته. وجاس "**بوليكي**" بالطفلين خلال القرية حتى حانوت الحداد، ثم أنزلهما، ولفّ جسمه جيدا، وسوّى من وضع قلنسوته، وساق الجواد في خبب رزين متزن، وخداه يختلجان مع كل هزة، وقدماه ترتطمان بجانبي العربة الخشبيين. واندفعت "**ماري**" و"**ميشكا**" حافيين، يهبطان التل الزلق إلى البيت، وهما يصرخان عاليا، حتى أن كلبا مشردا من كلاب القرية تطلّع إليهما، ثم سابقهما إلى البيت وذيله بين ساقيه، مما جعل خليفتي "**بوليكي**" يرفعان صراخهما قدر ما كان عشر مرات.

*****

وكان الجو لا يطاق، فالريح لاذعة تتأرجح بين المطر والصقيع، وبين آن وآخر كان البرد يرتطم بوجه "**بوليكي**" وبيديه العاريتين كانتا ممسكتين بعنان الجواد– واللتين لم ينفك يجذب كمي معطفه ليغطيهما– وبجلد نير الجواد، وبرأس "الطبل" المكتهل. الذي رد أذنيه إلى الخلف، وأغمض عينيه نصف إغماضة!

ثم كفّ المطر فجأة، وأشرق الكون في لحظة. وانقشعت الغيوم الجليدية ذات اللون الضارب إلى الزرقة، وشرعت الشمس تشق طريقها لتبزغ، ولكن.. في إحجام ودونما ابتهاج كابتسامة "**بوليكي**".. ومع ذلك فإن "**بوليكي**" كان مغرقا في أفكار بهيجة.. فها هو ذا– هو الذي كان مهددا بالنفي وبالتجنيد، والذي لم يكن يعنف به ويضربه سوى أولئك الذين يشتد بهم الكسل، والذي كان يزج به دائما في أسوأ الأماكن– ها هو ذا ينطلق بالعربة ليحصل مبلغا من المال– بل مبلغا كبيرا– وقد ائتمنته مولاته.. ها هو ذا ينطلق في عربة وكيل الأعمال، يجرها "الطبل" الذي كانت السيدة نفسها تستخدمه في جر عربتها.. وكأنه مالك من أصحاب الأرض يسرج جواده بنير وأعنة من

الجلد بدلا من الحبال.. واعتدل "**بوليكي**" في جلسته، ودس الحشو الذي تدلّى من قلنسوته، وعاد يحكم لف معطفه حول جسده!

على أن "**بوليكي**" إذا كان قد وهم أنه بدا في مظهر الفلاح المثري صاحب الأملاك، فإنما كان يخدع نفسه ويغشها. فمن الحقيقي- كما يعرف كل امرئ- أن تجارا يمتلكون عشرة آلاف روبل، يرحلون في عربات تجرها جياد ذات سروج جلدية، إلا أن هذا لم يكن كل شيء.. ولقد يمر بك رجل ذو لحية، وقد ارتدى معطفا أزرق أو أسود، وجلس وحيدافي عربة يجرها حصان جيد التغذية، فلا تلقي إليه نظرة إلا لترى ما إذا كان الجواد ناعم البشرة، وما إذا كان الرجل جيد التغذية، ولتتبين الطريقة التي يجلس بها، وسرج جواده، وإطارات عجلات عربته، وعباءته، فتعرف لفورك ما إذا كان الرجل يتجر حقا في مئات الروبلات أو في آلاف.. وكان أي شخص مجرب يتاح له أن ينظر عن كثب إلى "**بوليكي**" ويديه، ووجهه، ولحيته الحديثة المنبت، وعباءته، والتبن الذي وضع في العربة بإهمال، و"الطبل" النحيل، والإطارات البالية حول العجلات.. كان أي شخص ذو تجربة يرى ذلك، خليقا بأن يدرك أنه ليس سوى عبد وليس تاجرا، ولا وسيطا يتسوق صفقات الماشية، بل ولا فلاحا يملك أرضا.. وأنه لا يتعامل بآلاف ولا بمئات- بل ولا بعشرات- الروبلات!

ولكن "**بوليكي**" لم يكن يفكر على هذا النسق.. فقد آثر أن يغرر بنفسه، وأن يغرر بها مختارا، راضيا.. أنه لن يلبث أن يعود حاملا ألفا وخمسمائة روبل في صدر معطفه.. ولو شاء فإن بوسعه أن يولي وجه "الطبل" صوب "**أوديسا**"، بدلا من أن يوجهه شطر قريته، وأن يسوقه إلى حيث يشاء القدر والمصير. ولكن "**بوليكي**" لن يفعل شيئا من هذا القبيل، بل إنه سيحمل النقود كلها إلى السيدة، كما ينبغي، وسيحدثها بأنه حمل يوما مبالغ تفوق هذا المبلغ قيمة!

*****

وعندما بلغا حانة- في الطريق- شرع "الطبل" يجذب العنان الأيسر، موليا صوب

الفندق، ثم وقف. وكانت مع "**بوليكي**" النقود التي أعطيت إليه كي يشتري بها ما سئل أن يشتريه، ولكنه- رغم ذلك- ساط "الطبل"، واضطره إلى أن يواصل السير. وتكرر الأمر ذاته عند الحانة التالية. حتى بلغا المدينة- حوالي الظهر- وقفا لدى حانة. وهبط "**بوليكي**" من العربة في هذه المرة، وفتح باب فناء دار صاحب الحانة- حيث اعتاد كل أتباع مولاته أن ينزلوا- وقاد الجواد والعربة إلى الفناء. وهناك فك قيود "الطبل" ورفع عنه النير، وقدّم له بعض التبن، ثم تناول غداءه مع أتباع صاحب الحانة دون أن يغفل ذكر المهمة الخطيرة التي أقبل من أجلها وما لبث أن انطلق ليبحث عن التاجر الذي كان يبتاع منتجات بستان السيدة، ومعه قائمة الحساب في ثنايا مقدم قلنسوته!

وكان التاجر يعرف "**بوليكي**"، وقد بدا بوضوح مرتابا في أمره. فلما قرأ الخطاب، راح يسأله ليستوثق من أنه كان أوفد فعلا لتحصيل النقود. وحاول "**بوليكي**" أن يبدي استياء، وكأن الأسئلة قد جرحت شعوره، ولكنه لم يستطع أن يجيد الاصطناع، ولم يملك سوى أن يبتسم ابتسامته المعهودة. وعاد التاجر يقرأ الخطاب من جديد، ثم أسلمه النقود.

وما إن تسلم "**بوليكي**" المبلغ، حتى دسّه في صدر معطفه، وعاد إلى الخان، فلم يستهوه المشرب ولا الحانة ولا أي شيء.. كان يشعر بانفعال مستعذب يسري في كل كيانه، وقد وقف أكثر من مرة أمام الحوانيت التي كانت تعرض سلعا مغرية- من أحذية، ومعاطف، وقلنسوات، وأقمشة، ومواد غذائية- ثم كان يمضي في سبيله، وفي نفسه شعور ممتع، وكأنه يقول لنفسه: "بوسعي أن أبتاع كل هذا، ولكن.. ولكني- مع ذلك- لن أفعل"! وذهب إلى السوق لشراء الأشياء التي كلّف بشرائها، فحصل عليها جميعا، ثم شرع يساوم على معطف مبطن بفراء الغنم، سئل أن يدفع خمسة وعشرين روبلا ثمنا له. ولأمر ما، لاح على البائع- بعد أن تأمل "**بوليكي**"- أنه يرتاب في مقدرته على شراء المعطف. بيد أن "**بوليكي**" أشار إلى صدره، قائلا إن بوسعه أن يشتري الحانوت كله، لو أنه شاء. وأصر على أن يرتدي المعطف للتجربة وراح يتحسسه، ويجس قماشه، وينفخ الصوف ليباعد بين شعيراته ويتأمل النسيج، حتى امتلأ برائحته.. ثم

خلعه عنه وتنهد، وقال:

– إن السعر لا يلائمني، فهلا بعته بخمسة عشر روبل؟

فطوّح البائع بالمعطف عبر نضد الحانوت وهو مغيظ، بينما خرج "**بوليكي**" مبتهجا، وسار إلى الخان الذي نزل فيه.

وبعد العشاء روى "الطبل" وقدّم له قدرا من الشوفان، ثم اعتلى المدفأة(١)، وأخرج المظروف الذي ضم النقود ففحصه طويلا، ثم سأل حمالا كان يعرف القراءة، أن يقرأ عليه العنوان وما خط تحته، فإذا به: طيه ألف وستمائة وسبعة عشر من الروبلات المحولة(٢). وكان المظروف مصنوعا من الورق العادي، ومختوما بشمع بني صلب– نقش عليه رسم مرساة (هلب)– في خمسة مواقع.. خاتم كبير في الوسط، وأربعة في الأركان. كما كانت ثمة نقاط من الشمع بقرب الحافة. ولقد فحص "**بوليكي**" كل هذا وتأمله وطبعه في ذاكرته.. بل إنه تحسس حواف الأوراق المالية المرهفة التي كانت بداخله. وداخله شعور صبياني بالسرور وهو يرى أنه يمسك بين يديه بمبلغ ضخم كهذا. ثم دسّ المظروف في ثغرة بين ثنايا قلنسوته، ورقد والقلنسوة تحت رأسه.. ولكنه لم يطمئن– مع ذلك– فظل يستيقظ خلال الليل ليتحسس المظروف. وكان– في كل مرة– يجده في مكانه، فيخالجه شعور مستعذب بالرضا. فها هو ذا "**بوليكي**" الملطخ السمعة المستضعف، المهين.. ها هو ذا يحمل مبلغا كهذا، ليسلمه إلى مولاته بعناية دونها عناية أي امرئ آخر.. حتى وكيل أعمالها نفسه!

(٨) هياج في الخان

استيقظ خدم صاحب الخان، و"**بوليكي**"– حوالي منتصف الليل– على طرقات على الباب الخارجي، وصياح صادر من فلاحين. وإذا بفريق المجندين من "**بوكروفسك**" قد وصل.. كان ثمة عشرة أفراد تقريبا: "**خوريوشكين**"، و"**ميتيوخين**"، و"**إيليشا**" (ابن

(١) كانت البيوت الروسية مزودة بمدافئ مبنية بالطوب كبيرة الحجم على شكل الأفران المعروفة في ريفنا. (٢) الروبل المحول عملة ورقية تعادل سبعي الروبل الفضي في القيمة فكان المبلغ كله ٤٦٢ روبل. وهو ما ذكره "ايجور" لمولاته في نهاية الفصل الأول.

أخـي "**دوتلـوف**")، وبديلان رافقا القوم عسى أن تدعو الحاجة إليهما، وشيخ القرية، و"**دوتلـوف**"الكهل، والرجال الذين ساقوا العربات التي أقلتهم. وكان في الحجرة ضوء ساهر، وقد رقدت الطاهية على أريكة خشبية تحت الإيقونات، فقفزت ناهضة، وبادرت إلى إشعال شمعة.. كذلك استيقظ "**بوليكي**"، وأطلّ من أعلى المدفأة، فنظر إلى الفلاحين أثناء ولوجهم المكان.

ودخلوا وهم يرسمون علامة الصليب على صدورهم، وجلسوا على المقاعد الخشبية المرصوصة بحذاء جدران الحجرة. وكانوا جميعا يلوحون في أكمل هدوء وسكينة، حتى ليعجز المرء عن أن يحدس أيهم المجندون، وأيهم الذين كانوا يرافقونهم. وأخذوا يحيون أهل الخان، ويتحدثون بأصوات عالية، ويطلبون طعاما.. وصحيح أن بعضهم كانوا سكوتا، واجمين، محزونين، إلا أن بعضا آخر كانوا على النقيض، في مرح غير عادي.. كان من الجلي أنهم سكارى. وقد كان بين هؤلاء "**إيليشا**" الذي لم يسرف يوما في الشراب من قبل.

وتساءل شيخ القرية:

– وبعد يا أولاد.. هل ننام أو نتناول عشاء؟

فقال "**إيليشا**" وهو يفتح صدر معطفه، ويجلس على مقعد خشبي:

– عشاء! واطلبوا لنا بعض الشراب!

فقال شيخ القرية في إيجاز:

– كفاك شرابا!

والتفت إلى الآخرين قائلا:

– ليقتطع كل منكم لنفسه لقمة من الخبز يا أولاد.. لماذا نوقظ القوم؟

فعاد "**إيليشا**" يصيح دون أن ينظر إلى أحد، وبصوت نم عن أنه لن يسكت: آتوني بالشراب!

وأخذ الفلاحون بمشورة شيخ القرية، فأحضروا خبزا من العربات التي أقلتهم، وطلبوا قليلا من الشراب، ثم استلقوا.. بعضهم على الأرض، وبعضهم على المدفأة. وظل

"**إيليشا**" يردد بين فترة وأخرى:

– دعوني أصب بعض الشراب. أتسمعون؟ أريد بعض الشراب!

ثم فطن إلى "**بوليكي**"، فصاح:

– "**بوليكي**"! ها "**بوليكي**".. أأنت هنا أيها الصديق العزيز؟ ألا تعلم أنني ذاهب لأصير جنديا؟ ودّعت أمي وزوجتي.. لكم راحت تعول وتجهش بالبكاء.. لقد حزموني حزما وأرسلوني كالطرد لأصبح جنديا.. أطلب لي بعض الشراب!

فأجابه "**بوليكي**":

– لست أملك أية نقود!

وأخذ يواسيه، ثم أردف:

– من يدري؟ لعلك يرفضون تجنيدك بعون الله!

– لا يا صديقي، فأنا متين البنيان كالشجرة الصلبة.. أبدا لم أصب بمرض. لا سبيل إلى رفضي.. أي جندي يرجوه القيصر خيرا مني؟

وأخذ "**بوليكي**" يروي له كيف أن فلاحا أعطى طبيبا ورقة مالية من ذات الروبلات الخمسة، ففاز بالإعفاء من الجندية.. واقترب "**إيليشا**" من المدفأة، وشرعا يتكلمان بمزيد من الحرية.

فقال "**إيليشا**":

– لا يا "**بوليكي**"، لقد انتهى الأمر! لم أعد أنا نفسي راغبا في البقاء، فقد استغنى عمي عني، وكأنه لا يملك أن يدفع لبديل يحل محلي.. لا، لقد ضنّ بابنه، وضن بالمال، ومن ثم فقد أرسلوني. لا.. أنا نفسي لا أريد المكث!

وكان يتكلم بصوت منخفض– تحت تأثير أساه الهادئ– وكأنه يبثّ الآخر سره.. واستطرد يقول:

– إنما آسى على شيء واحد.. آسى على أمي، تلك الحبيبة.. لشد ما كان حزنها! والزوجة كذلك! لقد قضوا على المرأتين بالخراب، لغير نفع.. لسوف تهلك امرأتي.. أو– بمعنى آخر– ستصبح زوجة جندي، وكفى!.. كان خيرا لو أنني لم أتزوج! فلماذا

زوجوني؟ إنهم آتون إلى هنا غدا!

وتساءل "**بوليكي**" :

– ولكن، لماذا أحضروكم بهذه العجلة؟ إن أحدا لم يسمع بالأمر كله، ثم إذا بهم فجأة..

فأجاب "**إيليشا**" مبتسما:

– تصور أنهم يخشون أن أحدث بنفسي أذى. لا داعي للخوف، فلن أحدث بنفسي شيئا من هذا القبيل.. كل ما هنالك أنني آسف من أجل أمي..

ثم أردف في رفق وأسى:

– ما الذي حملهم على أن يزوجوني؟

وفتح الباب إذ ذاك، ثم أغلق بصوت عال، ودخل الشيخ "**دوتلوف**" وهو ينفض البلل عن قلنسوته، وقد غيّب قدميه في حذاءين من لحاء الخشب مفرطي الكبر– كعادته– فكأنهما قاربان حول قدميه! وقال لخادم الخان وهو يمر به:

– أليس هناك مصباح يا "**أفاناسي**"، لأحضر على ضوئه بعض الشوفان؟

وشرع يشعل– في بطء– بقية من شمعة، دون أن ينظر إلى "**إيليشا**"، وقد بدا قفازاه وسوطه مدسوسين تحت حزامه الذي شد بإحكام وعناية حول معطفه. ولاح وجهه– الذي أضناه الجهد والنصب– مألوفا، ساذجا، وادعا، مليئا بهموم العمل، وكأنه وصل لتوه مصطحبا قافلة من العربات المحملة!

*****

وصمت "**إيليشا**" عندما رأى عمه، وعاد يطرق، متأملا مقعده الخشبي في وجوم. ثم تمتم مخاطبا شيخ القرية:

– الشراب، يا "**أرميل**".. أريد بعض الشراب!

وبدا صوته محنقا، ساخطا. فأجابه الشيخ الذي كان يأكل شيئا من وعاء أمامه:

– شراب، في مثل هذا الوقت؟ ألا ترى الآخرين قد اكتفوا بلقمة وناموا؟ لماذا تثير

شغبا؟

وتجلّى أن كلمة "شغب" قد وسوست إلى "**إيليشا**" بالعنف، فصاح:

– لسوف أقدم على عمل غير طيب، إذا أنت لم تعطني الشراب، أيها الشيخ!

فالتفت شيخ القرية نحو "**دوتلوف**" الذي كان قد وضع الشمعة في "فانوس"، وهمّ بأن يخرج ثم توقف ليرى ما قد يحدث... والذي كان يرمق ابن أخيه– من ركن عينه– في رثاء، وكأنما هو في عجب لمسلكه الصبياني.

وعاد "**إيليشا**" يغض بصره، وهو يتمتم:

– الشراب! أعطني! أقدم على شر!

فقال شيخ القرية في لين:

– دعك من هذا يا "**إيليشا**".. أجل، دعك، وكفى! إن هذا خير لك! وقبل أن يفرغ من كلماته، كان "**إيليشا**" قد وثب فضرب زجاج إحدى النوافذ بقبضته، وهو يصيح بأعلى صوته:

– مادمت تأبى أن تسمع كلامي فهاك العاقبة!

واندفع نحو النافذة الأخرى ليكسر زجاجها. وفي لمح البصر تقلب "**بوليكي**" مرتين، واختبأ في الركن القصيّ على قمة المدفأة.. وقدفعل ذلك بسرعة خاطفة، بثت الفزع في جميع الصراصير التي كانت هناك. وألقى شيخ القرية بملعقته، واندفع نحو "**إيليشا**". ووضع "**دوتلوف**" فانوسه ببطء، وفكّ حزامه، وهز رأسه، وهو يصك لسانه بسقف فمه محدثا صوتا ينم عن الاستنكار، وسار إلى "**إيليشا**" الذي كان قد انهمك في نضال ضد شيخ القرية وأحد أتباع صاحب الخان، وهما يردانه عن النافذة.

وكانا قد أمسكا بذراعيه، ولاح أنهما قد سمراه في مكانه. ولكنه لم يكد يرى عمه والحزام في يده، حتى تضاعفت قواه عشر مرات، وانتزع نفسه منهما، وتقدم من "**دوتلوف**" وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما، وقبضتاه مشدودتان، وصاح:

– لسوف أقتلك! ابتعد أيها الحيوان.. لقد قضيت عليّ أنت وابناك الزنيمان! لقد قضيتم عليّ بالخراب.. لماذا حملوني على الزواج! ابتعد لسوف أقتلك..

وكان "**إيليشا**" رهيبا في هياجه، فقد احتقن لون وجهه، وراح إنسانا عينيه يدوران في محجريهما، وأخذ جسده الشاب السليم يرتجف بأجمعه كالمحموم. وبدا كأنما كان يبغي أن يقتل الرجال الثلاثة الذين وقفوا في وجهه، وكان قادرا على قتلهم!

– إنك تشرب دم أخيك، يا مصاص الدماء!

وأومض بريق خاطف خلال وجه "**دوتلوف**" الدائم الرزانة، وتقدم خطوة، ثم قال فجأة:

– إنك تأبى أن تسكن في سلام!

وكان أعجب ما في الأمر هو: من أين جاء بتلك الطاقة؟ فقد أمسك بابن أخيه بحركة سريعة، وألقى به على الأرض، وارتمى معه، وأحكم وثاق يديه بحزامه، بمعونة شيخ القرية! وظلا يتصارعان زهاء خمس دقائق، ثم نهض "**دوتلوف**" أخيرا– بمساعدة الفلاحين– وهو يجذب معطفه من قبضة "**إيليشا**". وما لبث أن انهض "**ايليشا**" الذي أصبحت يداه مكتوفتين خلف ظهره، واضطره إلى أن يجلس على مقعد خشبي في الركن.

وقال وهو لايزال متهدّج الأنفاس– من جراء الصراع– وقد راح ينتزع من حول قميصه حزاما غير عريض:

– لقد قلت لك إنك ستسيء إلى نفسك.. لماذا تأثم؟ إن الموت مكتوب علينا جميعا!

ثم التفت إلى أتباع صاحب الخان، وقال:

– اطووا معطفا ليتوسده، وإلا فسوف يتصاعد الدم إلى رأسه.

وراح يربط الحزام الضيق حول معطفه المصنوع من جلد الغنم، ثم تناول الفانوس، وخرج ليعنى بالجياد.

وراح "**إيليشا**"– وهو شاحب الوجه، مشعث الشعر، وقد تهدّل قميصه– يطوف ببصره في الحجرة، وكأنه يحاول أن يتذكر أين هو.. بينما انهمك أتباع صاحب الخان في جمع شظايا الزجاج المهشَّم، ثم دسوا في الثغرة– التي خلفها في النافذة– معطفا

ليحولوا دون انسياب تيار الهواء القارس. وعاد شيخ القرية يجلس إلى وعائه، وهو يردد:

– آه، يا "**إيليشا**"! يا "**إيليشا**".. لكم أنا آسف من أجلك حقا.. أية حيلة لنا في الأمر.. هاك "**خوريوشكين**".. إنه الآخر متزوج! من الواضح أن لا حيلة لنا في الأمر!

وعاد "**إيليشا**" يقول بصوت خشن، ولهجة مشبعة بالسخط:

– إنما قضي عليّ بالدمار، من أجل ذلك الشرير عمّي، فحسب.. لقد كان كل حرصه منصبا على ابنه.. لقد قالت أمي إن وكيل الأعمال دعاه إلى أن يدفع من أجل بديل عني، فأبى، وقال إنه لا يملك ما يدفع.. كأنما لا قيمة لكل ما جلبته وأخي على أسرته من خير.. إنه شرير!

*****

ورجع "**دوتلوف**" إلى الحجرة، فأدى الصلاة أمام الإيقونات وخلع ثيابه الخارجية عنه، وجلس بجوار شيخ القرية، فأحضرت الطاهية بعض الشراب، وملعقة أخرى.. وران السكون على "**إيليشا**"، ورقد على المعطف المطوي، وأغمض عينيه. فأشار شيخ القرية نحوه، وأخذ يهز رأسه في صمت. بينما لوّح "**دوتلوف**" بيده قائلا:

– كأنما المرء غير آسف من أجله.. إنه ابن أخي، من صلبي ودمي.. وكأنما الأمور ليست بالغة السوء، كما هو جلي، فراق لهم أن يصوروني له وغدا شريرا.. ولعلها زوجته التي بثت في رأسه أن بوسعنا أن ندفع من أجل بديل عنه، فهي امرأة ضئيلة الجسم، خبيثة، رغم صغر سنها.. ومهما يكن، فإنه ينحو بالائمة عليّ.. ولكن المرء يرثي للفتى..

فعقب شيخ القرية قائلا:

– آه! ويا له من فتى بديع!

– ولكن صبري بلغ مداه معه.. على أنني سأمد له.. فغدا سيأتي "**أجنات**"، وقد رغبت زوجة الفتى في أن تأتي معه هي الأخرى.

فقال شيخ القرية وهو يبارح مكانه، ويصعد إلى سطح المدفأة:

– أحسنت صنعا. دعهما يأتيان! ألا ما أتفه المال، إنه عرض زائل!

فغمغم أحد أتباع صاحب الخان، وهو يرفع رأسه:

– لو كان لدى المرء مال لما ضن به.. من ذا الذي يضنّ بالمال؟

فرّد عليه "**دوتلوف**" قائلا:

– آه! المال، المال! إنه سبب الخطايا! لا شيء في الدنيا يسبب من الآثام أكثر مما يسبب هو.. وقد قال الكتاب المقدس ذلك!

فقال العامل يقره على قوله:

– كل شيء مثبت في الكتاب المقدس. لقد روى لي رجل كيف أن تاجرا اختزن كوما من المال، ولم يشأ أن يخلف وراءه شيئا منه، فقد بلغ من حبه للمال، أن أراد أن يأخذه معه إلى قبره. وعندما كان يحتضر، طلب أن تدفن معه وسادة صغيرة. فلم يرتب أحد في الأمر، ودفنوها معه. ثم راح أبناؤه يبحثون عن ماله، فلم يستطيعوا أن يعثروا على شيء منه. وأخيرا، خطر لواحد منهم أن من المحتمل أن المال كان أوراق نقد وضعت كلها في الوسادة. وعرض الأمر على القيصر، فسمح بأن يفتح القبر فماذا تظن أنه حدث؟ لقد فتحوا التابوت، وشقوا الوسادة فلم يجدوا فيها شيئا. ولكن التابوت كان مليئا بثعابين صغيرة؛ ومن ثم فقد دفن ثانية.. أرأيت ما يفعل المال؟

وقال "**دوتلوف**" وهو ينهض قائما:

– هذه حقيقة واقعة، فالمال يجلب كثيرا من الإثم!

وشرع يصلي. حتى إذا فرغ، ألقى نظرة على ابن أخيه، فإذا الشاب نائم.. وسار إليه "**دوتلوف**" ففك الحزام الذي كان يوثق يديه، ثم رقد هو الآخر. وخرج فلاح من الحجرة لينام مع الخيل!

(٩) مفاجأة في نهاية الطريق!

ما إن سيطر السكون على كل شيء، حتى هبط "**بوليكي**" عن المدفأة متسللا في رفق، وكأنه مجرم، وشرع يتأهب للرحيل. فقد شعر- لسبب ما- بعدم ارتياح لمجرد التفكير في قضاء الليل في الخان مع المجندين. وكانت الديكة قد بدأت تكثر من التصايح، ينادي بعضها بعضا. كما كان "الطبل" قد أتى على كل الشوفان الذي قدم إليه، وشرع يمد عنقه إلى دلو الماء. فأسرجه "**بوليكي**"، وقاده- خلال عربات الفلاحين- إلى الخارج.. وكانت قلنسوته سليمة بمحتوياتها، فسرعان ما راحت عجلات العربة تدرج على الأرض المكسوة بالصقيع، ميممة شطر "**بوكروفسكي**".

ولم يشعر "**بوليكي**" بطمأنينته إلا حين خلف المدينة وراءه. فقد ظل- حتى بارحها- يتصور أنه لن يلبث أن يسمع أصواتا تنم عن أنهم يطاردونه في أية لحظة، وأنهم لن يلبثوا أن يستوقفوه، وأن يوثقوا كتفيه- بدلا من "**إيليشا**"- ثم يأخذوه إلى مركز التجنيد في صباح اليوم التالي.. وكان ثمة شيء- لعله الصقيع، أو لربما كان الخوف- يرسل قشعريرات باردة تسري في ظهره، فراح يلهب "الطبل" مرة بعد أخرى، يستحثه على الإسراع.. وكان أول من صادفه قسا ارتدى قلنسوة طويلة من الفراء، يصحبه عامل أعور. فتشاءم "**بوليكي**" من هذا الأخير، واشتد جزعه، فازداد انطلاقا، ولكنه عاد يطامن من خوفه تدريجا، عندما بارح المدينة، حتى تبدّد الخوف أخيرا.. وخفف "الطبل" من ركضه، وقد ازدادت الطريق وضوحا أمامه.. وخلع "**بوليكي**" قلنسوته، فتحسس الأوراق المالية، وقال لنفسه: "هل أخبئها في صدري؟ لا فقد أضطر إلى أن أفك حزامي.. مهلا! فلأهبط عندما أبلغ أسفل التل، وأسوي من حالي.. إن القرص الأعلى قد حيك بعناية وإحكام، ومن ثم فلا سبيل إلى أن ينزلق المظروف خلال طبقات النسيج.. وخير لي- على أية حال- ألا أخلع القلنسوة حتى أبلغ البيت!

ولما بلغ أسفل التل، واستقبل أمامه التل الذي يليه، ركض "الطبل" من تلقاء نفسه صاعدا إياه، فلم يحاول "**بوليكي**" أن يكبح جماحه، إذ كان مشوقا مثله إلى العودة إلى

الدار.. وكان كل شيء على ما يرتجي، أو هكذا تصور "**بوليكي**" – على الأقل– فأسلم نفسه للأحلام، متخيلا ما سوف تبديه السيدة من عرفان، متصورا الروبلات الخمسة التي ستمنحه إياها، والفرح الذي سيطغى على أسرته.. وخلع القلنسوة، فتحسّس المظروف وابتسم، ثم ردها إلى رأسه وأحكم وضعها. وكانت المقدمة المخملية للقلنسوة بالية، ونظرا لأن "**أكولينا**" كانت قد رتقت فتوقها رتقا محكما في أحد جوانبها، فإنها لم تلبث أن تفسخت من جانب آخر.. وإذا الحركة التي ظن "**بوليكي**" في وهن الفجر الوليد أنها دفعت المظروف إلى جوف طبقات القلنسوة، تزيد من تمزق الجانب المتفسخ، وتدفع ركنا من المظروف إلى الخارج، خلال المقدمة المخملية.

وبدأ الفجر يسفر النقاب، فشرع النعاس يداعب أجفان "**بوليكي**" الذي لم يكن قد نام في ليلته.. وفي نعاسه شد القلنسوة لتزداد التصاقا برأسه– فازداد بذلك بروز المظروف إلى الخارج– وارتطم رأسه بمقدم المركبة. واستسلم للنعاس، فلم يستيقظ إلا وقد اقترب من القرية. وهمّ بأن يفحص قلنسوته، ولكنه أحس بأنها محكمة الوضع فوق رأسه، فلم ير داعيا لرفعها، مطمئنا إلى أن المظروف بداخلها. ومسّ "الطبل" بسوطه، ونسّق القش الذي كان يكسو أرض العربة، وعاد يتخذ مظهر الفلاح الموسر، ويتلفت حوله في خيلاء، والعربة تدرج نحو القرية!

وتراءى له مطبخ الدار، و"الأركان" التي يسكنها الرقيق.. ولاحت له زوجة النجار وهي تحمل الغسيل، ثم تبين مكتب إدارة الضيعة، ومسكن السيدة.. المسكن الذي لن يلبث أن يبرهن فيه على أنه رجل أمين، أهل للثقة.. لسوف يقول للسيدة:

– بوسع كل امرئ أن يتقول على أي شخص كما يحلو له!

وسترد السيدة قائلة:

– لا بأس يا "**بوليكي**"! هاك ثلاثة (أو ربما خمسة بل عشرة) روبلات!

وستأمر بتقديم الشاي إليه، بل ربما أمرت بتقديم بعض الشراب.. ولن يكن هذا بالأمر المستغرب، بعد الوقت الذي قضاه في البرد! ومضى "**بوليكي**" يحدث نفسه: "بعشرة روبلات نستطيع أن ننعم غدا بعيد طيب، وأن نبتاع أحذية، ونرد إلى "**نيكيتا**" روبلاته

الأربعة والنصف.. إذ لا حيلة في ذلك، فهو قد بدأ يضايقنا بالمطالب.

وعندما أصبح على حوالي مائة خطوة من الدار، أحكم لف معطفه حول جسمه، وسوّى من وضع حزامه وياقته، وخلع قلنسوته فسوّى شعره، ودسّ يده تحت بطانة القلنسوة، غير متعجل.. وأخذت اليد تعبث وتبحث داخل البطانة، واشتدت سرعة أصابعها.. ثم انضمت إليها اليد الأخرى، بينما أخذ وجه "**بوليكي**" يزداد شحوبا فوق شحوب. ودخلت إحدى اليدين في جوف القلنسوة بأكملها. ثم هوى "**بوليكي**" على ركبتيه، واستوقف الجواد، وراح يبحث في العربة، منقبا بين القش، وبين الأشياء التي كان قد ابتاعها.. متحسّسا معطفه وسرواله.

ولكن.. لم يكن ثمة أثر للنقود!

وشرع يزأر، وهو يشد شعره:

– يا للسماوات! ما معنى هذا؟ ما الذي سيحدث الآن؟

ثم فطن إلى أنه قد يشاهد، فحوّل وجه الجواد نحو الطريق الذي أتى خلاله، وأحكم قلنسوته على رأسه، ثم ساق "الطبل" عائدا من حيث أتى، والجواد مشدوه مستنكر، ولابد أنه كان يقول لنفسه: "ليس بوسعي أن أخرج ثانية مع "**بوليكي**".. لقد عني بإطعامي وسقايتي أتم عناية لمرة واحدة في حياته، ثم لم أحظ منه بغير الخداع الذي لا يسرّ النفس.. لكم أجهدت نفسي في الجري أثناء العودة، حتى اشتد بي التعب! ومع ذلك، فإنني لم أكد أصبح على قيد خطوات من العلف، حتى شرع يسوقني راجعا بي!"

أما "**بوليكي**"، فقد راح يصيح فيه، خلال الدموع:

– هيا أيها الحصان المنهوك القوى!

ووقف منتصبا في العربة، يشد عنان "الطبل" في عنف، وينهال عليه ضربا بالسوط!

(١٠) "بوليكي"! أين "بوليكي"؟

لم ير أحد "**بوليكي**" في "**بوكروفسك**" طيلة ذلك اليوم. وقد سألت السيدة عنه مرارا بعد الغداء، واندفعت "**أكسيوتكا**" كالإعصار إلى "**أكولينا**"، ولكن "**أكولينا**" قالت إنه لم يعد بعد، لعل التاجر الذي كان يبتاع خضر البستان قد عطله عن العودة، أو لعل شيئا قد جرى للحصان.. وأردفت قائلة:

– ليته لم يصب بالعرج.. لقد قضى "**مكسيم**" يوما بأكمله في الطريق– عندما ذهب به في المرة السالفة– واضطر إلى أن يقطع المسافة كلها على قدميه في العودة!

وولتها "أكسيوتكا" ظهرها، وعادت وهي تحرك بندوليها بينما أخذت "**أكولينا**" في ابتكار الأعذار التي تبرر غياب زوجها، لتطامن من هواجس نفسها. ولكن دون جدوى.. كان قلبها مثقلا، ولم تقو على أن تعمل بنفس راضية فيما كانت تتخذه من استعدادات للعيد الذي كان مرتقبا في اليوم التالي. وضاعف من ألمها أن زوجة النجار راحت تؤكد لها أنها رأت بعينيها "رجلا يشبه "**بوليكي**" تماما، مقبلا في عربة، ثم ولّى راجعا".. كذلك راح الأطفال يرتقبون "بابا" في لهفة وصبر نافد، وإن اختلف حافزهم عن الحافز الذي كان يثير قلق أمهم. فإن غيابه حرم "**آني**" و"**ماري**" من جلد الغنم ومن السترة الثقيلة، وهما اللذان كانا يمكنانهما من أن يقوما بجولات خارج البيت، فلم تعودا تملكان سوى أن تجريا في دورات سريعة قصيرة، حول البيت. ولم تكن المضايقات– التي ترتبت على ذلك– قليلة، بالنسبة لجميع من كانوا يقطنون مساكن الرقيق. ولقد ارتطمت "**ماري**" مرة– وهي تجري– بساقي زوجة النجار التي كانت تحمل ماء بين يديها.. ومع أنها بدأت تعول مستبقة العقاب– بمجرد أن اصطدمت بركبتي المرأة– إلا أن هذا لم يعفها من الضرب وجذب الشعر، مما جعلها تزداد صراخا.. أما إذا لم ترتطم بأحد، فإنها كانت تندفع من الخارج مارقة خلال الباب، وتبادر إلى اعتلاء وعاء لترقى إلى قمة الفرن!

ولم يكن ثمة من راح يعاني القلق حقا– من أجل "**بوليكي**"– سوى السيدة

و"**أكولينا**" . . أما الأطفال، فلم يكن يشغلهم سوى ما كان عليه من ثياب!

ولم تكن السيدة تكف عن سؤال "**ايجور ميخايلوفيتش**" :

– ألم يحضر "**بوليكي**" بعد؟ أو: "ترى أين يحتمل أن يكون؟" . فكان يجيبها وكأنه مغتبط لأن ما توقعه قد تحقق:

– لست أدري . .

ثم كان يضيف في لهجة ذات معنى: "كان الواجب أن يكون هنا حوالي الظهر!"

*****

لم يسمع أحد شيئا عن "**بوليكي**" طيلة اليوم، اللهم إلا ما عرف– في أواخر النهار– من أن بعض فلاحي المناطق المجاورة، قد رأوه يجري في الطريق عاري الرأس، يسأل كل من كان يصادفه عما إذا كان قد عثر على خطاب ما. ورآه رجل راقدا على حافة الطريق بجوار عربة ربط جوادها إلي شجرة. وقال الرجل:

– لقد حسبته سكرانا. وكان الجواد يبدو وكأنه لم يذق الماء ولا الطعام منذ يومين، إذ كان جنباه متهدلين!

ولم تنم "**أكولينا**" الليل طوله، بل ظلت ساهرة، مرهفة السمع. ولكن "**بوليكي**" لم يعد. ولو أنها كانت بمفردها، أو لو أنها أوتيت طاهية أو خادمة، لشعرت بمزيد من التعاسة، ولكن أولادها كانوا يلهونها أحيانا عن هواجسها. وما إن صاحت الديكة، واستيقظت زوجة النجار، حتى اضطرت "**أكولينا**" إلى النهوض، وإلى إشعال النار، فقد كان اليوم عيدا. . وكان لابد من إنضاج الخبز وإخراجه من الفرن قبل أن يطلع النهار، وكان لابد من إعداد الشراب، ومن خبز الفطائر، ومن حلب البقرة، ومن كي الثياب والأقمشة ومن تنظيف الأطفال، ومن اجتلاب الماء إلى "الركن" ومن الحيلولة دون أن تنفرد جارتها بالفرن كله. . ومن ثم شرعت "**أكولينا**" في العمل، وهي لاتزال ترهف سمعها. . ولكن النهار ازداد ضياء، وأخذت أجراس الكنيسة تدق، واستيقظ الأطفال. . ولم يعد "**بوليكي**" بعد!

وكانت بوادر الصقيع قد اكتنفت اليوم السابق، وتساقط بعض الجليد، وتراكم في أكوام صغيرة في الحقول، وعلى الطريق وأسقف الدور. ولكن الجو كان بديعا ومشمسا، رغم الصقيع في ذلك اليوم. وكأنما كانت الطبيعة تمجد العيد.. وفي هذا الجو الصحو، كان بوسع المرء أن يمد بصره فيرى على مسافة بعيدة، ويسمع الأصوات عن بعد. ولكن "**أكـــولينـا**"– التي كانت تقف بجوار الفرن– راحت تدفع رأسها خلال الباب، وهي منهمكة في إعداد الفطائر.. ومع ذلك فإنها لم تسمع "**بوليكي**"– وهو يصل بالعربة– وإنما عرفت من صيحات الأطفال أن زوجها قد عاد.

كانت "**آني**" قد ضمخت شعرها بالزيت، وتهيأت دون معونة أحد، بوصفها الابنة الكبرى. وكانت ترتدي ثوبا من قماش منقوش، جديد ولكن المكواة لم تسر عليه.. منحة من السيدة. وكان مشدودا وكأنه مصنوع من ألياف الشجر. مما غبطها عليه الجيران. وأخذ شعر الصبية يلمع؛ إذ كانت قد أذابت لتضميخه نصف بوصة من شحم الشموع. بينما غابت قدماها في حذاءين رفيعين، وإن لم يكونا جديدين.. أما "**ماري**" فكانت لاتزال ملتفة في سترة قديمة، وقد تلطخّت بالوحل، فلم تدعها "**آني**" تدنو منها خشية أن يتسخ ثوبها؛ ومن ثم فقد مكثت "**ماري**" خارج الركن، فرأت أباها وهو يقبل في العربة، ومعه كيس كبير. وصرخت:

– بابا جاء!

واندفعت خلال الباب إلى الخارج، مارة بـ"**آنـي**"– التي خفت لترى ما جعل أختها تصرخ– ملطخة لها ثوبها. ولم تعد "**آني**" تحفل بالحيطة بعد أن اتسخ الثوب، فانقضّت عليها وضربتها. ولم يكن بوسع "**أكولينا**" أن تبرح مكانها، فلم تملك سوى أن صاحت في البنتين:

– وبعد؟ لسوف أسوطكما معا!

والتفتت نحو الباب، فإذا "**بوليكي**" يدخل من الباب الخارجي، حاملا كيسا، فيسير إلى "ركنه" مباشرة. ولاح لـ"**أكـولينا**" أنه كان شاحبا، وبدا لها من وجهه أنه إما كان

يبتسم، وإما كان يبكي.. ولكنها لم تجد وقتا كي تكتشف أي الحالين كانت حاله.

وصاحت تسأله، وهي في مكانها أمام الفرن:

– أكل شيء على ما يرام يا "**بوليكي**"؟

فغمغم "**بوليكي**" بكلمات لم تستبنها وعادت تصيح:

– آه؟ هل ذهبت إلى السيدة؟

وجلس "**بوليكي**" على السرير في ركنه، يتأمل ما حوله بنظرات طائشة، وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الذنب.. ابتسامة تعسة، مفرطة التعاسة. وتناهى إليه صوت "**أكولينا**"، تتساءل:

– ماذا يا "**بوليكي**"؟ لماذا أطلت الغياب؟

فقال فجأة:

– أجل يا "**أكولينا**"، لقد أسلمت السيدة نقودها.. وكم شكرتني!

وشرع يتلفت حوله، وقد ازداد ما شاب ابتسامته من قلق وارتباك.

شيئان اجتذبا نظراته المحمومة: الطفل الرضيع، والحبال التي كانت مدلاة من المهد المعلّق. ونهض فسار إلى حيث كان المهد معلقا، وشرع يفك بعجلة عقدة حبل منها، بأصابعه النحيلة. ثم استقرت عيناه على الرضيع. ولكن "**أكولينا**" دخلت في تلك اللحظة حاملة صحفة الفطائر فأسرع "**بوليكي**" إلى إخفاء الحبل في صدره، وجلس على السرير.

وتساءلت "**أكولينا**":

– ماذا بك يا "**بوليكي**"؟ إنك لست في حالتك الطبيعية؟

فأجابها:

– لم أنم!

وفجأة، مرق شيء بجوار النافذة. وإن هي إلا لحظة حتى اندفعت "**اكسيوتكا**" – الخادم التي من "فوق" – كالسهم. وقالت:

– السيدة تأمر "**بوليكي**" بأن يأتي في هذه اللحظة.. هذه اللحظة.. "**افدوشيا نيكولايفنا**" تقول: هذه اللحظة!

فنظر "**بوليكي**" إلى "**أكولينا**"، ثم إلى الفتاة، وقال:

– هانذا قادم. ترى ما الذي تريد؟

قالها ببساطة، فهدأت وساوس "**أكولينا**". ثم استطرد:

– لعلها تريد أن تكافئني.. قولي لها إنني قادم!

ونهض فخرج. وتناولت "**أكولينا**" وعاء الاستحمام فوضعته على مقعد خشبي وملأته بالماء من الدلاء التي كانت إلى جوار الباب، ومن المرجل الذي كان في الفرن، ثم شمّرت عن ساعديها، ولمست الماء لتتعرف مدى حرارته. وقالت:

– تعالي يا "**ماري**"، سأغسل لك جسمك!

فشرعت البنية الصغيرة– الحولاء اللثغاء– في الانتحاب. وصاحت "**أكولينا**":

– تعالي أيتها الشريرة! سأغسل لك جسمك، فلا تثيري ضجة ولا ضوضاء.. هيا، فلايزال أمامي أن أنظف أخاك!

*****

في تلك الأثناء، لم يكن "**بوليكي**" قد تبع الخادم الموفدة من "فوق"، وإنما سعى إلى مكان آخر.. فإلى جانب الجدار– في الردهة– كان ثمة سلم يفضي إلى الفراغ الذي تحت السقف مباشرة. فلما بارح "**بوليكي**" مسكنه، تلفت حوله حتى إذا لم ير أحدا، أحنى ظهره، وتسلق ذلك السلّم بعجلة، وخفّة فكأنه كان يجري فوقه.

وتساءلت السيدة في صبر نافد، موجهة الخطاب إلى "**دنياشا**" التي كانت ترجل لها شعرها وتنسقه:

– ترى ما الذي جعل "**بوليكي**" لا يأتي حتى الآن؟ أين "**بوليكي**"؟ لماذا لم يأت؟

ومرة أخرى، انسابت "**اكسيوتكا**" إلى مساكن الرقيق، واندفعت داخلة، وهي تنادي

"**بوليكي**" كي يوافي مولاتها. فردّت "**أكولينا**" التي كانت قد فرغت من "**ماري**"، ووضعت ابنها الرضيع لتوها في حوض الغسيل، وبدأت تبلل شعره الخفيف القصير، غير حافلة ببكائه:

– عجبا.. لقد ذهب منذ فترة طويلة.

وصرخ الطفل، وتقلّصت عضلات وجهه، وراح يحاول أن يتشبّث بشيء ما، بيديه الصغيرتين الواهنتين. فوضعت "**أكولينا**" إحدى يديها تحت ظهره الناعم، البض، الطري، وراحت بالأخرى تغسل جسمه، وهي تقول متلفتة في قلق:

– ابحثي عنه خشية أن يكون قد استسلم للنوم في مكان ما!

وفي تلك اللحظة، كانت زوجة النجار قد صعدت– مشعثة الشعر، دون أن تحكم ضم أطراف إزارها، الذي رفعت ذيله عن الأرض بيدها– إلى الفراغ الذي يلي السقف مباشرة، حيث كانت قد علّقت بعض الثياب لتجف. وفجأة، ملأت ذلك الفراغ صرخة ذعر، وهبطت زوجة النجار كالمخبولة، وقد أغمضت عينيها، وكادت لفرط إسراعها تنزلق على السلّم انزلاقا.. وصرخت:

– "**بوليكي**"!

وأفلتت "**أكولينا**" طفلها من بين يديها، بينما راحت زوجة النجار تصرخ:

– لقد شنق نفسه!

واندفعت "**أكولينا**" إلى الردهة، غير حافلة بالرضيع الذي تقلب في الحوض، ثم وقع وساقاه في الهواء، ورأسه تحت الماء.. وكانت زوجة النجار تقول:

– إنه مدلّى.. من إحدى العارضات الخشبية! ولكنها أمسكت حين رأت "**أكولينا**".

واندفعت "**أكولينا**" صاعدة السلّم. وقبل أن يمسك بها أحد، كانت قد بلغت قمته. ولكنها سرعان ما هوت من هناك، وقد أرسلت صرخة رهيبة، ولولا أن تلقفها القوم الذين أقبلوا مهرعين من كل ركن، لكانت قد لقيت حتفها!

(١١) ضحكات في "ركن" "بوليكي"!

لم يكن من سبيل إلى تمييز شيء خلال الضجيج العام لعدة دقائق. فقد تجمّع حشد من القوم راحوا يصرخون ويتكلمون، وأخذ الأطفال والعجائز يبكون. بينما كانت "**أكولينا**" مستلقية فاقدة الرشد. وأخيرا صعد رجلان- النجار ووكيل الأعمال، الذي كان قد هرع إلى المكان- درجات السلم. وشرعت زوجة النجار تروي- للمرة العشرين- كيف أنها لم تكن ترتاب في شيء؛ إذ صعدت لتحضر ثوبا لها..

"ونظرت حولي هكذا.. ورأيت.. رجلا! ونظرت مرة أخرى.. كانت ساقاه متدليتين. وتثلج كل جسمي.. أفهو أمر بديع؟ تصوروا رجلا شنق نفسه، وتصوروا أن أكون أنا التي قدّر لها أن تراه.. أما كيف هبطت مسرعة، فهذا ما لست أذكره.. إنها لمعجزة أن صان الله حياتي! الحق أن الرب كان رحيما بي.. أهو أمر هين؟ أن أقفز من مكان على مثل هذا الارتفاع. كنت خليقة بأن أهوى قتيلة!"

وأقبل الرجلان اللذان صعدا السلم، بعين القصة.. كان "**بوليكي**" مدلى من إحدى العارضات بالحبل الذي أخذه من المهد، وهو في قميصه وسرواله. وكانت قلنسوته مقلوبة، باطنها إلى الخارج، وملقاة بجواره.. بينما كان معطفه وجلد الغنم مطويين في تناسق وعناية على مقربة. وكانت قدماه تمسان الأرض، ولكن أي أثر للحياة لم يكن يبدو عليه.

واستردت "**أكولينا**" وعيها، فعادت تندفع نحو السّلم، ولكنها صدّت عنه. وفجأة، صاحت الصبية اللثغاء من "الركن":

- ماما.. لقد غلق (أي غرق) "**سيمكا**"!

وانتزعت "**أكولينا**" نفسها من أيدي الممسكين بها، وجرت إلى "الركن".. كان الطفل ملقى على ظهره في الحوض، لا يحير حراكا، وقد جمد ساقاه عن كل حركة. فانتزعته "**أكولينا**" من الحوض، ولكنه لم يتنفس، ولم يتحرك.. وألقته على السرير، وانطلقت- وهي معقودة الذراعين على صدرها- بضحك مرتفع، ثاقب، رهيب.. حتى

إن "**ماري**" – التي ضحكت هي الأخرى، في بادئ الأمر– غطّت أذنيها بكفيها، وهرعت خارجة إلى الردهة، وهي تصرخ باكية!

وتقاطر الجيران على "الركن" معولين باكين، فحملوا الطفل إلى الخارج، وبدأوا يدلّكون جسمه، ولكن.. دون جدوى. وكانت "**أكولينا**" تتقلب على الفراش وهي تضحك.. تضحك بشكل بث الذعر في نفوس كل من سمعوها.. وما كان المرء ليتبين عدد المقيمين في مساكن العبيد، ولا أي نوع من الناس هم، إلا في مثل هذه الآونة، وقد تزاحم الرجال والنساء.. كانوا جميعا في هرج، يتكلمون في وقت واحد، وكثير منهم راحوا يبكون، ولكن أحدا لم يقم بعمل يناسب الموقف.. وكانت زوجة النجار لاتزال تجد أناسا لم يسمعوا قصتها عن الصدمة التي أصابت مشاعرها الرقيقة، عندما وقع بصرها على المشهد غير المرتقب، وكيف حفظها الله فلم تقع من قمة السلم.. وراح كهل ألقى على كتفيه سترة امرأة– وقد كان يوما خادما خاصا للسيد– يروي كيف أن امرأة أغرقت نفسها في بركة ماء، ذات يوم في عهد السيد السابق.. وأوفد وكيل الأعمال رسلا إلى القس وإلى "كونستابل" البوليس، كما أقام رجالا على حراسة الجثة.. وظلت "**أكسيوتكا**"– الخادم التي من "فوق"– تحملق في الفتحة المفضية إلى الفراغ الذي يلي السقف، بعينين جامدتين، دون أن ترى شيئا، ودون أن تقوى– كذلك– على أن تنتزع نفسها من موقفها، وتعود إلى مولاتها.. وكانت "**أجاثا ميخايلوفنا**"– التي كانت وصيفة لصاحبة الضيعة السابقة– تبكي وتطلب بعض الشاي لتهدئ أعصابها.. أما "**آنا**" القابلة (الداية) فكانت ترقد جثة الطفل الصغير على المائدة، وقد نضحت يديها البضتين، المدربتين، بزيت الزيتون. بينما وقفت نسوة أخريات حول "**أكولينا**" يحملقن فيها صامتات!

وانكمشت البنات الصغيرات معا في الركن، ورحن يسترقن النظر إلى أمهن، ثم انطلقن في العويل. وما لبثن أن هدأن لحظة، ونظرن إلى أمهن، ثم ازددن انكماشا وتماسكا.. وانتشر الرجال والغلمان خارج المبنى، وهم ينظرون إلى الباب والنوافذ، وقد تجلّى الذعر على أساريرهم، وإن لم يستطيعوا أن يروا أو يدركوا شيئا، فراح كل منهم

يسأل الآخر عما جرى.. فقال واحد إن النجار اجتث قدم زوجته ببلطة.. وقال آخر إن الغسالة قد حملت إلى فراشها، حيث وضعت ثلاثة توائم.. وقال ثالث إن قط الطاهية قد أصيب بلوثة فعضّ عددا من الناس. على أن الحقيقة لم تلبث أن ذاعت تدريجا، حتى صعدت- في النهاية- إلى سيدة الضيعة. ولاح أن أحدا لم يكن يدرك كيف يعلنها إليها. ولكن "**ايجور**" الجلف فاجأها بالحقائق مباشرة، فاضطربت أعصاب السيدة، وانقضت فترة طويلة قبل أن تسترد جأشها. وكان القوم المتجمعون في أسفل الدار قد بدأوا يهدأون، وأشعلت زوجة النجار النار تحت الغلاية، لتعد بعض الشاي، فلما لم توجه دعوة إلى الذين لم يكونوا من المقيمين في مساكن الرقيق، انصرفوا وقد رأوا أن ليس من اللياقة أن يبقوا. وأخذ الغلمان يتصارعون خارج المبنى. وكان كل امرئ قد عرف جلية الأمر، فراحوا يرسمون علامة الصليب على صدورهم، وينفضون، حين دوت فجأة صرخة عالية:

- السيدة.. السيدة!

وتزاحم كل من في الحشد، ليفسحوا لسيدة الضيعة طريقا، وإن راح كل منهم- في الوقت ذاته- يحاول أن يرى ما هي فاعلة.. وولجت السيدة الردهة بوجه شاحب لطخته الدموع، فاجتازت عتبة "ركن" "**أكولينا**"، ودخلت عليها.. وتلاصقت عشرات الرؤوس وتزاحمت لتنظر خلال الباب. واشتد الضغط على امرأة حبلى، حتى اضطرت إلى أن تطلق صرخة عالية، ولكنها انتهزت هذا الظرف لتظفر لنفسها بمكان أمين في الصف الأول.. وكيف كان لأحد أن يتمالك نفسه من الرغبة في أن يرى سيدة الضيعة في "ركن" "**أكولينا**"؟ كان الأمر- بالنسبة لرقيق الدار- أشبه بالأضواء الملونة التي تنار في نهاية أي استعراض.. وكما أن إشعال نيران ملونة عمل عظيم، يشير إلى مناسبة جليلة، فكذلك كان وجود سيدة الضيعة- في ثيابها الحريرية الموشاة بالدانتيلا- في "ركن" "**أكولينا**"!

وتقدمت السيدة، فأمسكت يد "**أكولينا**"، ولكن "**أكولينا**" جذبت يدها من قبضتها، فهز العبيد المسنون رؤوسهم في استهجان، بينما قالت السيدة:

– "**أكولينا**" ! إن أولادك بحاجة إليك. فاحرصي على نفسك.

ولكن "**أكولينا**" انفجرت مقهقهة، ونهضت قائلة:

– إن أولادي كلهم من الفضة، الفضة الخالصة.. فلست احتفظ بنقود ورقية!

ثم تمتمت في عجلة جعلت الكلمات تتلاحق وتندغم:

– إنني قلت لـ"**بوليكي**": "لا تأخذ نقودا ورقية!".. وها هي ذي النتيجة.. لقد لطّخته بالقار.. بالقار والصابون يا سيدتي! فإن القار والصابون يخلصانك من أي جرب يلحق بك، في الحال!". وازدادت قهقهتها ارتفاعا!

وتحولت السيدة عنها، فأمرت باستدعاء مساعد الطبيب فورا، وبأن يحضر معه لاصقات (لبخات) من الخردل. وقالت:

– أحضروا بعض الماء البارد!".

وشرعت بنفسها تبحث عنه، ولكنها أشاحت فجأة، إذ رأت الطفل الميت مع القابلة العجوز "**آنا**". ورأى الجميع كيف أخفت وجهها في منديلها، وانفجرت باكية.. ومما يؤسف له أن السيدة لم تر ما كانت الجدة "**آنا**" تفعل، فإنها كانت قمينة بأن تقدره لاسيما وأنه كان من أجل خاطرها هي.. فقد غطّت الطفل بقطعة من الكتان، وبسطت ذراعيه بيديها الطريتين المدربتين، وهزّت رأسه، وعبست، ثم أرخت جفنيه على عينيه، وتنهدت وقد شعرت بأن كل امرئ رأى– في عملها– مدى طيبة قلبها.. ولكن السيدة لم تر شيئا من هذا؛ لأنها لم تقو على أن ترى أي شيء على الإطلاق. فقد راحت تبكي في نشيج هيستيري!

وأسرعت الأيدي تعينها على الوقوف والسير، واقتيدت إلى خارج المكان، ثم إلى دارها. وقال كثيرون لأنفسهم: "أهذا كل ما يرى منها؟". ثم عادوا ينفضون ويتفرقون. وظلت "**أكولينا**" سادرة في ضحكها وهذيانها. وما لبثت أن نقلت إلى حجرة أخرى، حيث حجمت ليسيل الدم المفسود من رأسها. ثم كسيت الجراح بلصقات الخردل، ووضع ثلج على رأسها ومع ذلك فإنها لم تثب إلى رشدها، ولم تبك، بل ظلت تضحك وتأتي من الأفعال والأقوال ما لم يتمالك معه أهل الرحمة– الذين عنوا بها– أنفسهم من

(١٢) ليلة رهيبة في الضيعة!

لم يكن العيد بهيجا في "**بوكروفسك**". ومع أن اليوم كان جميلا، إلا أن القوم لم يخرجوا للهو والنزهة، ولم تردد الفتيات الأغاني في الشارع، ولم يعزف عمال المصنع- الذين أقبلوا من المدينة ليقضوا ذلك اليوم بين أهلهم- على "**الكونسرتينا**" ولا على "**البلاليكا**"(١)، لا ولم يلعبوا مع الفتيات. وإنما جلسوا جميعا في الأركان واجمين، فإذا تكلموا كان حديثهم خافتا، وكأنما هناك روح شريرة تتصنت أقوالهم. ولم يكن الأمر بالغ السوء إبان النهار، ولكن.. ما إن هبط الليل، وشرعت الكلاب تعوي- وقد زاد الأمر سوءا أن هبت ريح راحت تولول خلال المداخن- حتى تملك القوم جميعا خوف طاغ، دفع الذين كانوا يملكون شموعا إلى أن يشعلوها أمام أيقوناتهم. واضطر كل من تصادف أن كان وحيدا في "ركنه" إلى أن يسعى إلى جيرانه يسألهم الإذن ليمكث الليل معهم، ليتخفف من الوحشة.. وأي امرئ كان عمله يقتضيه أن يذهب إلى الحظائر أبى أن يخرج وآثر أن يدع الماشية بلا علف- في تلك الليلة- غير مشفق عليها.. كما أن الماء المقدس- الذي كان كل امرئ يمتلك زجاجة صغيرة منه لطرد كل سوء استهلك عن آخره خلال الليل!

ومع ذلك فما أكثر من سمعوا شيئا يسير في الفراغ- الذي يلي السقف مباشرة- بخطى ثقيلة.. وشاهد الحداد ثعبانا يطير نحو هذا المكان مباشرة! أما "ركن" "**بوليكي**" فلم يكن يعمره أحد، فقد نقل الأطفال والمرأة المجنونة إلى مكان آخر، ولم يبق سوى جثمان الطفل الميت راقدا هناك، وقد جلست عجوزان ساهرتين عليه، بينما كانت امرأة ثالثة.. "حاجّة"(٢) تتلو المزامير، مدفوعة بحرارة تقواها، لا من أجل الطفل، وإنما بشعور مبهم بالنكبة التي حاقت بالجميع.. فهكذا أرادت سيدة الضيعة.

---

(١) الكونسرتينا والبلاليكا من الآلات الموسيقية الشائعة في "روسيا". (٢) "الحاجة" إمرأة تصطنع اللوثة الدينية، فتعتبر من الأولياء، وتسمى "حاجة"، ولو لم تكن قد زارت الأراضي المقدسة.

ولقد سمعت "الحاجّة" والمرأتان العجوزان، كيف أن عارضات السقف الخشبية كانت تهتز، كما كان ينبعث أنين متوجع، كلما انتهين من كل فقرة من كتاب "المزامير". وإذ ذاك كن يهتفن: "ليقم الرب!" فإذا بكل شيء يهدأ من جديد.

ودعت زوجة النجار صديقة لها، فلم تناما ليلتهما طولها، بل شربتا كل الشاي الذي كانت قد أعدته للأسبوع كله. وسمعتا – هما الأخريان– كيف أن العارضات كانت تئز فوق رأسيهما، كما سمعتا جلبة وكأن أكياسا كانت تتساقط تباعا. ولقد أعان وجود الحراس الفلاحين على استبقاء شجاعة أهل مساكن الرقيق بعض الشيء، وإلا لكانوا قد ماتوا خوفا في ذلك الليل.. وكان الفلاحون ينامون على بعض القش في الردهة، وقد ذكروا– فيما بعد– أنهم سمعوا هم الآخرون أمورا عجيبة في الفراغ الذي يلي السقف، وإن كانوا– إذ ذاك– يتحدثون في هدوء تام عن التجنيد، ويمضغون لقما من الخبز، ويحكون أجسادهم، و– فوق كل شيء– يملأون الردهة برائحة غثة عرفت عن الفلاحين، حتى أن زوجة النجار لم تتمالك أن بصقت– إذ تصادف أن مرّت بالقرب منهم– ونعتتهم بأنهم "فروخ الفلاحين"!

ومهما يكن الأمر، فإن الميت ظل معلقا في الفراغ الذي يلي السقف.

ولاح كأنما خيمت روح الشر ذاتها على مساكن الرقيق، باسطة جناحيها الهائلتين، في تلك الليلة، مبدية قوتها وسلطانها، مقتربة من أولئك القوم كما لم تقترب قط من قبل.. هكذا شعروا جميعا. ولست أدري ما إذا كانوا على صواب، بل إنني لأراهم كانوا في خطأ مبين. وأعتقد أنه لو كان قد قدر لشخص على شيء من الجرأة أن يأخذ شمعة أو مصباحا في تلك الليلة الرهيبة، وأن يرسم على صدره علامة الصليب– بل وبدون أن يرسم الصليب– فصعد إلى ما تحت السقف، وبدد رهبة الليل رويدا– خلال تقدمه بالشمعة– ملقيا الضوء على العارضات الخشبية، وعلى الرمل، وعلى أنبوبة المجاري المكسوة بنسيج العنكبوت، وعلى لفافات العنق التي خلفتها زوجة النجار وراءها.. ووصل إلى "**بوليكي**"، فغالب مخاوفه ورفع المصباح إلى مستوى وجهه، لرأى عين الشكل النحيل، وقد مسّت القدمان الأرض لأن الحبل ارتخى، ومال الجسم جانبا وقد خلا من الحياة.. ولا صليب تحت القميص، وقد سقط الرأس على الصدر.. ولرأى الوجه

الطيب السحنة وقد تفتحت عيناه بلا إبصار، والابتسامة التي تجمع بين المسكنة والشعور بالذنب، وهدوءا ساجيا، وصمتا يسيطر على كل شيء.. والواقع أن زوجة النجار كانت أكثر بشاعة وإرهابا من "**بوليكي**"– رغم أن صليبه كان بعيدا عن جسمه، وملقى على إحدى العارضات– لاسيما وهي تنكمش في ركن من سريرها، بشعر مشعث، وعينين مفعمتين بالذعر، وقد راحت تروي كيف أنها سمعت ضجيج أكياس تتساقط!

و"فوق".. أي في دار السيدة.. سيطرت عين الرهبة التي سادت مساكن الرقيق. وكان مخدع السيدة نفسها معبقا برائحة "الكولونيا" والأدوية، بينما راحت "**دنياشا**" تصهر شمعا أصفر، لتعد لاصقة "لبخة". أما السبب الذي من أجله كانت هذه اللاصقة، فهذا ما لست أدريه، وإن كنت أعلم أن اللاصقات كانت تصنع عادة عندما تكون السيدة متوعكة. وقد كانت في تلك الليلة بالغة الاستياء، حتى لقد حلّ بها المرض. ولقد أقبلت عمة "**دنياشا**" لتمكث الليل معها، حتى تشد أزرها. ومن ثم فقد كانت في غرفة الوصيفة أربع، رحن يتكلمن بأصوات خافتة: "**دنياشا**"، وعمتها، والوصيفة الثانية، و"**أكسيوتكا**".. وما لبثت "**دنياشا**" أن تساءلت:

– من منكن تذهب لتحضر بعض الزيت؟

فقالت الوصيفة الثانية في حزم وإصرار:

– ما من شيء يغريني على الذهاب

– هراء! اذهبي مع "**أكسيوتكا**"!

فقالت "**أكسيوتكا**":

– سأهرع وحدي، فلست خائفة من شيء!

بيد أنها لم تكد تفرغ من قولها، حتى شعرت بخوف طارئ! بينما قالت "**دنياشا**":

– حسن.. اذهبي إذن يا عزيزتي إلى الجدة "**آنا**"، وسليها أن تعطيك بعض الزيت في قدح، وأحضريه إلى هنا، ولا تسكبي منه شيئا!

ورفعت "**أكسيوتكا**" ذيل ثوبها بإحدى يديها. وإذ حال هذا دون تأرجح ذراعيها معا كالبندولين، فإنها راحت تحرك ذراعا واحدة بعنف مضاعف، في خط متعامد على

خيط سيرها، وهي تندفع! وكانت خائفة.. وخيل إليها أنها قمينة بأن تموت ذعرا إذا هي رأت أو سمعت شيئا، ولو كان هذا الشيء أمها التي كانت على قيد الحياة.. ومرقت في طريقها المألوف، وهي مغمضة العينين!

(١٣) فلاح يقتحم مخدع السيدة!

وفجأة، انبعث على مقربة من "**أكسيوتكا**" صوت ريفي عميق، متسائلا:

– هل السيدة نائمة أو غير نائمة؟

ففتحت الفتاة عينيها– اللتين كانت تغمضهما– ورأت أمامها جسما خيّل إليها أنه أكثر ارتفاعا من الدار كلها. فصرخت وارتدّت عائدة بسرعة هوجاء، حتى أن ذيل ثوبها راح يتطاير خلفها في الهواء. وبقفزة واحدة تجاوزت المدخل، وبقفزة أخرى كانت في غرفة الوصيفة، حيث ارتمت على سرير وهي ترسل صراخا ضاريا. وأوشكت "**دنياشا**" وعمتها والوصيفة الثانية أن يمتن رعبا. وقبل أن يتمالكن حواسهن، سمعن خطوات ثقيلة بطيئة مترددة في الردهة، انتهت أخيرا عند بابهن. واندفعت "**دنياشا**" إلى مخدع مولاتها والشمع المصهور يتناثر من بين يديها. واختبأت الوصيفة الثانية وراء الستائر. أما العمة– وكانت أقوى منهن شخصية– فقد همّت بأن تدفع الباب المؤدي إلى الردهة، وتحكم إغلاقه. ولكن الباب فتح– في تلك اللحظة– وولج فلاح الحجرة!

ولم يكن القادم سوى "**دوتلوف**" بحذاءيه الشبيهين بالقاربين! وراح يتلفت حوله باحثا عن أيقونة، دون أن يحفل بما استولى على من كن في حجرة الوصيفة من مخاوف. وإذ لم ير الأيقونة الصغيرة التي كانت في الركن الأيسر من الحجرة، وقف أمام صوان كانت أواني الشاي وأقداحه تحفظ فيه، ورسم على صدره علامة الصليب. ثم وضع قلنسوته على حافة النافذة، ودس يده في صدر معطفه، وراح يدفعها موغلا، وكأنه يريد أن يحك جلده، تحت الإبط. وما لبث أن أخرج المظروف الذي كان يحمل خمسة أختام بالشمع البني، يحمل كل منها رسم مرساة (هلب)!

وضغطت عمة "**دنياشا**" قلبها بيدها، ثم راحت تناضل حتى انتزعت الكلمات بعناء، قائلة:

– لعمري! لقد أوقعت الذعر في نفسي حقا، حتى إنني لا أقوى على أن أنطق بكـ. . كلمة! لقد ظننت أن لحظتي الأخيرة قد حانت!" . . وصاحت الوصيفة الثانية، وهي تبرز من وراء الستائر:

– أفهكذا يتصرف الناس؟

وقالت "**دنياشا**"، وهي تخرج من مخدع مولاتها:

– لقد انزعجت السيدة نفسها. فما الذي تقصده إذ تقتحم الدار من مدخل الخادمات، دونما استئذان؟ يا لك من فلاح جلف!

ولم يحاول "**دوتلوف**" أن يلتمس لنفسه الأعذار، بل قال إنه راغب في أن يقابل السيدة. فقالت "**دنياشا**":

– إنها متوعكة المزاج!

وفي تلك اللحظة، أطلقت "**أكسيوتكا**" ضحكا عاليا، بدا أنها لم تكن تقو على كبحه حتى إنها اضطرت إلى أن تدفن وجهها في وسادة السرير. وظلت ساعة لا تقوى– رغم تهديدات "**دنياشا**" وعمتها– على أن ترفع وجهها فترة، دون أن تنفجر في الضحك ثانية، وكأنما كان ثمة شيء يفجر الضحك في صدر ثوبها الوردي المنقوش، وفي شدقيها المضرجين بالحمرة. فلقد لاح لها أن من المضحك كل الإضحاك أن يستولي الخوف على الجميع– إلى هذا الحد– وراحت تدس رأسها في الوسادة، وتدق الأرض بحذاءيها، وكل جسمها يهتز بعنف لفرط الضحك!

ووقف "**دوتلوف**" في مكانه، وراح يطيل النظر إليها بإمعان، وكأنه يستوثق مما أصابها. ولكنه لم يلبث أن تحوّل عنها دون أن يكتشف سر ما بها، وعاد يقول:

– الواقع أن. . الأمر. . الأمر على جانب عظيم من الأهمية. وليس عليك سوى أن تدخلي للسيدة، فتقولي لها: إن فلاحا وجد الخطاب الذي ضم النقود؟

فتساءلت "**دنياشا**":

– أية نقود؟

وقرأت– قبل أن تحمل النبأ للسيدة– ما كان مكتوبا على المظروف، وسألت "**دوتلوف**" عن المكان والزمان اللذين وجد فيهما النقود التي كان على "**بوليكي**" أن يحضرها من المدينة. حتى إذا استمعت إلى كل شيء، دفعت عن طريقها الخادم الصغيرة– التي كانت لاتزال تتلوى لفرط الضحك– وأقصتها إلى البهو الخارجي، ثم دخلت إلى سيدتها.

*****

ودهش "**دوتلوف**" إذ أبت السيدة أن تستقبله، ولم تقل لـ"**دنياشا**" شيئا معقولا.. فقد كان كل ما قالته:

– لست أدري شيئا عن هذا الخطاب، ولا أريد أن أعرف شيئا؟ أي فلاح؟ وأية نقود.. لا أستطيع، ولا أريد أن أرى أحدا.. ليتركني هذا الفلاح بسلام!

وقال "**دوتلوف**"، وهو يقلب المظروف بين يديه:

– ما الذي ينبغي أن أفعل؟ إنه ليس بالمبلغ البسيط!

ثم سأل "**دنياشا**":

– ما الذي كتب عليه؟

فعادت الفتاة تقرأ العنوان.. و"**دوتلوف**" في ريب من أمره، وقد بقي في نفسه شيء من الأمل في أن النقود قد لا تكون نقود السيدة، وأن العنوان لم يقرأ له كما ينبغي أن يقرأ.. ولكن "**دنياشا**" قطعت كل شك ورجاء بشأن المبلغ والعنوان، فدسّ المظروف في صدره وهو يتنهد، وهم بالانصراف قائلا:

– أعتقد أن عليّ أن أسلمه إلى ضابط البوليس.

فاستوقفته "**دنياشا**" قائلة:

– مهلا.. سأحاول مرة أخرى..

كانت قد أعملت فكرها بعد أن اختفى المظروف في صدر معطف الفلاح، فلم تشأ

أن تفوت على سيدتها المبلغ، وقالت:

– هات هذا الخطاب!

فأخرج "**دوتلوف**" الخطاب ثانية، ولكنه تردد برهة قبل أن يضعه في يد "**دنياشا**" المبسوطة. ثم قال:

– قولي إن "**سمعان دوتلوف**" قد وجده في الطريق..

– حسنا.. هاته!

– لقد خيّل إليّ أنه ليس ذا قيمة.. مجرد خطاب! ولكن جنديا قرأ لي ما كتب عليه عن وجود نقود بداخله..

– لا بأس.. إذن، هاته!

فقال "**دوتلوف**":

– إنني لم أجسر على الذهاب إلى أي مكان، ولا إلى بيتي قبل أن..

وسكت لحظة، ثم استطرد دون أن يتخلى عن المظروف الثمين:

– قولي هذا للسيدة!

وأخيرا أخذت "**دنياشا**" الخطاب منه، ودخلت على مولاتها من جديد. صاحت السيدة في لهجة عاتبة:

– أواه، يا إلهي! لا تحدثيني يا "**دنياشا**" عن هذه النقود.. فقط تصوري ذلك الطفل الصغير..!

وارتجفت وهي تتمثل ابن "**أكولينا**" الميت، بينما عادت "**دنياشا**" تقول:

– إن الفلاح لا يدري لمن تريدين أن يعطي هذا المبلغ يا مولاتي!

وهنا فتحت السيدة المظروف، فارتجفت لمرأى النقود، ووجمت فترة وهي شاردة البال، ثم قالت:

– يا للنقود البغيضة! ما أكثر ما تحدث من آثام!

فقالت "**دنياشا**":

– إن "**دوتلوف**" هو الذي أحضرها يا مولاتي. فهل تأمرين بأن ينصرف، أو تتكرمين

بالخروج لكي تقابليه؟ وهل النقود كاملة لم تمس؟

وفجأة، قالت السيدة وهي تتلمس يد "**دنياشا**" لتتشبث بها:

– لا أريد هذه النقود.. إنها نقود رهيبة! ما أكثر ما فعلت! أنبئيه بأن له أن يأخذها إذا شاء!

وراحت تردد على مسمع من "**دنياشا**" المذهولة:

– أجل، أجل، أجل.. دعيه يأخذها بأكملها، وليفعل بها ما يشاء!

وهتفت "**دنياشا**" وهي تبتسم، وكأنها تحايل طفلة:

– ألف وخمسمائة روبل؟!

فصاحت السيدة بصبر نافد:

– دعيه يأخذها بأكملها! كيف لا تفهمينني؟ إنها نقود منحوسة، فلا تحدثيني عنها بعد الآن.. ليأخذها الفلاح الذي عثر عليها هيا!

وخرجت "**دنياشا**" إلى حجرة الوصيفة، فسألها "**دوتلوف**":

– هل وجدت المبلغ كاملا؟

فأجابت "**دنياشا**" وهي تسلمه المظروف:

– يحسن بك أن تحصيه بنفسك، فقد أمرت بأن أسلمك إياه!

ودسّ "**دوتلوف**" قلنسوته تحت إبطه، وانحنى إلى الأمام، وشرع يحصي المبلغ. ثم تساءل:

– هل لديكم عدّاد؟[1]، فلقد خطر لـ"**دوتلوف**" أن السيدة كانت غبية لا تحسن العدّ، وأن هذا هو الذي دعاها إلى أن تأمره بعد النقود. ولكن "**دنياشا**" قالت بجفاء:

– تستطيع أن تعدّها في بيتك.. فالنقود لك.. لقد قالت السيدة:

– لا أريد أن أراها، فدعيها للرجل الذي أحضرها!

وحملق "**دوتلوف**" في "**دنياشا**"، دون أن يقيم ظهره المنحني، بينما بسطت عمة الوصيفة راحتيها، وهتفت:

---

(١) إطار خشبي تمتد بعرضه أسلاك فيها قطع من الخرز، يستخدم لتلعيم الأطفال العد، وكان إستعماله شائعاً بين فلاحي "روسيا" قديماً.

– آه، أيتها الأم المقدسة! أي حظ ساقه الرب لهذا الرجل! آه، أيتها الأم المقدسة!

ولم تستطع الوصيفة الثانية أن تصدق ما سمعت فهتفت بزميلتها:

– ما أراك جادة يا "**أفدوشيا بافلوفنا**".. إنك تمزحين!

فقالت "**دنياشا**"، دون أن تخفي استياءها:

– أمزح؟! حقا! لقد أمرتني بأن أعطي الفلاح النقود.. هاك، خذ النقود وامض.. مصائب قوم عند قوم فوائد!

فقالت العمة:

– ما هذا مجال المزاح.. إنها ألف وخمسمائة روبل.

فعقبت "**دنياشا**" قائلة:

– بل هي أكثر!

ثم أردفت قائلة لـ"**دوتلوف**" في سخرية:

– يجب أن تقدم شمعة بعشرة كوبكات للقديس "**نيقولا**".. لماذا لا تثوب إلى وعيك؟ لو أن هذه النقود آلت إلى رجل فقير.. ولكن هذا الرجل أوتيّ وفرة من المال!

وأدرك "**دوتلوف**" أخيرا أن الأمر لم يكن مزاحا، فشرع يجمع الأوراق المالية التي كانت قد نثرها حوله ليحصيها، وأخذ يضعها في المظروف. بيد أن يديه كانتا ترتجفان، وقد ظل ينظر إلى الوصيفتين ليطمئن إلى أنه لم يكن في الأمر كله أي مزاح.. بينما راحت "**دنياشا**" تقول، متظاهرة بأنها تحتقر الفلاح والمال معا: "انظرن! إنه لا يكاد يعقل لفرط الفرح.. دعني أضع النقود لك في المظروف!

وهمّت بأن تمسك بالأوراق المالية، ولكن "**دوتلوف**" لم يدعها تصل إليها، بل كوّر الأوراق معا، ودفعها إلى جوف المظروف، ثم تناول قلنسوته. فسألته "**دنياشا**":

– أمبتهج أنت؟

وأجاب:

– لا أكاد أدري من أمري شيئا! الواقع.. ولم يتم عبارته، بل لوّح بيده، وابتسم، وغادر المكان وهو يوشك أن يبكي!

ودقّت السيدة الجرس، ثم تساءلت:

– هل أعطيته النقود؟

فأجابت "**دنياشا**":

– أجل.

– وهل كان شديد الابتهاج؟

– كان أشبه بمجنون.

– آه! ادعه ثانية، فإني أريد أن أسأله كيف عثر على الخطاب. ادعه إلى هنا، فلست أقوى على مبارحة المخدع!

وهرعت "**دنياشا**" إلى الخارج، فوجدت الفلاح عند المدخل، وهو لايزال عاري الرأس، وإن كان قد أخرج كيس نقوده، ووقف منحني القامة يفك رباطه، بينما كان ممسكا بمظروف النقود بين أسنانه.. ولعله تصوّر أن النقود لن تصبح ملكا له ما لم تكن داخل الكيس. فلما نادته "**دنياشا**"، اشتد به الجزع، وهتف:

– ماذا جرى يا "**أفدوشيا**".. "**أفدوشيا بافلوفنا**"؟ هل تريد السيدة أن تسترد النقود؟ ألا تستطيعين أن تشفعي لي عندها، وأعدك أن أحضر لك بعض العسل البديع؟

فقالت ساخرة:

– حقا.. فما أكثر ما أحضرت!

وفتح الباب مرة أخرى، واقتيد الفلاح إلى السيدة، وهو أبعد ما يكون عن الابتهاج. فقد راح يفكر في سريرته– وهو ماض خلال الحجرات، رافعا قدميه أكثر مما ينبغي، وكأنه يخطو خلال حشيش طويل يحاول ألا يسحقه بحذاءيه المصنوعين من اللحاء:

– ويلاه! لسوف تسترد النقود!

ولم يتبين شيئا مما كان حوله.. ومرّ بجوار مرآة، فرأى زهورا، وفلاحا في حذاءين من اللحاء، يرفع قدميه عاليا.. ثم رأى سيدا يضع على عينيه عوينتين (نظارة) في رسم على الجدار.. ثم شيئا أخضر كأنه الحوض الخشبي، وشيئا أبيض.. وفجأة، بدأ الشيء الأبيض يتكلم، فهو لم يكن سوى السيدة.. ولم يفقه "**دوتلوف**" شيئا، بل اكتفى بأن

راح يحملق أمامه، دون أن يعرف أين كان، وقد خيّل إليه أن ضبابا يكتنف كل شيء!

– أهذا أنت يا "**دوتلوف**"؟

– أجل يا سيدتي.. تماما كما كان، لم أمسّه.. إنني لم أكن مسرورا، فليساعدني الله.. لشد ما أرهقت جوادي، لأصل إلى هنا مسرعا!

فقالت السيدة في ازدراء، وإن بدت ابتسامتها رقيقة:

– حسنا، إنه حظك! خذه، خذه لنفسك!

ودارت عيناه في محجريهما، بينما استطردت السيدة:

– إنني لمسرورة إذ آل إليك المبلغ، فليجعله الله ذا نفع لك! أفمسرور أنت الآن؟

فأجاب مرتبكا:

– وكيف لا أكون مسرورا؟ إنني مسرور جدا يا مولاتي.. مسرور جدا! سأصلي دائما من أجلك، وأدعو لك.. إنما أنا مسرور بوجودك على قيد الحياة، والحمد لله!

– وكيف عثرت عليه؟

– أعني أن بوسعنا دائما أن نبذل قصارى طاقتنا من أجل مولاتنا، في شرف وأمانة، ودون..

وهنا قالت "**دنياشا**":

– إنه مرتبك يا مولاتي!

– كنت قد صحبت ابن أخي المجند، وفيما كنت أقود عربتي عائدا، عثرت على الخطاب في الطريق.. ولابد أن "**بوليكي**" قد أسقطه عفوا!

– لا بأس انصرف.. انصرف أيها الرجل الطيب، ويسرني أنك أنت الذي عثرت عليه!

وقال الفلاح:

– لكم أنا مسرور يا مولاتي!

ثم تذكّر أنه لم يقدّم لها الشكر اللازم، ولم يدر كيف يتصرف. وابتسمت السيدة و"**دنياشا**"، وإذ ذاك شرع الرجل يسير وكأنه يخطو بين أعشاب عالية، وهو يكبح نفسه

بعناء حتى لا يجري، وقد داخله الخوف من أن يستوقف فتؤخذ منه النقود!

(١٤) مع جثة "بوليكي"!

مـا إن خـرج "**دوتـلـوف**" من الدار حتى عرج صوب أشجار الزيزفون، مبتعداً عن الطريق، ثم فكّ حزامه ليخرج كيسه بسهولة، وغيب فيه النقود. وكانت شفتاه تختلجان وتنبسطان وتتقاربان، دونما صوت. فلما وضع النقود في الكيس، ثبت حزامه، ورسم الصليب على صدره، ثم عاد إلى الطريق مترنحا- وكأنه ثمل- تحت وطأة الأفكار التي تدافعت على ذهنه. وفجأة رأى شبح رجل مقبلا عليه فصاح، فإذا به "**أيفيم**" وقد أمسك بيده هراوة، وسهر على الحراسة عند مساكن الرقيق.

وقال "**أيفيم**" بابتهاج"، وهو يقترب منه، وقد أمضه السهر وحيدا:

- آه، أهذا أنت يا أبي "**سمعان**"؟! هل ودعتم المجندين يا أبت؟

فأجابه:

- ودعناهم.. وماذا تفعل؟

- لقد عينت لحراسه "**بوليكي**" الذي شنق نفسه!

- وأين هو؟

- فوق، معلق في الفراغ تحت السقف، كما يقولون!

وأشار بهراوته نحو سقف مساكن العبيد، فتطلّع "**دوتلوف**" حيث أشار. ومع أنه لم ير شيئا، فقد قطّب عينيه، وأرهف بصره. ثم هزّ رأسه. وقال "**أيفيم**":

- لقد جاء ضابط البوليس، كما قال الحوذي، وسينزلون الجثة حالا. أليست هذه ليلة رهيبة يا أبت؟ ما من شيء يحملني على أن أصعد إليه بالليل، ولو أمرت أمرا.. لن أصعد ولو شاء "**ايجور ميخايلوفيتش**" أن يقتلني..

وكان "**دوتلوف**" يردد دون أن يفقه ما يقول:

- يا لها من خطيئة.. آه يا له من إثم! وهمّ بأن يمضي في طريقه، فإذا صوت "**ايجور**

ميخايلوفيتش" يستوقفه، إذ انطلق من مدخل مكتبه قائلا:

– اسمع، أيها الحارس! تعال!

فلبّى "**أيفيم**" نداءه. وإذ ذاك سأله:

– من ذلك الفلاح الذي كان يقف معك؟

وأجابه "**أيفيم**":

– إنه "**دوتلوف**".

فصاح وكيل الأعمال:

– آه، أهذا أنت يا "**سمعان**"! تعال معنا!

واقترب "**دوتلوف**".. وعلى ضوء مصباح كان الحوذي يحمله، رأى الشيخ "**ايجور ميخايلوفيتش**" يقف مع رجل قصير، يحيط بقبعته شريط، وقد ارتدى معطفا رسميا طويلا.. ذلك كان "كونستابل" البوليس. وأحسّ الشيخ بشيء من عدم الارتياح، ولكنه لم يجد مفرا من أن يقف أمامهما، بينما كان "**ايجور**" يقول:

– وأنت يا "**أيفيم**".. إنك فتى شجاع، فاصعد إلى الفراغ الذي يلي السقف، حيث شنق نفسه، وأصلح وضع السلم ليرقى صاحب الفخامة إليه.

وهرع "**أيفيم**" – الذي كان منذ لحظة يقول إن شيئا في الدنيا لن يحمله على الصعود– فيمم شطر المكان، وحذاءاه الخشبيان يقرقعان.

وأشعل ضابط البوليس ثقابا، أوقد به غليونا.. كان يقيم على حوالي ميل ونصف الميل. ولما كان قد تلقى من رئيسه تقريعا شديدا– لإفراطه في الشراب– فقد أبدى همة وحمية، فوصل في الساعة العاشرة مساء، ورغب في أن يرى الجثة لفوره.. وتحول "**ايجور ميخايلوفيتش**" إلى "**دوتلوف**" فسأله عما أتى به. ولكي يجيبه "**دوتلوف**" راح يروي له كيف عثر على النقود، وما فعلته السيدة. وقال إنه كان في طريقه إلى "**ايجور ميخايلوفيتش**" ليسأله رأيه. وشدّ ما جزع حين سأله وكيل الأعمال أن يعطيه المظروف، ثم أخذ يفحصه وتناول "كونستابل" البوليس الظرف بدوره، فأمسك به

للحظة وجيزة، وسأل "**دوتلوف**" عن بعض الأمور بشيء من الجفاء. وأخذ الشيخ يقول لنفسه: "واحسرتاه! لقد طارت النقود!". ثم مضى يتلمس تبرير أمره، ولكن "الكونستابل" لم يلبث أن ناوله النقود ثانية، وهو يقول:

– يا له من حظ، لغبي مأفون!

فقال "**ايجور ميخايلوفيتش**":

– لقد واتاه في الوقت المناسب، فقد كان عائدا بعد أن رافق ابن أخيه المجند. وبوسعه الآن أن يفتديه!

وقال رجل البوليس:

– آه!

ثم سار نحو مساكن الرقيق.

وتحول "**ايجور ميخايلوفيتش**" لـ"**دوتلوف**":

– هل ستفتديه.. أقصد "**إيليشا**"؟

فقال الرجل:

– وكيف لي أن أفتديه؟ هل ستكون ثمة نقود كافية؟ ثم، قد تكون الفرصة فاتت!

فقال وكيل الأعمال:

– أنت أدرى بذلك!

وتبعا "كونستابل" البوليس. واقتربوا من مساكن الرقيق، حيث كان الحراس الكريهو الرائحة يقفون في الردهة، ومعهم مصباح.. ولاحوا وكأنهم مذنبون، ولعل ذلك كان راجعا إلى الرائحة الكريهة التي كانوا يبثونها حولهم.. وكانوا جميعا صامتين. فتساءل "كونستابل" البوليس:

– أين هو؟

فقال "**ايجور ميخايلوفيتش**" هامسا:

– هنا.

ثم أردف قائلا لـ"**أيفيم**":

- إنك فتى جسور، فتقدّم الضابط، ومعك المصباح!

وكان "**أيفيم**" قد وضع لوحا مستقيما من الخشب، فوق قمة السلم. وبدا أنه فقد كل خوف، فصعد السلم، طاويا كل درجتين أو ثلاث معا، مبتهجا، ملقيا الضوء على طريق "كونستابل" البوليس. وعندما غابا في الفراغ الذي يلي السقف، تنهد "**دوتلوف**"، ووقف وإحدى قدميه على أدنى درجات السلم وتبعهما وكيل الأعمال.

ومرّت دقيقتان أو ثلاث. وكان وقع الأقدام- تحت السقف- قد انقطع، مما نمّ عن أنهما بلغا الجثة. وما لبث "**أيفيم**" أن نادى من أعلى: "أبتاه، إنهم يريدونك! فبدأ "**دوتلوف**" يصعد السّلم. ولم يكن ضوء المصباح يكشف سوى الجزء الأعلى من جسم كل من "كونستابل" البوليس و"**ايجور ميخايلوفيتش**" خلف القوائم الخشبية. وكان ثمة شخص آخر يقف خلفهما وظهره نحو فتحة المكان.. وكان هذا هو "**بوليكي**". وصعد "**دوتلوف**"، ثم وقف، ورسم علامة الصليب على صدره.. وقال "كونستابل" البوليس"

- أديروه يا أولاد!

فلم يتحرك أحد. وإذ ذاك قال "**ايجور ميخايلوفيتش**":

- "**أيفيم**".. إنك فتى جسور!

فتقدم "الفتى الجسور"، وأدار "**بوليكي**"، ووقف بجانبه، وهو ينقل بصره- وقد تهلل وجهه- بين "**بوليكي**" ورجل البوليس، كرجل يعرض أمهق أو "**جوليا باسترانا**"(١)، وينقل بصره بين الناس وما يعرض، وهو على استعداد لأن يفعل كل ما يبتغيه النظارة.

وقال رجل البوليس:

- أدره مرة أخرى!

فأدير "**بوليكي**"، وذراعاه يتأرجحان قليلا، وقدماه يحتكان بالرمال. وعاد "الكونستابل" يقول:

---

(١) الأمهق هو الشخص الشديد البياض والشقرة، ويسمى عادة "عدو الشمس"، أما "جوليا باسترانا" فكانت أنثى نصف إمراة ونصف حمارة، عرضت في "روسيا" منذ قرن تقريباً.

– أمسكوه، واهبطوا به.

فتساءل "**ايجور ميخايلوفيتش**":

– هل نقطع الحبل كله يا صاحب الفخامة؟ آتونا بفأس يا أولاد!

ولم يكن ثمة بد من تكرار التعليمات على الحراس و"**دوتلوف**"، قبل أن يشرعوا في العمل. على أن "الفتى الجسور" حمل "**بوليكي**" كما يحمل جثة خروف.. وما لبث الحبل أن قطع في النهاية، وحملت الجثة إلى أسفل، ثم نشر عليها غطاء. وقال "كونستابل" البوليس إن الطبيب سيفد في اليوم التالي.. وصرف الجميع.

(١٥) عودة المجند إلى قريته!

سعى "**دوتلوف**" إلى داره، وهو لايزال يحرك شفتيه، وكان– في البداية– يشعر بتوجس وتشاؤم، ولكن هذا الشعور لم يلبث أن زايله حين اقترب من البيت، وتولاه ابتهاج أخذ يسري في فؤاده تدريجا. وسمع أغاني وأصوات السكارى تنبعث من القرية.. ولم يكن "**دوتلوف**" قد عاقر الخمر إطلاقا؛ ومن ثم فقد يمم– في هذه المرة أيضا– شطر بيته مباشرة. وكان الوقت متأخرا، حين ولج كوخه، فإذا زوجه العجوز نائمة. وكان ابنه الأكبر وأحفاده نياما على الفرن في حين كان ابنه الثاني نائما في المخزن. ولم يكن من مستيقظ سوى زوجة "**إيليشا**"، فقد جلست تبكي.. عارية الرأس، على مقعد خشبي، وفي ثوب العمل اليومي القذر. ولم تنهض لاستقباله، بل ازدادت نحيبا، وراحت ترثي حالها عندما دخل. وكانت– كما قالت زوجته العجوز– تجيد الندب والنعيب بطلاقة، لاسيما وأن صغر سنها لم يكن قد أتاح لها فرصة للمران!

واستيقظت العجوز فأعدّت عشاء لزوجها.. وأقصى "**دوتلوف**" زوجة "**إيليشا**" عن المائدة قائلا لها:

– كفى! كفى!

فابتعدت "**أكسينيا**" عن المائدة، واستلقت على أريكة خشبية، وواصلت الندب

والنعيب. ووضعت العجوز العشاء على المائدة، ثم رفعته- فيما بعد- في صمت.. ولم يتكلم الشيخ كذلك. وبعد أن صلى لله شكرا- عقب العشاء- تجشأ، وغسل يديه، ثم رفع العداد عن مسمار في الجدار، وذهب إلى المخزن. وهناك راح والعجوز يتكلمان همسا لبرهة، ثم شرع- بعد انصرافها- يعد على العداد، وليس من صوت سوى صلصلة الخرز.. وأخيرا رفع غطاء صندوق كبير- هناك وهبط إلى فراغ تحت الأرض. وقضى وقتا طويلا في الحجرة والفراغ الذي كان تحتها. وعندما عاد إلى غرفة الجلوس. كان الظلام يسود الكوخ؛ إذ إن شظية الخشب- التي كانت تستخدم كشمعة- انطفأت فأشعلها من جديد. وكانت زوجته- الهادئة، الصامتة أثناء النهار- قد تكورت على السرير الخشبي وملأت الكوخ غطيطا. أما زوجة "**إيليشا**" الصاخبة فكانت تتنفس بهدوء، وقد نامت هي الأخرى.. كانت ترقد على الأريكة الخشبية في عين الثياب التي كانت فيها طيلة يومها، وليس من شيء تحت رأسها يعوضها عن الوسادة!

وشرع "**دوتلوف**" يصلي، ثم نظر إلى زوجة "**إيليشا**" وهزّ رأسه، وأطفأ النور.. وتجشأ ثم صعد إلى قمة الفرن، حيث ينام إلى جوار حفيده الصغير. وألقى بحذاءيه المكسوين بلحاء الشجر إلى الأرض في الظلام، واستلقى على ظهره متطلعا إلى ألواح السقف الخشبية التي كانت فوق رأسه مباشرة، والتي كانت لا تبين تقريبا.. وأخذ ينصت إلى أصوات الصراصير وهي تطير مرتطمة بالجدران، وإلى التنهدات، والزفرات، والغطيط، وحفيف قدم تحتك بأخرى، وجلبة الماشية في الخارج. وانقضى وقت طويل قبل أن ينام، بزغ خلاله القمر، فأضاءت أشعته الكوخ، واستطاع الشيخ أن يرى "**أكسينيا**" في ركنها، وشيئا لم يستطع أن يتبين ما إذا كان سترة نسيها ابنه، أو وعاء غسيل وضعته النسوة هناك، أو رجلا قابعا.. ولعله كان قد بدأ ينعس- إذ ذاك- وربما لم يكن قد بدأ، ولكنه- على أية حال- شرع يتفرس في الظلام.. والظاهر أن الروح الشريرة التي قادت "**بوليكي**" إلى ارتكاب فعلته الشنيعة، والتي كان كل من في مساكن العبيد يشعرون بوجودها- في تلك الليلة- قد بسطت جناحها عبر القرية إلى الكوخ الذي كانت فيه النقود التي استخدمتها في القضاء على "**بوليكي**".. ومهما يكن الأمر، فقد

أحس "**دوتلوف**" بوجود الروح الخبيثة، فاضطرب، ولم يعد في وسعه أن ينام، ولا أن ينهض. وبعد أن لاحظ الشيء الذي لم يستطع أن يتبينه تمثل "**إيليشا**" وقد أوثق كتافه، ووجه "**أكسينيا**" ورثاءها الطلق، وتذكر "**بوليكي**" ويديه اللتين تأرجحتا!

وفجأة، خيل للشيخ أن شخصا مر بجوار النافذة، فقال لنفسه: "من عساه يكون؟ أيكون شيخ القرية وقد أقبل مبكرا يحمل مذكرة لي؟". وسمع خطوة في الردهة، فساءل نفسه: "كيف فتح الباب؟ أو لم تضع العجوز المزلاج، عندما عادت من الردهة؟

وبدأ الكلب يعوي في فناء الدار، والروح الشريرة- كما حدس الشيخ فيما بعد- تخطو في الردهة، وكأنها تبحث عن الباب. ثم مرّت، وبدأت تتحسس الجدار، وتعثرت في وعاء فوقع على الأرض محدثا صوتا. ثم عادت تتحسس، وكأنها تبحث عن اللسان الذي يغلق الباب. وأمسكت باللسان ورفعته.. وسرت في جسد الشيخ قشعريرة. ورفعت الروح الخبيثة اللسان ودخلت متخذة شكل رجل.. وأدرك "**دوتلوف**" أنها الروح الشريرة، فحاول أن يرسم الصليب على صدره، ولكنه لم يقو.. وسار الشبح إلى المنضدة التي كانت مكسوة بغطاء، فجذبه وألقاه على الأرض، وشرع يصعد إلى قمة الفرن! وأدرك الشيخ أن الروح الخبيثة اتخذت شكل "**بوليكي**" وقد كشّر عن أنيابه، وراحت يداه تتأرجحان حوله.. وصعد ثم ارتمى على صدر الشيخ، وبدأ يخنقه!

وقال "**بوليكي**":

- إن النقود لي

فحاول "**سمعان**" أن يقول:

- دعني.. لن أمسها!

ولكنه لم يقو.. وأخذ "**بوليكي**" يثقل عليه، وكأنه جبل صلد. وكان "**دوتلوف**" يعرف أنه لو استطاع أن يردد أدعية، لخلت الروح الخبيثة عنه، وكان يعرف أية أدعية يجب أن يتلو، ولكنه لم يستطع أن ينطق.. وأرسل حفيده- الذي كان ينام إلى جواره- صرخة عالية، وشرع يبكي، فقد دفعه جده إلى الحائط، وراح يضغطه فيه. وفكّت صرخة الطفل عقدة لسان الشيخ، فانطلق:

– لينهض الرب..

فبدأ ثقل الشبح يخف.. "وليتفرق شمل أعدائه!" وهبط الشبح عن الفرن، وسمع "**دوتلوف**" صوت ارتطام قدميه بالأرض، فمضى يردد تباعا كل ما كان يعرف من صلوات.. وسار الشبح إلى الباب، مارا بالمائدة. وصفق الباب خلفه فهزّ الكوخ بأسره. ومع ذلك فقد ظل الجميع نياما، عدا الجد والحفيد. فقد كان الجد يتمتم بالصلوات وهو يرتجف، بينما كان الحفيد يرهق نفسه بالبكاء، والنوم يغالبه، وقد ازداد التصاقا بجده.

*****

وعاد الهدوء يسيطر على الكوخ، فظل الشيخ راقدا في مكانه. وصاح ديك من خلف الجدار، بجانب أذن "**دوتلوف**".. وسمع نقنقة الدجاج، وصوت دويك يحاول أن يرد على الديك الكبير، دون أن يوفق. وتحرك شيء على ساق الشيخ.. وإذا به قطة ما لبثت أن قفزت إلى الأرض دون أن تحدث صوتا، وراحت تموء بجوار الباب. ونهض الشيخ ففتح النافذة، وإذا الطريق مظلمة موحلة. وكان مقدم العربة قريبا من النافذة. ورسم الرجل الصليب على صدره، ثم خرج حافيا إلى فناء الدار، حيث كانت الخيل. وكان من السهل أن يتبين المرء أن الشبح قد مر بالمكان، فإن الفرس التي وضعت من عهد قريب، كانت تقف إلى جوار وعاء به علف، وقد لفّت الحبل الذي ربطت به حول ساقها، وراحت تنتظر أن يأتي صاحبها فيخلصها. أما رضيعها، فقد تعثّر وسقط على كوم من الروث. فانهضه الشيخ وأقامه على أقدامه وخلص الفرس وقدّم لها غذاء، ثم عاد إلى الكوخ.

واستيقظت العجوز وأشعلت فتيلا، فقال لها:

– أيقظي الولدين، فإني ذاهب إلى المدينة!

ثم تناول شمعة رفيعة كانت أمام أيقونة، فأشعلها، وهبط بها في الفراغ الذي كان أسفل المخزن. وعندما صعد ثانية، كانت الأضواء تلوح في نوافذ جميع الدور المجاورة، إذ استيقظ الشباب متأهبين للعمل، وأخذت النسوة يرحن ويجئن بدلاء اللبن. وكان "**أجنات**" يربط الجواد إلى إحدى العربات، بينما كان الابن الثاني يعنى بتشحيم عجلات

عربة أخرى. ولم تعد الزوجة الشابة تندب حظها، بل نظفت نفسها، ولبست ثوبا نظيفا، وربطت شالا حول رأسها، وجلست تنظر ريثما يحين الوقت للذهاب إلى المدينة كي تودع زوجها.

وبدا الشيخ متجهما، رصينا، فلم ينبس ببنت شفة لأحد، بل ارتدى خير سترة لديه، وشدّ حزامه، وتهيأ للذهاب إلى "**ايجور ميخايلوفيتش**" ونقود "**بوليكي**" في صدر معطفه، وقال لابنه الذي كان يدير العجلات حول محوريها بعد أن كساهما بالشحم:

– لا تتلكأ، فلسوف أعود بعد دقيقة.. وتأكد من أن كل امرئ على أتمّ استعداد!

ووجد وكيل أعمال السيدة قد استيقظ لتوه، وأخذ يحتسي الشاي، ويتخذ استعداده ليذهب– هو الآخر– إلى المدينة ليسلم السلطات مجندي الضيعة.. وبادره قائلا:

– إنني أريد أن أفتدي فتاي من الخدمة العسكرية يا "**ايجور ميخايلوفيتش**". فكن كريما! لقد قلت منذ أيام أنك تعرف شخصا في المدينة يرغب في التطوع، فاذكر لي كيف أبرم الأمر.

– ولماذا انتهيت إلى هذا القرار؟

– لم يكن بد من ذلك يا "**ايجور ميخايلوفيتش**"، فإني آسف على الفتى. إنه ابن أخي على أية حال، ومهما يكن من أمره. إنني آسف عليه.. إن المال سبب كثيرا من الخطايا. وانحنى حتى ساوى رأسه وسطه. ووقف "**ايجور ميخايلوفيتش**" مفكرا، وهو يمص شفتيه محدثا صوتا، كما كان يحلو له في مثل هذه المناسبات. حتى إذا تدبر الأمر، كتب ورقتين، وأخبر الشيخ بما ينبغي أن يفعل في المدينة، وكيف يفعله.. وعندما عاد "**دوتلوف**" إلى داره، كانت زوجة "**إيليشا**" الشابة قد انطلقت مع "**أجنات**"، وكانت الفرسة السمينة القوية تقف مشدودة إلى عربة بجوار الباب الخارجي. فاقتطع فرعا من شجرة، وأحكم سترته حول جسده، وارتقى العربة، ثم ساط الفرس بفرع الشجرة، فجعلها تجري مسرعة، حتى أن جنبيها لم يلبثا أن هبطا، فقد كان

التفكير في أن الفرصة قد تضيع، وأن "**إيليشا**" قد يصبح جنديا، وتظل نقود الشيطان في حوزته.. كان التفكير في هذا يضنيه!

ولن أسهب في وصف كافة ما فعل "**دوتلوف**" في ذلك الصباح، وإنما أكتفي بأن أقول أنه كان سعيد الحظ إلى درجة عجيبة. فقد كان لدى الرجل- الذي أسلمه "**ايجور ميخايلوفيتش**" رسالة إليه- متطوع على أتم الأهبة، وكان مدينا بثلاثة وعشرين روبل فضيا، وقد أقرّ مجلس التجنيد صلاحيته، وكان سيده يطلب أربعمائة روبل فضي في مقابل تطوعه للخدمة العسكرية بدلا منه، وقد ظل شخص من المدينة يحاول إقناعه- طيلة الأسابيع الثلاثة الأخيرة- بأن يقبل ثلاثمائة روبل.. وحسم "**دوتلوف**" الأمر بكلمتين:

- هل تقبل ثلاثمائة وخمسة وعشرين؟

وبسط يده. ولكن مظهره كان ينم عن أنه مستعد لأن يدفع مزيدا، فلم يمد السيد يده، وأصرّ على الأربعمائة روبل. فقال "**دوتلوف**":

- أو لن تقبل ثلاثمائة وربع المائة؟

وأمسك بيسراه يمنى الرجل، يعدها كي يطبق عليها بيمناه مصافحا، إشارة إلى الاتفاق. ولكنه ما لبث أن طوّح بيد الرجل بأقصى قوته، قائلا وهو يدبر عنه:

- أو لست تقبل؟ حسنا، ليكن الله معك!

وصمت لحظة، ثم استطرد قائلا:

- يبدو أن لابد من هذا.. خذ ثلاثمائة ونصف المائة.. هيا أحضر إذن التسريح، وهات الشاب. وهاك ورقتين من فئة العشرة روبلات كعربون.. أيكفيك هذا؟

وفك "**دوتلوف**" حزامه، وأخرج النقود. ومع أن الرجل لم يسحب يده، إلا أنه لم يبد قبولا تاما، متوقعا أن يزيد "**دوتلوف**" من المبلغ. ولكن هذا راح يردد، وهو ممسك بالنقود:

- لا ترتكب إثما.. كلنا إلى الموت يوما!

وراح يخفف من لهجته، ليغري الرجل ويطمئنه، فما لبث هذا أن قال:

– ليكن!

وصافح يد "**دوتلوف**"، وشرع يدعو الله كي يبارك الصفقة، قائلا:

– ليهبك الله الحظ!

وسرعان ما أيقظا المتطوع، وفحصاه، ثم رافقاه إلى إدارة التجنيد. وكان المتطوع مرحا، وقد طلب قدرا من "الروم" لينتعش، فمنحه "**دوتلوف**" بعض النقود لذلك. ولم يخنه جلده إلا عندما بلغوا ساحة مجلس التجنيد. وتقدم السيد والمتطوع، فوقفا طويلا في بهو المجلس.. وكان السيد في عباءة شديدة الزرقة، والمتطوع في سترة قصيرة من جلد الغنم، وقد ارتفع حاجباه، وراحت عيناه تحملقان في الفضاء.. وظلا طويلا يتهامسان، ويحاولان الوصول إلى مكان معين، ويبحثان عن شخص معين.. ولأمر ما، كانا يخلعان قلنسوتيهما وينحنيان لكل كاتب صادفهما، ثم أنصتا باهتمام إلى قرار حمله إليهما أحد الكتبة، من معارف السيد. وبدا كل أمل في إنجاز المهمة في ذلك اليوم يتبدد، وعاد المتطوع يزداد مرحا وطربا. وفجأة، رأى "**دوتلوف**" أمامه "**ايجور ميخايلوفيتش**"، فتشبث به لفوره، وشرع يتوسل إليه، وينحني أمامه، وساعده "**ايجور ميخايلوفيتش**" بهمة، فلم تحن الساعة الثالثة حتى كان المتطوع قد اقتيد– لدهشته واستيائه– إلى قاعة الفحص.. وفي غمرة المرح العام– الذي استولى على الجميع، من العسس حتى الرئيس دون أن يدري له داعيا– خلعت عنه ثيابه، وألبس ثياب المجندين، وحلق شعره، وسيق إلى الباب.. وبعد خمس دقائق، أحصى "**دوتلوف**" النقود للسيد، وتسلّم أمر تسريح ابن أخيه، فودّع المتطوع وسيده، وأسرع إلى حيث كان مجندو "**بوكروفسك**".

وكان "**إيليشا**" وزوجته الشابة يجلسان في ركن المطبخ، فما إن أقبل الشيخ حتى أمسكا عن الكلام، وتطلعا إليه في توجس، وإن بدا أنهما كانا يكبحان مشاعرهما. وأدّى الشيخ صلاة– إرضاء للعادة التي شغف بها– ثم فكّ حزامه، وأخرج منه ورقة، ونادى إلى الحجرة كلا من ابنه الأكبر "**أجنات**"، وأم "**إيليشا**" اللذين كانا في فناء الدار. وتقدّم بعد ذلك من ابن أخيه، فقال له:

– لا تأثم يا "**إيليشا**" .. لقد آذيتني– ليلة الأمس– بكلمة .. أفلست أشفق عليك؟ إنني لأذكر كيف أن أخي تركك لي، فهل كنت أدعك تأتي إلى هنا لو كان في مقدوري أن أحـول دون ذلك؟ لقـد أرسل الله لي حظا، ولن أضن به عليك. هاك .. خـذ هذه الورقة!

ووضع على المنضدة أمر التسريح، وسوّى أطراف الورقة بأصابع متصلبة، متوترة .. وأقبل من الفناء فلاحو "**بوكـروفـسك**"، وأتباع صاحب الخان، بل والأغراب، وقد حدسوا جميعا ما كان يجري. ولكن أحدا لم يقطع على الشيخ حديثه الوقور. فمضى يقول:

– هاك الورقة! لقد دفعت من أجلها أربعمائة روبل فضي، فلا تلم عمك مرة أخرى!

ونـهـض "**إيليـشـا**" من مجلسه، ولكنه ظل صامتا، لا يدري ماذا يقول، وقد راحت شفتاه ترتجفان انفعالا. وأقبلت أمه العجوز، فكادت ترتمي على صدره باكية، لولا أن أشار لها الشيخ كي تبتعد، وواصل حديثه قائلا:

– لقد آذيتني– ليلة الأمس– بكلمة .. ولقد طعنت فؤادي بتلك الكلمة. وكأنها سكين! لقد تركك أبوك المتوفى في رعايتي، فكنت لي بمثابة ابن، وإذا كنت قد غبنتك في كل شيء فكل حي يأثم .. أليس كذلك أيها المسيحيون الأتقياء؟

وتلفت إلى الفلاحين الذين أحاطوا بالمكان. ثم استطرد:

– ها هي ذي أمك، وزوجتك، وأمر تسريحك. ولست بنادم على النقود، وإنما .. اغفر لي من أجل المسيح!

وجثا على ركبتيه، رافعا أطراف معطفه وركع على الأرض أمام "**إيليشا**" وزوجته. وحاول الشابان جهدهما أن يمنعاه، فلم يمتنع حتى مست جبهته الأرض. وإذ ذاك نهض قائما ..

وبكت أم "**إيليشا**" وزوجته فرحا، وانسابت من الجمع كلمات الإعجاب والتقدير، فقال شخص:

– هكذا الإنصاف .. هذه هي الطريقة التي ترضي الله!

وقال آخر:

– ما المال؟ إنك لا تملك أن تبتاع امرءا بالمال!

وقال ثالث:

– وما السعادة.. ما من خلاف في أن الرجل منصف عادل!

ولم يسكت عن التحبيذ سوى الفلاحين اللذين كانا مسوقين إلى أداء الخدمة العسكرية، فقد انسحبا إلى فناء النزل.

*****

بعد ساعتين، انطلقت عربتا "**دوتلوف**"، مجتازتين. أطراف المدينة، وقد جلس الشيخ و"**أجنات**" في الأولى، وراحت تجرّها الفرس السمينة السمراء، التي تهدل جنباها، وتفصد العرق من عنقها.. وكانت تهتز خلفهما خيوط علق بها بعض الخبز الذي صيغ في أشكال طريفة، والذي كان الفلاح يعتز به كهدية لأسرته، في عودته من المدينة.. أما العربة الأخرى– التي لم يكن ثمة من يمسك أعنة جوادها– فقد جلست الزوجة الشابة، وحماتها، وقد لفتا رأسيهما في شالين، وبدا عليهما الفرح والهناء. وكانت الأولى تمسك– تحت مريلتها– بزجاجة من الشراب. وجلس "**إيليشا**" القرفصاء، موليا الحصان ظهره– وقد اشتد احمرار وجهه، وراح يقضم لقما من رغيف، وهو لا يكف عن الكلام. واندمجت الأصوات، وقرقعة العجلات على أرض الطريق الحجرية، وصهيل الجوادين، في لحن مرح منسجم.. وأخذ الجوادان يضاعفان من سرعتهما، وهما يذبان الهواء بذيليهما.

وقد لجّ بهما الحنين إلى البيت.. بينما كان المارة– من مشاة وركوب– يلتفتون ليتأملوا الأسرة السعيدة!

وما إن بارح آل "**دوتلوف**" المدينة، حتى صادفوا جماعة من المجندين، وقف فريق من أفرادها في حلقة أمام حانة. وكان أحد المجندين يعزف على "البلاليكا" بشدة، وقد بدا وجهه غير عادي، كما هي وجوه المجندين عندما يحلق شعر مقدم رؤوسهم.. بينما راح

آخر يرقص في وسط الحلقة، وهو عاري الرأس، وقد أمسك بزجاجة من الشراب في يده. واستوقف "**أجنات**" فرسه، وهبط ليحكم ربط أجزاء سرجها. وأخذ آل "**دوتلوف**" جميعا يتأملون الراقص في فضول، وإعجاب، وطرب. ولم يلح على المجند أنه رأى أحدا، ولكنه أحس بالإعجاب العام فزاده هذا إقبالا وخفة. وراح يرقص بشدة، وقد عقد حاجبيه، وتضرج وجهه، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة فقدت كل معنى. وكان يغمز بعينه إلى عازف "البلاليكا" الذي شرع يعزف بحرارة أشد، ويداعب كل الأوتار، بل ويدق بعظام أصابعه على ظهر الآلة. وكان المجند يقف لحظات، ولكنه يبدو- رغم وقوفه- كما لو كان مستمرا في الرقص. ثم شرع يهز كتفيه في بطء. وفجأة دار حول نفسه، وقفز في الهواء، مطلقا صرخه عالية، ثم هبط، فأقعى، وبسط إحدى ساقيه، واتبعها بالأخرى. وضحك الصبية، وهزت النسوة رؤوسهن، بينما ابتسم الرجال إعجابا. وكان ثمة "جاويش" مسن وقف ساكنا، وكأنما كانت نظراته تقول:

- أو تظنون أنه رائع.. لقد ألفنا هذه الرقصة وحذقناها!

وصاح العازف وهو يشير إلى "**دوتلوف**":

- اسمع يا "**اليخا**".. هاك كفيلك!

فهتف "**اليخا**":

- أين؟ أهلا بك يا أعز صديق!

كان هو عين المجند الذي كان "**دوتلوف**" قد دفع المال ليحل محل ابن أخيه في الجنديه. وتقدم مترنحا على ساقيه الكليلتين، وقد رفع زجاجة الشراب فوق رأسه، وتحرك نحو العربة، وهو يصيح في العازف:

- هات كوبا يا "**ميشكا**"! أيها السيد! أيها الصديق الأعز! يا له من سرور!

وأسند رأسه الكليل إلى حافة العربة، وشرع يدعو الرجال والنساء إلى الشراب. فشرب الرجال، وأبت النسوة.. وكانت ثمة امرأة تبيع بعض المأكولات- واقفة بين الحشد- فلمحها "**اليخا**"، وأمسك بصحفتها، فأفرغ كل محتوياتها في العربة، وصاح في صوت خنقته العبرات، وهو يخرج كيس نقوده، ويطوح به إلى "**ميشكا**":

– سأدفع، فلا تخافي أيتها اللعينة!

ووقف مسندا مرفقيه إلى العربة، متأملا الجالسين فيها من خلف دموعه، ثم قال:

– أين الأم.. أهذه أنت؟ يجب أن أكرمك!

ووقف يفكر لحظة، ثم دسّ يده في جيبه، وأخرج منديلا جديدا، وأسرع فخلع منديلا آخر كان قد لفه حول وسطه– تحت سترته– ووشاحا أحمر كان يلفه حول عنقه، وكورها جميعا، ثم ألقى بها في حجر العجوز، وهو يقول بصوت كان يحتبس تدريجا:

– إليك! إنني أقدمها جميعا لك!

فقالت العجوز لـ"**دوتلوف**" الذي أقبل من عربته:

– لماذا كل هذا؟ انظر طيبة هذا الفتى!

وكان "**اليخا**" قد سكن تماما، وبدا مسلوب الحواس، ولاح كأنه يوشك أن ينام. وأخذ ينكس رأسه رويدا، وهو يتمتم:

– إنما أنا ذاهب للجندية من أجلك.. من أجلك أنا ذاهب للهلاك! هذا هو السبب في أنني أعطيك هذه الهدايا!

وصاح واحد من وسط الجمع:

– أعتقد أن له هو الآخر أما! يا له من ساذج! وا أسفاه عليه!

فرفع "**اليخا**" رأسه، وقال:

– إن لي أمّا.. ولي أب كذلك، وقد تخلى عني الجميع.

ثم تحول إلى أم "**إيليشا**" قائلا:

– اسمعي أيتها العجوز، لقد منحتك هدايا، أنصتي لي بحق السماء!

اذهبي إلى قرية "**فودنو**"، وسلي عن العجوز "**نيكونوفنا**" إنها أمي.. سلي عن العجوز "**نيكونوفنا**" في الكوخ الثالث، من آخر الصف، بالقرب من البئر الجديدة. وقولي لها إن ابنها "**اليخا**".. هل فهمت! اعزف أيها الموسيقي!

وتمتم بشيء غير مسموع، ثم عاد يرقص لتوّه، وهو يطوح بالزجاجة وما تبقى فيها من شراب إلى الأرض. وصعد "**أجنات**" إلى عربته، وهمّ بأن يستأنف السير، فقالت

العجوز للمجند، وهي تلف عباءتها حولها:

- وداعا! ليباركك الرب!

فتوقف "**اليخا**" فجأة، وصاح وهو يهز قبضتيه في وعيد:

- اذهبي إلى الجحيم! لعلك أمك..

ورسمت أم "**إيليشا**" الصليب متعوذة. وانطلقت العربتان. ووقف "**اليخا**" في وسط الطريق بقبضتين مشدودتين، ونظرة مهتاجة، وراح يسب الفلاحين بكل ما أوتي من سباب.

وتهدّج صوته، ثم ارتمى على الأرض، حيث كان يقف! وسرعان ما بلغ آل "**دوتلوف**" الحقول، ولم يعودوا يبصرون جماعة المجندين. وبعد أن قطعوا أربعة أميال، هبط "**أجنات**" من عربته- التي كان أبوه قد نام فيها- وسار إلى جوار عربة "**إيليشا**"..

واقتسم مع الشاب زجاجة شراب كانا قد اشترياها من المدينة.. وإن هي إلا برهة، حتى شرع "**إيليشا**" يغني، فانضمّت إليه المرأتان، بينما راح "**أجنات**" يصيح طربا. ومرت بهم عربة أنيقة، كانت تنطلق في خفة، فصاح الحوذي في جياده منتشيا، والتفت مساعده إلى الرجال والمرأتين- الذين كانوا في العربتين- وغمز بعينه، بينما كانوا يهتزون مع ارتجاج العربتين، وقد احمرت وجوههم، وهم ماضون في أغنيتهم الطروب!

تمت

فارسان ... وعذراء !

تأليف الفيلسوف العظيم

ليو تولستوي

الإسم الأصلي للكتاب

تأليف

Léo TOLESTOYE

تمهيد

في أوائل القرن التاسع عشر، عندما لم تكن ثمة بعد سكك حديدية، ولا طرق مرصوفة، ولا إضاءة بالغاز، ولا شموع من "الستيرين"(١)، ولا مركبات منخفضة ذات وسائد مجهزة بزنبركات، ولا أثاث بدون طلاء لامع، ولا شباب مغرور ذو عوينات (نظارات)، ولا فيلسوفات من دعاة التحرر، ولا أي من "غادات الكاميليا" الفاتنات اللاتي يوجدن في أيامنا بكثرة.. في تلك الأيام الساذجة، عندما كان المرء- إذا سافر من "**موسكو**" إلى "**بطرسبورج**" في مركبة مغلقة، أو عربة مجهّزة بملء مطبخ من المؤن المعدة- يقضي ثمانية أيام في طريق لينة الأرض، أو متربة، أو موحلة، معتمدا على شرائح اللحم المقلوة، وعلى الكعك العادي، وعلى أجراس الزحافات.. وعندما كان من الضروري إصلاح فتائل الشموع المصنوعة من الشحم، والتي كانت تلتف حولها الجماعات العائلية، مؤلفة من عشرين، وثلاثين شخصا، في ليالي الخريف الطويلة.. وعندما كانت قاعات الرقص تضاء بثريات الشمع الشحمي أو الشمع المصنوع من عنبر الحوت.. وعندما كانت قطع الأثاث ترتب في نظام هندسي دقيق.. وعندما كان آباؤنا لا يزالون شبانا، لا يكتفون بإثبات ذلك بمجرد غياب التغضنات والشعر الأشيب، وإنما بخوض المبارزات من أجل امرأة، وبالاندفاع من الركن المقابل من حجرة ما لالتقاط منديل ضئيل الحجم أسقط عمدا أو عفوا.. وعندما كانت أمهاتنا يرتدين أثوابا مرتفعة خط الوسط، وأكماما هائلة منتفخة، ويتخذن القرارات في الشؤون العائلية عن طريق سحب القرعة (الاقتراع بالورق المطوي).. وعندما كانت "غادات الكاميليا" الفاتنات يختبئن من ضوء النهار في مساكن الماسونية، و"المارتانية"، و"التوجينبوند"(٢)، في تلك الأيام الطيبة.. أيام الميلوردوفيتشيين(٣)، والدافيدوفيين(٤)، والبوشكينيين(٥) في تلك الأيام، عقد اجتماع في مدينة (ك....) التابعة للحكومة، حضره أصحاب الأراضي، وأجريت فيه انتخابات الأعيان(٦)..

---

(١) الستيرين مادة كيميائية استخدمت في صناعة الشموع بدلاً من الشحم. (٢) كانت الماسونية الحرة جماعة سرية في "روسيا" غرضها الأصلي الإصلاح الخلقي على أسس من المساواة والأخوة العامة وقد بدأت كحركة دينية، ثم انقلبت إلى حركة سرية، واضطهدت في أوائل القرن التاسع عشر. وكانت "المارتانية" جماعة من الماسونيين الروس. إنتسبوا إلى الفيلسوف الصوفي الفرنسي "لوي كلود سان مارتان". أما "التوجينبوند" فكانت جمعية وطنية ألمانية إتخذت متلاً "روسيا" للشباب المتحمس ولعبت دوراً رئيسياً في التهيئة لحرب سنة ١٨١٣ (٣) نسبة إلى "م. هـ ميلورادوفيتش" الذي أبلى بلاء حسناً في الحرب ضد "نابليون" وصار حاكماً عاماً لـ"بطرسبورج" واغتيل عندما حاول قمع فتنة ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٨٢٥ (٤) نسبة إلى "د.ف. دافيدوف" وكان شاعراً ذا شهرة شعبية ورعيماً لفرق العصابات في حرب سنة ١٨١٢ (٥) نسبة إلى "أ.س. بوشكين" أعظم شاعر روسي إذ ذاك.. (٦) إنتخابات كانت تجري بين الأعيان من أصحاب الألقاب، والأغنياء وأصحاب الأراضي.

- ١ -

– لا بأس.. فإن قاعة الجلوس (الصالون) تغني!

قال هذه الكلمات ضابط شاب في معطف من الفراء، وقلنسوة كتيبة الفرسان الخفيفة، وقد غادر لفوره زحافة خط البريد، وهمّ بأن يدخل أحسن فندق في مدينة (ك....).

وقال خادم الفندق، الذي استطاع أن يعلم من تابع الضابط أن اسمه الكونت "**توربين**"؛ ومن ثم فقد راح يخاطبه بـ:"صاحب السعادة" :

– لقد حضر الاجتماع عدد هائل يا صاحب السعادة. على أن مالكة أراضي "**أفريموفو**" قالت إنها راحلة الليلة، ومعها بناتها؛ ومن ثم فإن الحجرة رقم ١١ ستكون تحت أمركم بمجرد رحيلهن!

وراح يخطو بخفة أمام "الكونت" وهو لا يكف عن التلفت حوله. وفي قاعة الجلوس العامة، وإلى منضدة صغيرة– تحت صورة مغبرة بالحجم الطبيعي للإمبراطور "**الكساندر الأول**"– جلس عدد من الرجال، يشربون، ولعلهم كانوا من أعيان المنطقة.. بينما جلس في الطرف الآخر من القاعة بعض الرحالة.. تجار في معاطف زرقاء، مبطنة بالفراء! ودخل الفارس القاعة مناديا "**بلوخر**".. وهو كلب مغبر اللون، هائل الحجم، أحضره معه. وخلع "الكونت" معطفه الذي كانت ياقته لاتزال مكسوة بالصقيع الأبيض، وصاح يطلب الشراب، وجلس إلى المائدة في سترته القوزاقية الحريرية الزرقاء. واندمج في حديث مع السادة الموجودين. وسرعان ما اجتذبتهم إليه طلعة القادم المليحة الصريحة، فقدموا إليه قدحا من الشراب. واحتسى الكونت قدحا من الشراب– بادئ ذي بدء– ثم طلب زجاجة أخرى من الشراب، ليكرم معارفه الجدد. وأقبل سائق الزحافة ليسأل الكونت مكافأة (بقشيشا)، فصاح الكونت :

– **ساشكا**! أعطه شيئا!

وخرج السائق مع "**ساشكا**"، ولكنه عاد ثانية والنقود في راحته، وهو يقول :

– انظر يا صاحب السعادة.. ألم أبذل قصارى جهدي من أجل فخامتكم؟ ألم تعدني بنصف روبل؟ ولكنه لم يعطني سوى ربع روبل!

– أعطه "روبل" يا "**ساشكا**"!

فغضّ "**ساشكا**" بصره، ونظر إلى قدمي السائق، ثم قال بصوت منخفض:

– يكفيه ما أخذ.. ثم إنه لم تعد معي نقود!

وجذب الكونت من حافظة نقوده ورقتين ماليتين من فئة الخمسة روبلات، كانتا كل ما احتوته الحافظة، فأعطى إحداهما للسائق الذي قبّل يده وانصرف.

وقال الكونت:

– لقد استنزفت كل ما كان معي.. هذه الروبلات الخمسة هي آخر ما معي!

فقال أحد النبلاء:

– هكذا عادة ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة يا كونت! وكان يبدو من شاربيه، وصوته، وبعض الحركات المتحررة من ساقيه، أنه كان من الفرسان المتقاعدين. وما لبث أن تساءل:

– أتراك ستقيم هنا بعض الوقت يا كونت؟

– لابد لي من الحصول على بعض المال. وما كنت لأنزل هنا إطلاقا، لولا هذا.. ومع ذلك، فلا غرف يمكن الحصول عليها في هذا النزل اللعين.. ألا فليتخطّفهم الشيطان!

فقال الضابط الفارس المتقاعد:

– ألا اسمح لي يا كونت.. هلا شاطرتني غرفتي؟ إن غرفتي هي رقم ٧، فإذا لم يسؤك هذا، فلك أن تشاطرنيها الليلة.. ثم، ألا تمكث معنا يومين؟ ومن المصادفات أن "ماريشال طبقة النبلاء" يقيم الليلة حفلة راقصة. ولسوف تزيده سعادة إذا أنت ذهبت؟

وقال آخر، وكان شابا وسيما:

– أجل يا كونت، ألا امكث معنا.. من المؤكد أن ليس هناك من داع لتعجّل الرحيل! إنك لتعلم أنها لا تحدث إلا مرة كل ثلاث سنوات.. أعني الانتخابات. وجدير بك أن تلقي نظرة على سيداتنا الشابات– على الأقل– يا كونت!

فنهض الكونت قائلا:

- "**ساشكا**". أعد ثيابا داخلية نظيفة، فإنني ذاهب إلى الحمام[١]. وربما ألقيت نظرة على حفلة الماريشال بعد ذلك.

ثم نادى الساقي وهمس إليه بكلمات، أجاب عنها هذا، وهو يبتسم:

- إن هذا أمر يمكن تدبيره![٢]

وخرج الساقي.. وخرج الكونت. وما لبث أن صاح من الردهة:

- إذن فسآمر بنقل حقيبتي إلى حجرتك أيها الزميل العزيز!

فصاح ضابط الفرسان المتقاعد:

- أرجو أن تفعل، فلسوف يسعدني هذا كل الإسعاد!

وهرع إلى الباب مردفا:

- الحجرة رقم ٧.. لا تنس!

*****

وعندما لم يعد وقع خطى الكونت مسموعا، عاد الضابط الفارس المتقاعد إلى مكانه، فجلس بجوار موظف حكومي كان بين الحضور، وحملق في وجهه مباشرة، وقال وعيناه تبتسمان:

- إنه نفس الرجل، كما ترى!

- كلا!

- أؤكد لك أنه هو.. نفس ضابط كتيبة الفرسان الخفيفة، البارع في المبارزة.. **توربين** الشهير.. ولابد أنه عرفني.. أراهنك- على أي مبلغ شئت- أنه عرفني. وكيف لا؟ لقد قضينا في اللهو معا ثلاثة أسابيع متواصلة، عندما كنت في "**لبيدياني**"، حيث نعمنا بألعاب الفروسية[٣]. وكان ثمة شيء واحد، وفق فيه كل منا.. هو وأنا.. إنه لشاب

---

(١) كانت الحمامات في "روسيا" على نمط ما نعرفه اليوم بـ"الحمام التركي" مؤسسات عامة يذهب إليها المرء حيث يتعرض للبخار لطرد العرق.
(٢) كان من المألوف ان يقترن الحمام بامراة وهذا ما اتفق عليه الكونت مع ساقي الفندق. (٣) "لبيدياني" بلدة في مقاطعة "تامبوف" اشتهرت باسواق الخيل ومهرجانا الفروسية

بديع. أليس كذلك؟

– إنه لشاب رائع.. وإن أخلاقه لتشرح الصدر! فهو لا يبدي ذرة من.. ماذا يسمونه؟

وقال الشاب الوسيم:

– ما أسرع ما توثق الودّ بيننا، وزالت الكلفة.. إنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين.. أتراه تجاوزها؟

– آه، كلا.. إنه يبدو هكذا، ولكنه فوق هذه السن. إن على المرء أن يعرفه عن كثب، ليدرك هذا الأمر، كما تعلم.. من الذي سلب "**ميجونوفا**" مجده؟ إنه هو! وهو الذي قتل "**سابلين**". وهو كذلك الذي أمسك بساقي "**ماتنئيف**" وطوح به من النافذة.. وهو الذي ربح ثلاثمائة ألف روبل من الأمير "**نيستوروف**" إنه لشيطان مريد، جسور في كل شيء: مقامر، ومبارز، وفاتن يغوي الحسان.. إنه لدرة في كتيبة الفرسان الخفيفة.. لؤلؤة حقيقية.. إن الشائعات التي تحوم حولنا لا تقاس بالحقيقية في شيء.. إذا قدر للمرء أن يعرف فرسان الكتيبة الخفيفة على حقيقتهم.. آه، تلك كانت أوقات وانقضت!

وراح الفارس المتقاعد يروي لمحدثه عن فترة للهو قضاها مع الكونت في "**لبيديانى**"، لم يحظ بمثلها، بل وما كان بوسعه أن يحظى بمثلها قط.

ومع ذلك فما كان من الممكن أن تكون قد حدثت.. أولا؛ لأنه لم يكن قد رأى الكونت قبل ذلك اليوم، وقد ترك الجيش قبل أن يلتحق به الكونت بعامين.. وثانيا؛ لأن الفارس المتقاعد لم يخدم في فرقة الفرسان إطلاقا، وإنما ظل أربع سنوات في أدنى مراتب الناشئين في كتيبة "**بليفسكي**"، وقد تقاعد بمجرد أن قدر له أن يحظى برتبة الضابط.. بيد أنه ورث– منذ عشر سنوات– بعض المال، وزار "**لبيديانى**" فعلا، حيث بدّد سبعمائة روبل مع بعض ضباط كانوا قد ذهبوا إلى هناك لشراء خيل.. بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا، فأمر بأن تصنع له بزة رسمية على نمط الزي الخاص بفرسان "الأوغلان"، ذات وشى برتقالي في صدرها، معتزما أن يلتحق بكتيبة من كتائب "الأوغلان". وقد

ظلت هذه الرغبة في الالتحاق بالفرسان، والأسابيع الثلاثة التي قضاها مع الضباط الفرسان في "**لبيدياني**" من أسعد ذكريات حياته وأكثرها تألقا، ومن ثم فقد حول الرغبة- في بادئ الأمر- إلى حقيقة، ثم إلى ذكرى واقعية، وتعود أن يعتقد اعتقادا وطيدا بماضيه كضابط من الفرسان.. وكلها أشياء لم تحل دون أن يكون من أكثر الرجال مكانة، من حيث اللطف والأمانة!

وقال:

- أجل، إن أولئك الذين لم يقدر لهم أن يخدموا في سلاح الفرسان، لا يستطيعون أن يفهمونا إطلاقا!

وجلس في مقعده منفرج الساقين، وكأنه على صهوة جواد، ودفع فكه السفلى في زهو، وشرع يقول بصوت منخفض وقور:

- إنك لتركب على رأس فصيلتك، لا جوادا من الجياد العادية، وإنما شيطانا يتجسد حصانا يقفز متوثبا تحتك، فلا تملك سوى أن تجلس مستهترا، مستخفا.. ويركب قائد الفصيلة مستعرضا فرسانه، فيقول:

- إننا لا نستطيع أن نستغني عنك أيها الملازم.. تفضل بقيادة الفصيلة في طابور استعراضي..

فتقول:

- حسنا!

وهكذا تروح تلف وتدور، وتصيح في زملائك ذوي الشوارب.. آه ليتخطفها الشيطان.. تلك الأيام!

*****

وعاد الكونت من الحمام شديد الحمرة، مبتل الشعر، فمضى مباشرة إلى الحجرة رقم ٧، حيث كان الفارس المتقاعد جالسا في ثوب الغرفة (الروب دي شامبر)، وهو يدخن غليونه، يفكر في سرور- وإن لم يخل من التوجس- في السعادة التي حلت به؛ إذ شاطر "**توربين**" الشهير غرفة.. وكان يقول لنفسه:

– ولكن، هب أنه يمسك بي فجأة، ويجرّدني من ثيابي، ويسوقني إلى أبواب المدينة، ويلقى بي في الجليد.. أو يجللني بالقار.. أو يكتفي بأن..

ثم يستدرك ليسرّي عن نفسه:

– ولكن، لا.. إنه لا يرتضي لنفسه أن يفعل هذا بزميل.

وفي تلك اللحظة، صاح الكونت، وهو يلج الغرفة:

– "**ساشكا**".. أطعم "**بلوخر**"!

وأقبل "**ساشكا**" الذي كان قد تناول زجاجة من الشراب لينعش نفسه من عناء الرحلة، فراح يترنح بما لا يدع شكا في أنه قد ثمل. وصاح الكونت:

– عجبا، أتثمل منذ الآن؟! أكنت تشرب أيها الوغد.. هيا أطعم "**بلوخر**"!

فأجاب "**ساشكا**" وهو يربت ظهر الكلب:

– إنه لن يموت جوعا على أية حال.. ألا انظر كيف أنه ناعم!

– اخرس.. اخرج وأطعمه!

– إنك تهتم بأن يتغذى الكلب.. أما حين يشرب الرجل قدحا، فإنك تؤنبه وتزجره!

فصرخ الكونت بصوت ارتج له زجاج النوافذ.. بل وداخل الخوف– من جرائه– قلب الفارس المتقاعد، بعض الشيء:

– هاي! لسوف أسوطك!

فدمدم "**ساشكا**":

– كان خليقا بك أن تسأل عما إذا كان "**ساشكا**" قد ظفر بلقمة في يومه.. أجل، اضربني ما دمت تفكر في الكلب أكثر مما تفكر في رجل!

ولكنه– عند هذا الحد من دمدمته– تلقّى لكمة فظيعة أصابت وجهه، من قبضة الكونت، فوقع، وارتطم رأسه بحافة الجدار.. وأمسك بأنفه وهو يهرب من الحجرة، ويرتمي على مقعد في الردهة.

وأخذ "**ساشكا**" يزمجر ويئن، مردّدا:

– لقد حطم أسناني! وبإحدى يديه راح يمسح أنفه الذي تفصّد الدم منه، بينما كان

يحكّ- بيده الأخرى- ظهر "**بلوخر**" الذي كان يلعق جسده بلسانه. واستطرد "**ساشكا**" يحدث الكلب:

- لقد حطّم أسناني يا "**بلوخي**"، ولكنه- رغم ذلك- سيدي الكونت، وإني لأخوض النار من أجله.. أجل! فهو.. هو كونتي. أتفهم يا "**بلوخي**"؟ أتريد عشاءك؟ هه؟

وبعد أن ظل مستلقيا ساكنا لبرهة، نهض فأطعم الكلب، ثم سعى إلى خدمة سيده الكونت، وقد أفاق تقريبا من تأثير الشراب، فتهيأ ليقدم له الشاي.

وكان الفارس المتقاعد يقول في تلطف وتقرب، وهو يقف أمام الكونت الذي استلقى في سرير الرجل، ومدّ ساقيه إلى الجدار:

- الحق أنني سأشعر بجرح لكرامتي. فأنت ترى أنني عسكري قديم، و.. زميل إذا جاز لي أن أقول ذلك فلماذا تقترض من أي امرئ آخر، إذا كان يسرني أن أقرضك مائتي روبل؟ إن المبلغ ليس معي بأكمله الآن، وإنما معي منه مائة روبل.. على أنني سأحضر الباقي اليوم.. لسوف تجرح شعوري حقا يا كونت إذا أنت أبيت!

وقال الكونت، وقد أدرك لفوره نوع العلاقات التي كان لابد من أن تقوم بينهما، فدقّ بيده كتف الفارس:

- شكرا، أيها الصديق الحميم! شكرا.. ليكن لك ما شئت إذن، وسنذهب إلى حفلة الرقص، إذا لم يكن من ذلك بد. ولكن، ماذا نفعل الآن؟ حدثني عما أوتيتم في بلدتكم هذه.. أي نوع من الحسان؟ وأي رجال أهل لأن يكونوا زملاء في اللهو؟ وأية مقامرات تعقد؟

فأخذ ضابط الفرسان يبين له أن الحفل سيكون غاصا بكثيرات من المخلوقات البديعة، وأن "**كولكوف**"- الذي أعيد انتخابه قائدا للبوليس- كان خير زميل في اللهو، وإن كانت تعوزه روح ضباط الفرسان الحقة.. كان رجلا رائعا، فيما عدا ذلك، حقا.. كذلك كانت فرقة الموسيقى الغجري "**ايليوشين**" في المدينة تقيم حفلاتها الغنائية- منذ بدأت الانتخابات- بقيادة "**ستيشكا**"، وأن كل امرئ كان يعتزم الذهاب لسماع

أغانيها، بعد الانصراف من دار الماريشال، في تلك الليلة.. ومضى قائلا:

– وهناك كثير من ألعاب المقامرة كذلك.. لسوف يلعب "**لوخنوف**" الورق، وقد أوتي نقودا كثيرة وهو يقيم هنا خلال رحلته.. وقد خسر "**إيلين**"–. وهو حامل العلم في سرية من فرسان "الأوغلان"، ويشغل الحجرة رقم ٨– مبلغا كبيرا أثناء اللعب معه. ولقد شرعا في اللعب في هذه الحجرة بالذات، وأصبحا يلعبان كل ليلة. ويا لـ"**إيلين**" هذا من شاب بديع.. أؤكد لك يا كونت أنه ليس مقترا أو بخيلا، بل إنه ليتخلى عن آخر قميص على جسده، راضيا!

فقال الكونت:

– حسنا، إذن فلنذهب إلى حجرته، ولنر أي نوع من القوم أولئك الذين يلعبون هناك!

وقال الآخر:

– أجل، هيا.. لسوف تتملكهم فرحة الشيطان نفسه!

– ٢ –

لم يكن قد مضى وقت طويل على استيقاظ "**إيلين**"، حامل العلم في كتيبة فرسان "الأوغلان". فقد جلس– في الليلة السابقة– إلى أوراق اللعب في الساعة الثامنة مساء، وراح يخسر باطراد لخمس عشرة ساعة بأكملها.. أي إلى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي. ولقد خسر مبلغا كبيرا، ولكنه لم يعرف مدى ضخامته تماما. فقد كان معه حوالي ثلاثة آلاف روبل من نقوده الخاصة، وخمسة عشر ألفا من الروبلات، من أموال التاج التي امتزجت بأمواله الخاصة منذ مدة طويلة، حتى أصبح يخشى أن يحسب ما معه، حتى لا تتأكد مخاوفه من أن قسطا من أموال التاج قد تبدد!

وكان النهار قد انتصف تقريبا، عندما استسلم للنعاس، فحظي بذلك النوم العميق، الخالي من الأحلام، الذي لا ينعم به سوى الشبان الصغار في السن عقب أن يمنوا بخسارة فادحة. وما إن استيقظ في الساعة السادسة من المساء– في عين الوقت الذي

وصل فيه الكونت **توربين** إلى الفندق- وأبصر الأرض حوله وقد تناثرت عليها أوراق اللعب، وبقايا أقلام الطباشير، ورأى الموائد في وسط الحجرة مجللة بعلامات الطباشير، حتى تذكّر- في جزع- لعب الليلة الماضية، والورقة الأخيرة- وكانت "**فاليه**"- التي خسر عليها خمسمائة روبل.. على أنه لم يكن قد اقتنع بعد تمام الاقتناع بكل هذا، فأخرج نقوده من تحت الوسادة، وشرع يعدها.. وتبين بينها بعض أوراق مالية تنقلت من يد إلى أخرى، فتذكر كل تطورات اللعب.. ولم يكن قد تبقى معه شيء من الثلاثة آلاف روبل التي كانت من ماله الخاص، كما أن حوالي ألفين وخمسمائة روبل من أموال الحكومة كانت قد ولّت.. فلقد قضى "**إيلين**" أربع ليال متوالية، في اللعب!

كان قد أقبل من "**موسكو**"، حيث عهد إليه بذلك المبلغ من أموال التاج، فلما بلغ (ك...) عطله المشرف على مركز البريد [١] بحجة أنه لم تكن هناك جياد. ولكن السبب الحقيقي تمثل في أن المشرف كان على اتفاق مع صاحب الفندق على أن يعطل المسافرين يوما عن مواصلة أسفارهم.. ولقد سر فارس "الأوغلان"، الذي كان شابا في غضارة الصبا، تلقى من والديه- في "**موسكو**"- ثلاثة آلاف روبل ليجهز نفسه للالتحاق بكتيبته.. سر بقضاء بضعة أيام في بلدة (ك...) إبان الانتخابات أملا في أن يمتع نفسه إلى أقصى حد. وكان يعرف سيدا من أصحاب الأرض، ذا أسرة فراح يفكر في زيارته، وفي مغازلة بناته.. وإذا بالفارس المتقاعد يتعرف إليه، في تلك الأثناء، ثم يقدمه- دونما سوء نية- إلى معارفه في قاعة الجلوس العامة، أو القاعة العامة في الفندق، في المساء ذاته.. وكان هؤلاء المعارف هم "**لوخنوف**" وغيره من المقامرين. ومنذ ذلك الحين، عكف ضابط "الأوغلان" على لعب الورق، ولم يعد يسأل مركز البريد عن جياد.. وأصبح أقل رغبة في الذهاب لزيارة صاحب الأرض الذي كان يعرفه.. بل إنه لم يبرح حجرته أربعة أيام بطولها!

وإذ ارتدى ثيابه واحتسى الشاي، سار إلى النافذة. وشعر بميل إلى أن يخرج ويتمشى ويتخلص من الأفكار التي راحت تطارده، فارتدى معطفه وخرج إلى الطريق. وكانت الشمس قد توارت خلف المنازل البيضاء وسقوفها الحمراء، وأخذت الظلمة تزحف..

---

(١) كان البريد ينقل إذ ذاك في عربات وزحافات خاصة، يسمح للمسافرين بأن يسافروا فيها أو بأن يستأجروا الجياد من مركز إلى آخر

وكان الجو دافئا بالنسبة لما هو مألوف في الشتاء، ومع ذلك فقد كانت كسف عريضة من الثلج تتساقط في بطء إلى الطريق الموحلة.. وفجأة غشي الشاب أسى لا يطاق، إذ تذكر أنه نام طيلة النهار الذي أشرف على نهايته.

وقال لنفسه: "إن هذا اليوم الذي يحتضر الآن، لا يمكن أن يسترد ثانية!".. ثم قال لنفسه فجأة: "لقد دمّرت شبابي!".. لم يقلها لأنه فكر حقا في أنه قد دمّر شبابه- فالواقع أن هذا لم يخطر بباله إطلاقا- وإنما قالها لأنها عرضت لذهنه مصادفة.. وعاد يسائل نفسه: "ما الذي ينبغي أن أفعله الآن؟ أأقترض من شخص ما، وأبادر إلى الرحيل؟

ومرّت به في تلك الأثناء سيدة كانت تسير على الرصيف، فقال لنفسه لسبب لم يدره: "ها هي ذي امرأة غبية!". ثم عاد يقول: "ما من أحد هنا أقترض منه.. لقد دمّرت شبابي!".

وبلغ السوق، فإذا بتاجر يقف لدى باب حانوته- في معطف من فراء الثعلب- يجتذب العملاء. ومضى الشاب يقول لنفسه: "لو لم أسحب تلك الثمانية، لكنت قد استطعت أن أن أعوّض خسائري!".. وتبعته متسوّلة عجوز، لا تكف عن الغمغمة.. وظل هو يردد:

- ما من أحد أقترض منه!..

ومر به رجل في معطف من جلد الدب، يسوق عربة.. وكان ثمة شرطي يقف في المركز المعين له.. وراح الشاب يقول لنفسه: "أي عمل غير عادي أستطيع أن آتيه؟ أأطلق النار عليهم؟ لا، إن هذا غباء.. لقد دمّرت شبابي.. آه. ها هي بعض سروج بديعة لأعناق الخيل، وركابات، معلّقة هناك! آه، لو كان بوسعي أن أنطلق في عربة تجرها ثلاثة جياد.. واها للحسان هناك.. لسوف أعود. وسيأتي "**لوخنوف**" عما قليل، ونلعب!

وعاد إلى الفندق، فأخذ يحصي نقوده من جديد.. لا، لم يكن قد أخطأ في شيء- في المرة الأولى- فلايزال ينقص نقود التاج ألفان وخمسمائة روبل.. وقال لنفسه: "سأرمي خمسة وعشرين روبل، ثم أطلب كشف الورق.. ساضاعفها إلى سبعة أمثالها،

ثم إلى خمسة عشر مثلا، ثم ثلاثين، ثم ستين.. ثلاثة آلاف روبل. وإذ ذاك سابتاع أطواق الجياد، وأرحل.. لن يدعني الوغد أفلت.. لقد دمرت شبابي!"

وهذا ما كان يدور في رأس فارس "الأوغلان" عندما دخل عليه "**لوخنوف**" الحجرة وساله وهو يرفع- في تباطؤ- العوينتين الذهبيتين عن أنفه النحيل، ويمسحهما بمنديل حريري أحمر، في عناية:

- هل استيقظت منذ أمد طويل يا "**ميخائيل فاسيليتش**"؟

- لا، بل إنني لم استيقظ إلا من أمد قصير.. لقد نمت نوما عميقا، على غير عادتي!

- لقد وصل أحد ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة، على ما أعتقد.. وقد نزل على حجرة "**زافالشيفسكي**". هل سمعت به؟

- لا، لم أسمع.. ولكن، كيف تعلل عدم وصول أحد إلى هنا حتى الآن؟

- لابد أنهم ذهبوا إلى دار "**برياخين**".. ولن يلبثوا أن يأتوا إلى هنا فورا.

وهذا ما حدث فعلا، فبعد قليل وفد على الحجرة أحد ضباط الحامية- وكان قد اعتاد أن يلازم "**لوخنوف**" دائما- وتاجر يوناني له أنف ضخم أسمر معقوف وعينان سوداوان غائرتان، ورجل سمين منتفخ من أصحاب الأرض، وصاحب مصنع للتقطير اعتاد أن يلعب في كل الأمسيات، وان يراهن بمبالغ رمزية، تتمثل دائما في نصف روبل في كل مرة.. ورغب الجميع في أن يبدأوا اللعب بأسرع ما يمكن، ولكن المقامرين الرئيسيين لم يشيروا إلى الموضوع بشيء، لاسيما "**لوخنوف**" الذي راح يروي- في صوت هادئ للغاية- قصة سرقة وقعت في "**موسكو**". وأخذ يقول:

- تصوروا.. مدينة مثل "**موسكو**" العاصمة التاريخية، والمركز الرئيسي للدولة.. فيها رجال يتنكرون في زي شياطين، وينطلقون في أرجائها مع قطاع الطرق، يرهبون الأغبياء ويسرقون المارة.. هذه هي النهاية! فيم إذن وجود الشرطة؟ هذا هو السؤال!

وانصت فارس "الأوغلان" إلى قصة اللصوص بانتباه. ولكنه ما لبث- عندما ساد الصمت برهة- أن نهض وأمر بهدوء بشراء ورق للعب. وكان صاحب الأرض البدين هو أول المتكلمين، إذ تساءل:

– وبعد يا سادة.. فيم تبديد الوقت الثمين؟ إذا كنا نريد العمل، فلنبدأ!

وقال "اليوناني":

– أجل، فأنت قد انصرفت بكومة من أنصاف الروبلات ليلة أمس، ولهذا فقد أحببت العملية!

وقال ضابط الحامية:

– أعتقد أننا يجب أن نبدأ!

ونظر "**إيلين**" إلى "**لوخنوف**"، فسدد "**لوخنوف**" بصره إليه– في هدوء– وهو يستأنف رواية قصته عن اللصوص الذين تزيوا بزي الشياطين، واصطنعوا لأنفسهم مخالب. وسأل فارس الأوغلان صاحبه:

– هل تتولى (البنك)؟

– ألا ترى أن الوقت جد مبكر؟

فصاح فارس الأوغلان، وقد تضرج وجهه لسبب غير معروف:

– مرحى.. آتوني بشيء للعشاء، فما تناولت بعد شيئا. أيها السادة! زجاجة من الشراب، وبعض مجموعات من أوراق اللعب!

وفي تلك اللحظة، ولج الكونت و"**زافالشيفسكي**" الحجرة. وظهر أن "**توربين**" و"**إيلين**" كانا يتبعان فرقة واحدة، فمال كل منهما إلى الآخر فورا، وتقارعا الكؤوس، واحتسيا الشراب معا، وتوثقت بينهما الألفة والمودة في خمس دقائق! ولاح أن الكونت قد أحبّ "**إيلين**" كثيرا، فقد راح ينظر إليه مبتسما، ويداعبه مازحا بشأن صغر سنه. فقد قال:

– هاكم أوغلاني من الصنف الصحيح.. يا لشاربيه! عجبا أي شاربين هذان!

وكان ما لدى "**إيلين**" من شاربين، لا يتجاوز خطا خفيفا، من زغب أبيض.. وعاد الكونت يقول:

– أحسبك ستلعب؟ حسنا، أتمنى بك حظا يا "**إيلين**" !

ثم أردف وهو يبتسم:

– ما إخالك إلا أستاذا في اللعب!

فـقـال "**لـوخنـوف**"، وهو يمزق غلاف علبة ضمت اثنتي عشرة مجموعة من ورق اللعب:

– أجل.. ولسوف يبدأون اللعب، وستنضم أنت الآخر يا كونت.. أليس كذلك؟

– لا، ليس اليوم، فإني قمين بأن أجردكم جميعا من نقودكم إذا لعبت.. إنني حين أبدأ في "الاهتمام" الصادق باللعب، فإن (البنك) يشرع في التداعي! لقد نظفوا جيوبي في إحدى المحطات القريبة من "**فولوتشوك**"، فقد التقيت هناك بشاب من فرقة المشاة، يزين أصابعه بخواتم.. وأحسب أنه غشاش.. وقد استطاع أن يجردني تماما من نقودي!

فسأله "**إيلين**" :

– ولماذا أطلت المكث في تلك المحطة؟

– إنما جلست هناك أربعا وعشرين ساعة. ولن أنسى قط تلك المحطة اللعينة! ولن ينساني المشرف عليها، هو الآخر..

– وكيف ذلك؟

– لقد وصلت في مركبتي إلى هناك، كما هو معروف. وإذا بالمشرف على المحطة يندفع لاستقبالي– وقد بدا كقاطع الطريق– وبادرني قائلا:

– لا جياد!

وجدير بي أن أخبركم– عند هذه النقطة– أن من عادتي إذا لم أجد جيادا، ألا أخلع معطفي المصنوع من الفراء، وأن أذهب إلى غرفة المشرف... أجل إلى غرفته الخاصة، وليس إلى الغرفة العامة.. وأمرت بأن تفتح جميع النوافذ والأبواب، متعللا بأن جو الغرفة كان مشبعا بالدخان.. أجل هذا ما فعلته هناك. وأنتم تذكرون أي صقيع نزل علينا في الشهر الماضي.. كانت درجة الحرارة حوالي العشرين درجة![1].. وشرع المشرف يجادلني، فلكمت رأسه. وكانت ثمة امرأة عجوز، وبنات، ونسوة أخريات، اشتركن جميعا في إثارة الشغب والتقطن أوعيتهن وأوانيهن وقد عولن على أن يندفعن صوب القرية. فسرت إلى الباب، وقلت:

---

(١) ٢٠ درجة بمقياس ريامور، وهي تعادل ٢٥ درجة مئوية ويلاحظ انّ درجة الحرارة العادية للإنسان حوالي ٣٠ درجة ريامور، أي ٣٧ مئوية.

– آتوني بجياد، أرحل لفوري. فإن لم تمكنوني، فلن يخرج منكم أحد وسأدع التيار المنساب من النوافذ يجمد الدم في عروقكم!

وصاح مالك الأرض البدين، وهو يتقلب في مقعده لفرط الضحك:

– إنها لخطة جهنمية رائعة! إنها الطريقة التي يقضون بها على الصراصير بالتجمد...

– ولكنني لم أكن حذرا في انتباهي، فاستطاع المشرف أن يخرج من المبنى مع النسوة، ولم تبق سوى امرأة عجوز، جلست على الفرن رهينة.. وأخذت تعطس وتتلو صلواتها. وما لبثنا أن شرعنا نتفاوض بعد ذلك، فأقبل المشرف وأخذ يغريني– عن بعد– بأن أخلي سبيل المرأة العجوز. ولكني أطلقت عليه "**بلوخر**" قليلا.. و"**بلوخر**" رائع في مداعبة المشرفين على محطات البريد.. ومع ذلك، فإن الوغد ظل يأبى أن يمكنني من الحصول على الجياد قبل صباح اليوم التالي.. وفي تلك الأثناء، أقبل ذلك الشاب التابع للمشاة، فانضممت إليه في حجرة أخرى، وشرعنا نلعب... هل رأيتم "**بلوخر**"؟

ورفع عقيرته بالنداء:

– "**بلوخر**"!

وآردفه بصفير. فأقبل "**بلوخر**" مهرعا.. وتلطف اللاعبون فأبدوا نحوه بعض الاهتمام، وإن كان من الجلي أنهم كانوا راغبين في الانصراف إلى مسائل أخرى غير هذه.. وما لبث "**توربين**" أن قال:

– ولكن، لماذا لا تلعبون يا سادة؟ أرجو ألا تدعوني أحول بينكم وبين اللعب، فأنا ثرثار، كما ترون.. أن اللعب لعب، سواء شاء المرء أو لم يشأ!

- ٣ -

قرّب "**لوخنوف**" شمعتين من مجلسه، وأخرج حافظة نقود كبيرة، بنية اللون، مليئة بالأوراق المالية، ففتحها على المنضدة- بتؤدة- وكأنه يؤدي بعض الطقوس- وتناول منها ورقتين من فئة المائة روبل، فوضعهما تحت أوراق اللعب. وقال وهو يسوي من وضع عوينتيه، ويفتح مجموعة من أوراق اللعب:

- مائتان للبنك.. تماما كأمس!

فقال "**إيلين**" وهو ماض في حديثه مع "**توربين**" دون أن ينظر إلى "**لوخنوف**":

- حسنا جدا!

وبدأ اللعب[١]. وأخذ "**لوخنوف**" يوزع الأوراق في دقة الآلهة، متوقفا من آن لآخر عن تعمد ليكتب رقما، أو ليوجه من فوق حافتي عوينتيه نظرة صارمة، وهو يقول في صوت منخفض مليء بالنبرات: "ناول"!

وكان صاحب الأرض البدين هو أعلى الجميع صوتا في كلامه، وهو يجادل نفسه جهارا، ثم يرطب أصابعه الممتلئة الطرية. عندما يثني ركن ورقة. وكان ضابط الحامية يسجل في صمت ودقة المبالغ التي يراهن بها على ورقته، ويثني أطرافا صغيرة من الأركان، تحت المنضدة. أما اليوناني فكان يجلس بجوار المشرف على (البنك)، يراقب اللعب بانتباه- بعينيه الغائرتين- وهو يبدو كمن يترقب شيئا. وكان "**زافالشيفسكي**" يقف بجوار المائدة، ثم لا يلبث أن يتململ في وقفته فجأة، ويتناول من جيب سرواله (بنطلونه) ورقة مالية حمراء أو زرقاء[٢]. فيضعها على ورقة اللعب التي تكون أمامه، ثم يدق عليها بكفه، قائلا:

- سبعة متواضعة.. وزع لي!

---

(١) اللعبة المقصودة هنا هي "الشتوس" وقد كانت رائجة في "روسيا" وعفا عليها الزمن، فانقرضت وفيها يختار اللاعبون لأنفسهم أوراقاً من مجموعات على المائدة ويضعون المبالغ التي يراهنون بها على أوراقهم أو تحتها، ويحتفظ المشرف على "البنك" بمجموعة كاملة من الأوراق، يوزع منها على الجالسين إلى اليمين والجالسين إلى اليسار، على التوالي فالأوراق التي توزع إلى اليمين يكون كسبها له، والتي توزع إلى اليسار يكون كسبها اللاعب ومن مصطلحاتها "ناول" لتذكير اللاعبين بتسليم المبالغ التي يكونون مدينين بها للبنك و"مفردات" اي مراهنات فردية ويضاعف اللاعب رهانه مرتين أو ثلاثاً بأن يثني أركان الورقة التي في يده ليكشفها إذ تكون موضوعة وظهرها إلى أعلى.. و"التمرير" يضاعف الرهان ستة أمثاله. (٢) كانت الأوراق ذات الخمسة روبلات زرقاء.. وذات العشرة حمراء.

ويروح يعض طرفي شاربيه، وهو ينقل ثقل جسمه من قدم إلى قدم، ولا يكفّ عن التململ إلى أن توزع عليه ورقة أخرى..

وراح "**إيلين**" يأكل شرائح من لحم البقر والخيار المملح، وضعت على أريكة من شعر الخيل، ثم أسرع فمسح يديه في سترته، وأخذ يلقي ورقة بعد أخرى. أما "**توربين**" الذي كان جالسا- في بادئ الأمر- على الأريكة، فإنه سرعان ما أدرك تطورات الموقف. ولم يكن "**لوخنوف**" ينظر إلى "**إيلين**" أو يخاطبه، بيد أن عوينتيه كانتا تتحولان نحو يدي الشاب من آن إلى آخر، وتستقر نظراته عليهما لحظة.. ولكن معظم أوراق "**إيلين**" كانت خاسرة!

وما لبث "**لوخنوف**" أن قال، مشيرا إلى ورقة ألقاها صاحب الأرض البدين، الذي كان يقامر بأنصاف الروبلات:

- آه، إنني أود أن أضرب هذه الورقة.

فقال المالك:

- لك أن تضرب ورقة "**إيلين**"، ودعك مني!

وفعلا كانت أوراق "**إيلين**" أكثر خسارة من أوراق الآخرين، حتى إنه كان يمزق كل ورقة خاسرة- تحت المائدة- وهو منفعل، ثم يختار ورقة أخرى بأصابع مرتجفة. ونهض "**توربين**" عن الأريكة، وسأل اليوناني أن يدعه يجلس مكانه إلى جوار المشرف على (البنك). فانتقل اليوناني إلى مكان آخر، وشغل الكونت مقعده، وبدأ يراقب يدي "**لوخنوف**" بإمعان لا يحرك عينيه عنهما.

وفجأة قال الكونت بصوته العادي، الذي طغى على جميع الأصوات دون قصد منه:

- "**إيلين**".. لماذا تلزم طريقة جامدة في اللعب.. إنك لا تعرف كيف تلعب.

- كل الطرق سواء في اللعب.

- ولكنك تخسر بهذه الطريقة. دعني ألعب بدلا منك!

- لا، أرجو أن تسمح لي.. إنني دائما ما ألعب لنفسي، فالعب لنفسك إذا شئت.

- قلت من قبل أنني لن ألعب لحسابي، ولكني أود أن ألعب لحسابك، فإني مستاء

لأنك تخسر!

– أرى أن هذا حظي.. قدر مكتوب عليّ!

*****

وصمت الكونت، ولكنه مال على المائدة معتمدا على مرفقيه، وعاد يتأمل يدي المشرف على (البنك) بإمعان. وفجأة قال بصوت عال، وهو يطيل الكلمة:

– فظيع!

فتطلع إليه "**لوخنوف**"، وإذا به يردد بصوت أكثر ارتفاعا، وهو يحدق في عيني "**لوخنوف**" مباشرة:

– فظيع.. فظيع جدا!

واستمر اللعب.. ومرة أخرى، صاح "**توربين**"، وقد ضرب "**لوخنوف**" ورقة كان "**إيلين**" قد قامر عليها بمبلغ كبير:

– ليس هذا من الصواب في شيء!

فتساءل المشرف على (البنك) في عدم اكتراث مهذب:

– ما الذي لا يروق لك يا كونت؟

– هذا.. إنك تدع "**إيلين**" يكسب مراهناته المفردة، ثم تغلبه في المراهنات المضاعفة.. هذا هو موطن السوء في الأمر!

وحرك "**لوخنوف**" حاجبيه وكتفيه حركة خفيفة، إيماء إلى أنه كان ينصح بالتسليم للحظ والقدر في كل شيء، وواصل اللعب. فصاح الكونت:

– "**بلوخر**"!

ونهض مرسلا صفيرا استدعى به الكلب، ثم أردف بسرعة:

– عليك به!

وارتطم ظهر "**بلوخر**" بالأريكة وهو يثب من تحتها، فكاد يقلب ضابط الحامية، وهرع نحو مولاه مزمجرا، ثم راح يتلفت ناظرا إلى كل امرئ، وهو يهز ذيله، وكأنه

يتساءل: "من ذا الذي يسيء التصرف هنا.. هه؟".

وألقى "**لوخنوف**" بالأوراق التي كانت في يده، وأزاح مقعده جانبا، وقال:

– ليس بوسع المرء أن يلعب بهذا الشكل إنني أكره الكلاب.. أي نوع من اللعب يصبح، إذا ما أحضرت إلى هنا فرقة من كلاب الصيد؟

فغمغم ضابط الحامية:

– لاسيما إذا كانت كهذا الكلب..

والتفت "**لوخنوف**" إلى مضيفهم قائلا:

– وبعد.. هل سنلعب يا "**ميخائيل فاسيليتش**" أو ترانا لن نلعب؟

فالتفت "**إيلين**" إلى "**توربين**" قائلا:

– أرجو ألا تتدخل بيننا يا كونت!

فقال "**توربين**" وهو يمسك بذراع "**إيلين**" ويذهب به إلى وراء حاجز خشبي في الحجرة:

– تعال معي لدقيقة!

وكانت كلمات الكونت– التي قالها بصوته المعهود– مسموعة بجلاء من خلف الحاجز، فقد كانت طبقة صوته تسري عبر ثلاث حجرات دائما:

– أأنت مغفل، هه؟ ألا ترى أن ذلك السيد ذا العوينتين غشاش من الدرجة الأولى؟

– دعك من هذا، كفى! ما هذا الذي تقول؟

– لا مجال لـ"كفى" في هذا الأمر.. إنني أناشدك أن تكف عن اللعب. إن الأمر لا يهمني في شيء، ولو أننا كنا في ظروف أخرى، لاستنزفت أموالك بنفسي، ولكنني– لسبب لا أدريه– آسف إذ أراك تجرد من ريشك. ولعلك تحمل شيئا من أموال التاج كذلك؟

– لا.. لماذا تتوهم أمورا كهذه؟

– آه، يا فتاي.. لقد كنت أنا الآخر مثلك؛ ومن ثم فإنني أعرف كل حيل أولئك الغشاشين. إنني أؤكد لك أن الرجل ذا العوينتين غشاش، فكف عن اللعب! إنني

أناشدك كزميل في السلاح!

– ليكن ذلك إذن، فقط سأفرغ من هذا الدور وحده.

– إنني أدري ما وراء "دور واحد". حسنا، لسوف نرى!

وعادا.. وفي هذا الدور الواحد، ألقى "**إيلين**" بكثير من الأوراق، راهن عليها بكثير من النقود، حتى إنه عندما خسر فقد مبلغا باهظا. وإذ ذاك، وضع "**توربين**" يديه في وسط المائدة، وصاح:

– الآن، كف عن اللعب، وتعال!

فقال "**إيلين**" في انفعال، وهو يعبث ببعض أوراق مطوية، دون أن ينظر إلى "**توربين**":

– لا، لست أستطيع. دعني وشأني!

– حسنا، اذهب إلى الجحيم، إذن! استمر في الخسارة المؤكدة، إذا كان هذا يروق لك. لقد حان لي أن أنصرف. فلنذهب إلى حفلة "المارشال" يا "**زافالشيفسكي**"!

وانصرفا. وظل الذين مكثوا صامتين، ولم يعد "**لوخنوف**" يوزع أوراقا إلى أن غاب وقع أقدامهما، وخفت وقع مخالب "**بلوخر**" على أرض الردهة. وإذ ذاك قال مالك الأرض، وهو يضحك:

– يا له من رجل، كأنه الشيطان!

فعقب ضابط الحامية، وهو لايزال يهمس وينطق الكلمات في عجلة:

– حسنا.. إنه لن يتدخل في اللعب ثانية!

وعادوا يستأنفون اللعب.

– ٤ –

وما إن صدرت إشارة معينة، حتى عزفت الفرقة الموسيقية، المؤلفة من بعض عبيد المارشال– وقد وقفوا في مخزن المؤن (الكرار) بعد أن أخلي مما كان به، لهذه المناسبة،

وشمروا عن أكمامهم استعدادا- اللحن البولندي القديم "**الكسندر وليزابيث**" . . وتحت الأضواء المشرقة الناعمة- الصادرة من الشموع المصنوعة من الشحم- تقدّم حاكم عام من عهد "**كاترين**"، تزين صدره نجمة، وقد تابط ذراع زوجة المارشال النحيلة الهزيلة . . فشرع الباقون من علية القوم ينساقون رويدا- مع زميلاتهم- على الأرض الخشبية المصقولة، في قاعة الرقص الكبيرة في تجمعات عديدة ومتباينة . . وهنا دخل "**زافالشيفسكي**" مرتديا جوربين طويلين، وحذاءين طويلين كذلك، وسترة زرقاء ذات ذيل طويل رفيع وياقة واسعة من اللباد، وقد تصاعد منه عبير قوي . . عبير عطر الياسمين الهندي الذي نثر بغزارة على صدر سترته، ومنديله، وشاربيه .

أما الضابط المليح المنتمي إلى كتيبة الفرسان الخفيفة، والذي أقبل معه، فكان يرتدي سروالا (بنطلون) ذا لون أزرق خفيف، من سراويل ركوب الخيل، وقد أحكم حول جسمه إحكاما تاما، وسترة قرمزية موشاة بالذهب، ثبت إلى صدرها صليب "**فلاديمير**"، ووسام سنة ١٨١٢ [١] . وما كان الكونت بالرجل الطويل، ولكن جسمه كان بديع البنيان بدرجة تلفت الأنظار . وكانت عيناه- اللتان امتازتا بزرقة صافية وبريق شديد- وشعره البني القاتم الشديد التجعد، تضفي طابعا رائعا على جماله . وكان مقدمه إلى الحفلة الراقصة متوقعا، إذ إن الشاب المليح الذي رآه في الفندق، كان قد هيأ "المارشال" لذلك . وكان النبأ قد أحدث آثارا عديدة، لم تكن- في أغلبها- سارة . . فقد كان رأي الرجال، والسيدات المسنات، يتمثل في : "ليس من المستبعد أن يعرضنا هذا الشاب للسخرية!" . . أما السيدات اللائي لم يتجاوزن الشباب- متزوجات أو غير متزوجات- فإن ما جال بخواطرهن، لم يخرج عن : "ماذا يكون لو أنه هرب بي؟" !

وما إن انتهى لحن الرقصة البولندية، وانحنى كل راقص لمن راقصته فبادلته بدورها الانحناء، حتى افترقوا فتقاربت النساء في فريق، والتم الرجال في فريق آخر . . وإذ ذاك، قدم "**زافالشيفسكي**" الكونت إلى ربة القصر، وهو فخور، مغتبط . . وشعرت زوجة المارشال بقشعريرة تسري في أعماقها، خشية أن يوليها هذا الفارس الشاب معاملة فاضحة أمام الجميع، فأشاحت في ترفع وازورار، وهي تقول :

---

(١) ميدالية كانت تمنح لمن ابلى في الدفاع عن "روسيا" ضد "نابليون" .

– يسرني كل السرور أن أراك، وآمل أن تنعم بالرقص!

ثم رمقته بنظرة متريبة، وكأنها تقول:

– تذكر أنك إذا جرحت شعور امرأة، فسيثبت لي هذا أنك شقي زنيم!

على أن الكونت سرعان ما هزم مخاوفها ورأيها السيئ عنه بلطفه، ومسلكه الذي نمّ عن فطنة ورعاية، ومظهره الوسيم الطروب؛ ومن ثم فلم تنقض دقائق خمس، حتى كان التعبير الذي ارتسم على وجه زوجة المارشال ينبئ القوم:

– إنني خبيرة بترويض السادة الذين من هذا القبيل، فقد أدرك لفوره من التي يعاملها؛ ومن ثم فسوف يظل يبدي لي مسلكا رائعا طيلة السهرة!

وفوق ذلك، فإن حاكم البلدة– الذي كان على معرفة بوالد الكونت– سعى إليه في تلك اللحظة، وانتحى به جانبا، وهو في بشاشة بالغة، وراح يتحدث معه، مما زاد من طمأنينة المجتمع الريفي الموجود، ورفع من تقدير القوم للكونت.

*****

وما لبث "**زافالشيفسكي**" أن قدّم الكونت– بعد ذلك– إلى أخته.. وكانت أرملة شابة سمينة في التفاف، لم تفارق عيناها السوداوان الواسعتان الكونت منذ اللحظة التي ولج فيها القاعة. وسألها الكونت أن تراقصه "الفالس" الذي كانت الفرقة الموسيقية قد شرعت تعزفه، وإذ ذاك تبددت البقية الباقية من الآراء التي كانت قد خامرت القوم، حين رأوا طريقته البارعة في الرقص!

وقالت سيدة بدينة، من صاحبات الأرض، وهي ترقب ساقيه في سروال الركوب الأزرق، وقد راحتا تنتقلان على أرض الحجرة في رشاقة وخفة:

– يا له من راقص بديع!

وأخذت تحسب حركات قدميه في سريرتها: "واحدة، اثنتان، ثلاث.. واحدة، اثنتان، ثلاث.. رائع!

وقال آخر، وكان زائرا للمدينة لا يعده مجتمعها المحلي من علية القوم:

– انظر كيف يمضي.. جيج، جيج، جيج! كيف يتفادى أن يرتطم مهمازاه معا؟ إنه

لرائع، حاذق!

وبهر رقص الكونت الفني الأنظار حتى طغى على تألق خير ثلاثة راقصين في الإقليم، وهم: "**يارو**" الحاكم، الطويل الأشقر الشعر، الذي امتاز بسرعته في الرقص، وبأنه كان يشد زميلته إلى صدره.. والفارس المتقاعد الذي اشتهر بحركاته المترنحة الرشيقة في رقصة "الفالس"، وبالدقات المتوالية الخفيفة التي كان يوقعها على الأرض بكعبيه.. وشخص من المدنيين، كان كل امرئ يقول إنه لم يكن نبيها جدا، ولكنه كان راقصا من الدرجة الأولى، وكان روح كل حفلة راقصة.. والواقع أن هذا الشخص كان يسأل كل السيدات أن يراقصنه، كلا بدورها، بترتيب مجلسها[١]، ولم يكن يتوقف قط، اللهم إلا في فترات عابرة، ليجفف العرق عن وجهه- الذي كان يحتفظ ببشاشته رغم علامات الإرهاق- بمنديل مندى من الكتان الناعم.

لقد طغى الكونت على تألقهم جميعا، ورقص مع أرقى ثلاث سيدات: السيدة الطويلة، الغنية، المليحة، الغبية.. والسيدة المتوسطة الطول، النحيلة، التي لم تكن بارعة الحسن ولكنها كانت بديعة الملبس.. والسيدة التي كانت قلة في الجسم، خالية من الحسن، ولكنها كانت حاذقة في الرقص.. ورقص "**توربين**" مع أخريات كذلك.. مع جميع الحسان، وقد كن كثيرات هناك.. ولكن أخت "**زافالشيفسكي**"- الأرملة الشابة- كانت خير من رقن له من النساء. فرقص معها رقصة من نوع "الكدريل"، وأخرى أيقوسية، وثالثة من رقصات "مازوركا".. وعندما جلسا معا- خلال "الكدريل"- شرع يغدق عليها مجاملاته، فشبهها بفينوس و"**ديانا**"، وبالوردة، وبنوع آخر من الزهور. ولكن كل هذه المجاملات لم تؤد إلا إلى أن كانت الأرملة تحني عنقها البض، وتنكس عينيها فتنظر إلى ثوبها "الموسلين" الأبيض، أو تنقل مروحتها من يد إلى يد. ولكنها عندما كانت تقول:

- لا تغرق يا كونت، فما أراك ألا تمزح!

وما إلى ذلك من كلمات- كانت تقولها في بساطة ساذجة، وخفر مثير، بصوتها الذي كان ينبعث من أعماق الحلق قليلا، حتى لقد كان الناظر إليها يراها زهرة- في

---

(١) كانت العادة ألا يراقص الرجل سيدة رقصة باكملها بل يدور بها بضع جولات ثم يقودها إلى مقعدها وينحني لها ثم ينشد سواها.

الواقع- وليست امرأة.. وزهرة ليست من نوع المألوف، وإنما من تلك الزهور البرية الفخمة، العديمة العبير ذات اللون الأبيض المشرب بحمرة وردية.. زهرة من هذا النوع، نمت وحيدة، وسط سيل من الجليد في مكان ناء سحيق!

هذا المزيج من السذاجة وعدم مشابهة النسوة المألوفات، مع نضارة جمالها، أحدث في نفس الكونت أثرا غريبا، حتى لقد تملكته الرغبة مرارا- أثناء فترات الصمت، وهو يتأمل عينيها والتفاف عنقها البديع وذراعيها الجميلتين- في أن يحتويها بين ذراعيه، ويغرقها بقبلاته.. ولقد راودته هذه الرغبة بقوة، حتى لقد اضطر إلى أن يبذل مجهودا جديا في مقاومتها.. ولاحظت الأرملة- في اغتباط- الأثر الذي أحدثته في نفسه، بيد أن شيئا في سلوك الكونت بدأ يوقع الرهبة في نفسها ويثيرها- في آن واحد- مع أن الضابط الفارس الشاب كان، بالرغم من لطفه الفتّان، يبدي لها من الاحترام ما قد يعتبر- في أيامنا هذه- ممجوجا! فقد هرع ليجتلب لها شرابا من عصير اللوز، والتقط منديلها، واختطف لها مقعدا من يد شاب من الأعيان- مصاب بالدرن الخنزيري- كان يتراقص حولها ليظفر بها سريعا.. وهكذا.

وعندما لاحظ أن المجاملات التي اصطلح عليها مجتمع زمنهما كانت قليلة التأثير على السيدة، حاول أن يطربها بأن راح يروي لها قصصا مضحكة، ويؤكد لها أنه كان على استعداد لأن يقف على رأسه، أو أن يصيح كالديك، أو أن يقفز من النافذة، أو أن يغوص في الماء خلال ثغرة في الجليد، إذا هي أمرته بأن يفعل شيئا من ذلك. وأسفرت هذه الطريقة عن نجاح، فقد أشرق محيا الأرملة، وانطلقت في سيل من الضحكات ذات الرنين العذب، كاشفة عن أسنان بيضاء جميلة.. ورضيت كل الرضا عن فارسها. وأخذ الكونت يزداد حبا لها دقيقة بعد أخرى، فلم تنته رقصة "الكدريل" حتى كان مدلها بهواها حقا.. وعندما تقدّم إليها المعجب المفتون- ابن الثمانية عشر عاما- الذي طال به الوقوف في انتظارها (وهو عين الشاب المدرن الذي اختطف منه "**توربين**" المقعد. وقد كان ابن أغنى مالك للأرض في المنطقة) تلقته الأرملة في فتور بالغ، ولم تبد عشر ما كانت قد خبرته من انفعال في صحبة الكونت..

وقالت له، وهي لا تنفك تنظر إلى "**توربين**"، وتقدر- دون أن تفطن- عدد اليارادات

من الخيط الذهبي المجدول، الذي تطلبه وشي سترته: "إنك كريم! ألم تكن قد وعدتني بأن تأتي لتصطحبني إلى الحفلة، وأن تحضر لي بعض الحلوى.

فأجاب الفتى الذي كان ذا صوت رفيع حاد، رغم طول قامته:

– لقد ذهبت إليك يا "**آنا فيدوروفنا**"، ولكنك كنت قد خرجت. وقد تركت قسطا من أفخر الحلوى لك!

– إنك تجيد انتحال المعاذير دائما.. لست أريد حلواك..

فقال:

– أرى أنك قد تغيرت نحوي يا "**آنا فيدوروفنا**"، وإني لأعرف السبب. ولكنك لست على صواب. ولم يقو على أن يتم حديثه، إذ إن الانفعال الذي جاش في أعماقه، جعل شفتيه تختلجان بسرعة ودرجة عجيبتين. ولم تنصت إليه "**آنا فيدوروفنا**" بل راحت تتبع "**توربين**" بعينيها.

وأقبل رب البيت– المارشال الكهل البدين، الفخم المنظر، العديم الأسنان– فتقدّم من الكونت، وتأبط ذراعه، ودعاه إلى حجرة مكتبه ليدخنا ويشربا كأسا. وما إن بارح "**توربين**" القاعة، حتى أحسّت "**آنا فيدوروفنا**" انه لم يعد لها ما تفعله هناك، فبارحت القاعة إلى غرفة الزينة، متأبطة ذراع صديقة لها.. عذراء مسنة، بارزة العظام.. وسألتها العذراء:

– أظريف هو؟

فأجابتها "**آنا فيدوروفنا**"، وهي تسير إلى المرآة فتتأمل صورتها:

– إنما يضايقني ظرفه!

وأشرق وجهها، وضحكت عيناها، بل وتضرج وجهها. ثم راحت تطوف بالحجرة– فجأة– على قدم واحدة، مقلدة راقصات "الباليه" اللائي رأتهن أثناء الانتخابات.. ثم أطلقت ضحكها الذي كان ينبعث من أعماق حلقها، ولكنه كان طروبا عذبا، وأثنت ركبتيها، ثم وثبت وهي تقول:

– تصوري أي رجل هو.. لقد ذهب به الأمر إلى درجة أن سألني تذكارا. ولكنه لن

يظفر بـ.. شيء.. ما!

وكأنما كانتا تتغنى بالكلمتين الأخيرتين!

*****

وكانت في غرفة المكتب- حيث اصطحب المارشال "**توربين**"- زجاجات من مختلف أنواع الشراب، والمشروبات الروحية الحلوة المذاق، فضلا عن الشطائر والمشهيات. وكان الأعيان الذين راحوا يتمشون في الحجرة، أو جلسوا وسط سحب من دخان التبغ، يتحدثون عن الانتخابات. فكان قائد الشرطة الذي انتخب حديثا يقول:

- أما وقد شرفه مجتمع أعياننا المبجل بانتخابه، فما كان له- بأي حال من الأحوال- أن يتجاوز حده، متحديا المجتمع بأسره.. على أن دخول الكونت قطع الحديث، إذ رغب كل امرئ في أن يتعرف إليه، وظل قائد الشرطة- بوجه خاص- يضغط يد الكونت طويلا، ويسأله ملحفا ألا يرفض أن يرافقه إلى المطعم الجديد الذي كان قد دعا السادة إليه عقب الرقص، وحيث كان الغجر يغنون. فوعده الكونت بأن يلبي الدعوة، وشرب معه بضع كؤوس من الشراب!

وقال الكونت وهو يهم بمبارحة الحجرة:

- ولكن، لم لا ترقصون يا سادة؟

فردّ قائد الشرطة ضاحكا:

- لسنا راقصين، بل الخمر أحب إلينا يا كونت.. ثم إنني رأيت كل هؤلاء الشابات منذ حداثتهن يا كونت.. على أنني أستطيع أن أؤدي خطوات الرقصة الأيقوسية من آن إلى آخر!

فقال "**توربين**":

- إذن فتعال وارقص دورا، فإن هذا كفيل بأن يبهجنا قبل أن نذهب ونسمع الغجر!

وهم ثلاثة أو أربعة من النبلاء الذين كانوا يشربون الخمر في حجرة المكتب- منذ بداية الحفلة- أن يتبعوا الكونت إلى قاعة الرقص، عندما استوقفهم الشاب ذو الوجه

المدرن. وتعرض للكونت وقد غاض لونه، وراح يحبس دمعه بعناء، وهو يقول:

– أتظن أن بوسعك أن ترتطم بالناس المحيطين بك، وكأنك في سوق عامة لمجرد أنك كونت؟

وأخذ يتنفس بعناء، وهو يردف:

– هذه قلة أدب...

ومن جديد حبست شفتاه المرتجفتان الكلمات، بالرغم مما كان يبذل من جهد. فصاح "**توربين**"، وهو يعبس فجأة:

– ماذا؟ ماذا أيها الولد المدلل؟!

وأمسك بذراعيه، فراح يعصرهما حتى تدافع الدم إلى رأس الشاب من الخوف، أكثر مما كان من الاستياء.. وعاد الكونت يصيح:

– أتريد النزال؟ إنني رهن أمرك!

وما إن أفلت "**توربين**" ذراعي الشاب، حتى تلقّفه اثنان من النبلاء، وراحا يجرانه إلى الباب الخلفي، وهما يقولان له:

– أفقدت رشدك؟ لابد أنك ثمل.. ماذا يحدث لو قلنا لأبيك!

فصاح الشاب بصوته الرفيع:

– لا، لست ثملا، ولكنه ارتطم بي ولم يعتذر.. إنه خنزير!

ولكنهما لم يصغيا إليه، وسرعان ما حمل إلى داره، بينما كان قائد الشرطة و"**زافالشيفسكي**" يعتذران إلى الكونت قائلين:

– لا تستأ يا كونت، فهو ليس سوى صبي صغير. إنه لايزال يضرب من أبيه، فهو لم يتجاوز السادسة عشرة.. ما الذي أصابه؟ وكيف يفعل هذا، وأبوه رجل محترم؟

فقال الكونت:

– لا بأس، ليذهب إلى الشيطان!

وعاد إلى قاعة الرقص حيث راقص الأرملة الحسناء وهو في مرحه السابق، ثم دوت ضحكته في أرجاء الحجرة، عندما زلق قائد الشرطة– وهو يحاول الرقص– فهوى بكل

طوله على الأرض، وسط الراقصين!

- ٥ -

وفي أثناء وجود الكونت في حجرة المكتب، كانت "**آنا فيدوروفنا**" قد سعت إلى أخيها، وسألته وهي تتظاهر بعدم الإفراط في الاهتمام:

- من كان ذلك الضابط- من الفرسان- الذي راقصني، يا أخي؟

فبيّن الفارس المتقاعد لأخته- بكل ما أوتي من بيان- عظمة ذلك الضابط التابع لكتيبة الفرسان الخفيفة، وأنبأها- في الوقت ذاته- بأن الكونت ما مكث في البلدة إلا لأن نقوده سرقت منه في الطريق، وأنه قد أقرضه مائة روبل، بيد أن هذا المبلغ لم يكن كافيا.. فهل لأخته أن تقرض الكونت مائتي روبل أخرى؟ على أن "**زافالشيفسكي**" سألها ألا تروي ذلك لأحد ما، مهما يكن الأمر، لاسيما للكونت نفسه. فوعدت "**آنا فيدوروفنا**" بأن ترسل المبلغ لأخيها في اليوم ذاته، ليبقى الأمر سرا. بيد أنها شعرت- أثناء الرقصة الأيقوسية- بشوق جارف إلى أن تعرض بنفسها على الكونت أي مبلغ يشاء. وفكرت طويلا، وقد تضرج وجهها، ولكنها نبشت الموضوع في النهاية- وبجهد بالغ- على هذا النحو:

- أنبأني أخي بأن سوء الطالع حل بك في الطريق يا كونت، وأنك لا تحمل الآن نقودا. فإذا كنت بحاجة إلى شيء منها، فهلا تقبله مني؟ إن هذا كفيل بأن يسرّني!

على أنها لم تكد تقول هذا، حتى تولاها خوف مبهم، وتضرّج وجهها. وغاض من وجه الكونت كل ابتهاج في الحال، وقال في جفاء:

- إن أخاك أحمق.. إنك لتعرفين أن الرجال يتبارزون، إذا أهان أحدهم الآخر، أما عندما تهين امرأة رجلا، فماذا ترينه يفعل؟

واشتدّ احمرار وجه "**آنا فيدوروفنا**" المسكينة وعنقها، لفرط ارتباكها. وغضت بصرها، ولم تنبس ببنت شفة. فقال الكونت في صوت خفيض، وهو يميل على أذنها:

– إنه يقبلها أمام الملأ!

وأردف هامسا، بعد صمت طويل، وهو يشفق على زميلته من الارتباك:

– فاسمحي لي بأن أقبل يدك.. على الأقل!

وأرسلت "**آنا فيدوروفنا**" زفرة طويلة، وقالت:

– ولكن، ليس الآن!

– متى إذن؟ إنني راحل في بكور الغد، وأنت مدينة لي بقبلة!

فقالت "**آنا فيدوروفنا**"، وهي تبتسم:

– إذن، فالأمر مستحيل!

– لن أطالبك بأكثر من أن تتيحي لي لقاءك الليلة لأقبل يدك. ولن يعييني انتهاز فرصة للقاء!

فتساءلت:

– وكيف؟

فأجاب:

– ليس هذا شأنك، فكل شيء ممكن، في سبيل أن أراك.. فهل نحن على اتفاق؟

وأجابت:

– على اتفاق!

وهنا كانت الرقصة قد انتهت، فرقصا بعدها "المازوركا"، وأبدى الكونت براعة فائقة في اختطاف المناديل والركوع على ركبة، وصك مهمازيه– الواحد بالآخر– على طريقة لا يجيدها الراقصون في غير (وارسو) حتى أن المسنين من القوم، تركوا جميعا ألعابهم، وتقاطروا على قاعة الرقص ليشهدوا الكونت.. واعترف الفارس المتقاعد– وهو أحسن راقصيهم– بأن نجمه أفل إلى جانب تألق الكونت.. وما لبثوا أن تناولوا العشاء، ثم رقصوا رقصة "الجد"، وأخذ الحفل ينفضّ بعد ذلك.

*****

ولم يكن الكونت قد حوّل عينيه عن الأرملة الصغيرة، فما كان قوله عن استعداده لأن يغوص خلال ثغرة بين الجليد من أجلها، محض مجاملة أو تظاهر.. وسواء كان الأمر نزوة، أو غراما، أو عنادا، فإن كل قوى الكونت العقلية، تركزت- في تلك الأمسية- على رغبة واحدة.. أن يلتقي بالسيدة، وأن يطارحها الغرام.. وما إن لاحظ أن "**آنـــا فيدوروفنا**" كانت تستأذن مضيفتها في الانصراف، حتى هرع إلى غرفة رئيس الخدم، ثم جرى- بدون معطفه المصنوع من الفراء- إلى فناء القصر، فاتجه صوب المكان الذي وقفت فيه العربات، وصاح:

- مركبة "**آنا فيدوروفنا زايتسيفا**"! وإذا بعربة عالية، مغلقة، ذات أربعة مقاعد، تتحرك مقبلة صوب المدخل، ومصابيحها متقدة. فصاح بالحوذي:

- قف! وأسرع صوب المركبة، وهو يخوض في الثلج حتى ركبتيه!

وساله الحوذي:

- ماذا تريد؟

فأجاب الكونت وهو يفتح باب المركبة، ويحاول الصعود إليها وهي سائرة:

- أريد أن أجلس بداخل المركبة. قف.. إنني آمرك، أيها الأحمق!

فصاح الحوذي في مساعده:

- قف يا "**فاسكا**"!

وجذب أعنة الجياد، ثم قال للكونت:

- ماذا تبغي من الصعود إلى مركبات الغير.. إن هذه مركبة مولاتي "**آنـــــا فيدوروفنا**"، وليست مركبة فخامتك!

فقال الكونت:

- صه، أيها الغبي! هاك روبل وانزل فأغلق الباب!

ولما لم يحر الحوذي حراكا، رفع الكونت سلّم العربة بنفسه، وخفض زجاج النافذة، وتحايل على إغلاق الباب. وكانت العربة ككل العربات القديمة، لاسيما تلك التي تستعمل فيها أشرطة من القصب الأصفر- معبقة برائحة فجّة. كرائحة الوبر المحترق.

وكانت ساقا الكونت قد ابتلتا بالثلج حتى الركبتين، فشعر بأنه مقرور؛ إذ كان نعلاه خفيفين، وسروال الركوب منتفخا، ومن ثمّ فقد نفذ برد الشتاء إلى جسمه كله. وكان الحوذي يزمجر، وقد بدا أنه يتهيأ للهبوط من مكانه، ولكن الكونت لم يسمع ولم يشعر بشيء.. كان وجهه يتأجج، وقلبه يخفق سريعا.. وفي غمرة انفعاله العصبي، أمسك بشريط النافذة الأصفر، ومال إلى الداخل- حتى لا يرى خلالها- وقد انصرف بكل كيانه إلى الترقب.. ولم يطل هذا الترقب، فقد انبعث نداء من المدخل:

- مركبة "**زايتسيفا**"! فهزّ الحوذي أعنّة الجياد، وتمايل هيكل العربة على زنبركاته المرتفعة، وتتابعت نوافذ الدار المضيئة، والمركبة تمر بها.

وهمس الكونت للحوذي، وهو يطل عليه من النافذة الأمامية:

- تذكر أنني سأسوطك إذا قلت لرئيس الخدم إنني هنا. أما إذا عقلت لسانك، فستظفر بعشرة روبلات أخرى!

وما إن أغلق النافذة، حتى ارتج هيكل العربة بشدة، ثم وقفت. وانكمش الكونت وازداد التصاقا بالركن، وقد أمسك أنفاسه، وأغمض عينيه، وقد اشتد به الخوف من أن يبدد شيء ما ذلك الترقب الذي كان يؤجج عواطفه.. وما لبث باب العربة أن فتح، فانخفض السلم درجة بعد أخرى، في جلبة. وسمع الكونت حفيف ثوب امرأة، ثم شمّ عبير الياسمين يملأ جو المركبة فيطغى على الرائحة الممجوجة التي كانت تشيع فيه.. وصعدت الدرج قدمان خفيفتان، سريعتان، ثم ارتمت "**آنا فيدوروفنا**" في صمت إلى جواره، وقد احتك ذيل معطفها بساقه.. وكانت أنفاسها متهدجة! وليس بوسع امرئ- حتى هي- أن يجزم بما إذا كانت قد رأته، أو أنها لم تره.. ولكنها أبدت ارتياعا ضئيلا عندما تناول يدها، وقال:

- الآن بوسعي أن أقبل يدك الصغيرة!

ولم تحر جوابا، ولكنها أسلمته ذراعها، فراح يغمر الذراع بقبلاته، إلى ما فوق قفازها.

وتحركت العربة، فقال:

– قولي شيئا . . أغاضبة أنت؟ فازدادت انكماشا في ركنها وهي صامتة، على أن شيئا ما لم يلبث أن حملها على أن تنفجر بالبكاء فجأة، وتركت رأسها يهوي على صدره، من تلقاء نفسها!!

– ٦ –

كان قائد الشرطة المنتخب حديثا، وضيوفه– الفارس المتقاعد وغيره من علية القوم– قد قضوا وقتا طويلا في الإصغاء إلى أغاني الغجر، وفي معاقرة الشراب، في المطعم الجديد، عندما لحق بهم الكونت، وقد ارتدى معطفا مبطنا بفراء الدب، كان يوما لزوج "**آنا فيدوروفنا**" المتوفى. وقال له نوري (غجري) ذو عينين شديدتي السواد، وحولاوين، وقد سارع إلى استقباله لدى المدخل، وإلى معاونته على خلع المعطف، وهو يكشف عن أسنانه البيضاء:

– الحق أننا كنا ننتظرك بفارغ الصبر، يا صاحب السعادة، فنحن لم نرك منذ سوق "**لبيدياني**" . . إن "**ستيشكا**" لشديدة التلهف إلى رؤيتك!

وكانت "**ستيشكا**" نورية شابة، رشيقة، ميّاسة القوام، يتألق وجهها بلون كلون الطوب الأحمر، وقد أوتيت عينين عميقتين، برّاقتين تظللهما أهداب طويلة. وقد هرعت هي الأخرى لاستقباله، متمتمة، وهي تبتسم في طرب:

– آه، يا كونتي الصغير! يا حبيبي! يا جوهرة! يا للغبطة!

وجرى "**ايليوشكا**" نفسه– زعيم الفرقة– لتحيته، وقفزت العجائز والزوجات والعذارى فأحطن بالضيف، بعضهن يزعمن أنه "**أشبين**" لهن، والبعض يزعمن أنه قد عقد وشاج الأخوة معهن وقبّل "**توربين**" شفاه الشابات، بينما قبّلت العجائز والرجال كتفه أو يده. وابتهج علية القوم بوصول ضيفهم، لاسيما وأن الشراب كان قد بلغ ذروته، وبدأت بهجته تخبو، كما بدأ كل امرئ يشعر بالاكتفاء. . ففقدت الخمر مفعولها المثير للأعصاب، وأصبحت مجرد عبء يثقل المعدة. وكان كل امرئ قد أفرغ

كل ما في جعبته من تهريج، وشرع يسأم صحبة الآخرين.. وكانت الأغاني قد ألقيت جميعا، واختلطت في رأس كل فرد، مخلفة ضجة وانحلالا.. ولم يعد كل أمر غريب أو متهور يأتيه أي امرئ بذي قيمة، بل بدأ يلوح لكل امرئ أن ليس ثمة شيء مستحب أو مطرب فيما كان يصدر وشرع قائد الشرطة، الذي استلقى على الأرض عند قدمي امرأة عجوز- في حال مثيرة للدهشة- يحرك ساقيه في الهواء، صارخا:

- شراب.. لقد أقبل الكونت! شراب! لقد جاء.. هيا، شراب.. سأملأ حوض الاستحمام بالشراب وأستحم بها! أيها السادة النبلاء، إنني أحب مجتمع طبقتنا الراقية العريقة.. غننا يا "**ستيشكا**" وكان الفارس المتقاعد قد ثمل هو الآخر، ولكن.. بشكل آخر. فقد جلس على أريكة في ركن من المكان، ملتصقا بنورية حسناء طويلة، تدعى "**ليوباشا**". وقد راح يطرف بأهدابه- وهو يشعر بغشاوة على عينيه- ويهز رأسه، ويهمس مكررا كلامه مرارا، متوسلا إليها أن تهرب معه إلى أي مكان. وكانت "**ليوباشا**" تنصت إليه مبتسمة، وكأن ما كان يقوله قد راق لها. ومع ذلك فقد بدا عليها شيء من الأسى، وهي تنظر- من آن إلى آخر- نحو زوجها "**ساشكا**" الأحول، الذي كان يقف خلف المقعد المواجه لها.. ثم مالت على الفارس المتقاعد، وهمست في أذنه تسأله- ردا على إعلانه الحب- أن يبتاع لها شيئا من العطر والأشرطة.. في الخفاء!

وصاح الفارس المتقاعد، عندما دخل الكونت:

- مرحى!

وكان الشاب الوسيم يذرع القاعة ذهابا وإيابا بخطوات كان يعاني جهدا لكي تكون ثابتة، وعلى سيمائه آثار الضيق والهم، وهو يترنم بلحن من أوبرا "**السيراجليو**". وكان ثمة جد كهل- استدرجه إلحاح علية القوم عليه كي يأتي لسماع الغجر، مؤكدين له أن الحفل بدونه يفقد قيمته- فاستلقى على أريكة لازمها منذ قدم، دون أن يحفل به أحد. وكان ثمة موظف بين الجمع، خلع سترته ذات الذيل الطويل، وجلس فوق المائدة- رافعا قدميه إليها- وقد نشر شعره، وأظهر بذلك أنه قد ثمل تماما. وما إن دخل الكونت المكان، حتى فتح الموظف صدر قميصه، وتزحزح إلى وسط المائدة!

وقصارى القول إن وصول "**توربين**" أنعش مجلس الشراب، وتجمّعت النوريات ثانية، بعد أن كن يجسن خلال الحجرة، وجلسن في دائرة.. وأجلس الكونت المغنية الأولى "**ستيشكا**"على ركبتيه وأمر بمزيد من الشراب. وجاء "**أيليوشكا**" فوقف أمام "**ستيشكا**" حاملا جيتاره، وبدأ الرقص على أغاني النور:

– عندما تنطلق في الطريق، أيها الضابط الفارس، أتراك تسمع.. أتراك تعلم؟

وما إلى ذلك.. وكان غناء "**ستيشكا**" رائعا.. كان الصوت المرن الرنان– الذي انساب من أعماق صدرها– وابتسامتها المرافقة للغناء، وعيناها الضاحكتان الصارختان بالعواطف المشبوبة، وقدمها التي كانت تتحرك– دون وعي– حركات رتيبة متسقة مع الإيقاع، وصرخاتها الجامحة كلما بدأ المرددون (الكورس) يرددون مقاطع الغناء.. كل هذه كانت تمس وترا قويا في القلب، ولكنه نادرا ما يمس.. كان من الجلي أن النورية لم تكن تعيش إلا في جو أغنيتها.. وكان "**أيليوشكا**" يعزف لها على الجيتار، وظهره، وساقاه، وابتسامته، وكل كيانه يعبر عن انسجام مع الأغنية.. وقد راح يرقب الفتاة في شغف، ويرفع رأسه ويخفضه وقد استغرق في الأغنية بكل انتباهه، وكأنه يستمع إليها لأول مرة. وما لبث– عندما بلغ آخر الأنغام المشجية– أن اعتدل فجأة، وكأنه يشعر بأنه أسمى من كل امرئ في الدنيا، وألقى جيتاره عند قدميه في زهو واعتداد، وركله، ودق الأرض بقدمه، وطوح شعره إلى الوراء، وتلفت إلى الفرقة الموسيقية وهو عابس. وبدا كل جسمه– من العنق حتى الكعبين– يرقص بكل عضلة فيه.. وانطلق في الجو عشرون صوتا عاليا، قويا، حاول كل منها أن يبعث هتافا أشد وأعجب من الأصوات الأخرى. وأخذت العجائز يقمن ويهبطن على مقاعدهن، ملوّحات بمناديلهن، كاشفات عن أسنانهن، تنافس كل منهن الأخريات في صيحاتهن المنغومة، ذات الإيقاع. وأخذ أصحاب الأصوات المنخفضة المليئة يمدون أعناقهم، وقد مالوا برؤوسهم جانبا، وهم يهتفون، بينما كانوا وقوفا وراء المقاعد!

وعندما عادت "**ستيشكا**" ترفع عقيرتها بالغناء، حمل "**أيليوشكا**" جيتاره إلى قربها، وكأنه كان يرغب في مساعدتها، وصاح الشاب النبيل الوسيم قائلا إنهم بدأوا

"**البيمول**"[١] . وعندما حمى وطيس الرقص، وتقدّمت "**دنياشا**" تتلوى أمام الكونت، وتنساب مقتربة منه، وكتفاها وصدرها تهتز. وثب "**توربين**"، فخلع سترته وراح – في قميصه الأحمر – يخطو معها بخفة، خطوات دقيقة، متزنة، محدثا بساقيه حركات، أخذ الغجر يبتسمون لها بإعجاب، وهم يتبادلون النظرات! وجلس قائد الشرطة منتفخا كالديك الرومي. يدق صدره بقبضته، ويصيح:

– فيفا!.

ثم لمح ساقي الكونت، فشرع يعبر عن إعجابه قائلا إنه لم يتبق له من ألفي روبل سوى خمسمائة، وأنه لعلى استعداد لأن يفعل بها ما يشاء الكونت.. واستيقظ رب الأسرة الكهل، ورغب في الانصراف، ولكن أحدا لم يسمح له.. وبدا الشاب الوسيم يغري إحدى النوريات بأن تراقصه "**الفالس**". أما الفارس المتقاعد، فقد شاء أن يبين مدى مودته للكونت، فنهض واحتضنه، قائلا:

– آه، يا صديقي العزيز.. لماذا تركتنا، هه؟

وصمت الكونت، وقد بدا أنه كان يفكر في ناحية أخرى، بينما استطرد الرجل:

– ترى أين ذهبت؟ آه، أيها الكونت الخبيث، إنني لأعرف أين ذهبت!

ولأمر ما ساءت هذه الألفة "**توربين**"، فنظر إلى وجه الفارس المتقاعد في صمت، دون أن يبتسم ثم رماه فجأة بسبة فظيعة، جافية، تألم لها الفارس، وظل برهة عاجزا عن أن يقرر ما إذا كان يعتبر الإهانة مزاحا أو جدا.. وما لبث أن قرر أن يحملها على محمل المزاح، فابتسم، وعاد إلى غجريته، مؤكدا لها أنه لن يلبث أن يتزوج منها، بعد عيد الفصح.. وردد الغجر أغنية بعد أغنية، ورقصوا ثانية، ثم هتفوا للضيوف، وكل واحد من هؤلاء سادر في إيهام نفسه بأنه كان يستمتع بما يرى ويسمع، ولم يكن للشراب حد أو نهاية. وقد شرب الكونت كثيرا، فأخذت غشاوة الخمر تتكاثف أمام عينيه، ولكنه لم يفقد اتزانه قط، بل إنه راح يرقص أحسن من ذي قبل، ويتكلم بصوت ثابت النبرات، بل وانضم إلى (الكورس) فراح يردد مقاطع الغناء بإتقان، عندما غنت "**ستيشكا**" أغنية "أرق عواطف الصداقة". وفي خلال الرقصة، أقبل صاحب المطعم

---

(١) طبقة من طبقات النغم الموسيقي.

فسأل الضيوف أن يعودوا إلى دورهم إذ كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحا. وإذا "**توربين**" يمسك به من قفاه، ويأمره بأن يرقص الرقصة الروسية. وأبى الرجل، فاختطف زجاجة شمبانيا هدده بها، حتى اضطره إلى أن يقف على رأسه، وأمره بأن يظل في هذا الوضع بين ضحكات الجميع، ثم راح يفرغ الشمبانيا فوقه!

وبدأ الفجر يتسلل، فإذا الجميع شاحبو الوجه، منهوكو القوى، ما عدا الكونت الذي لم يلبث أن قال وهو ينهض فجأة:

– حسنا، لابد لي من الرحيل إلى "**موسكو**".. هيا،جميعا، تعالوا فشيعوني.. وسنتناول معا بعض الشاي..

ووافق الجميع اللهم إلا رب الأسرة الكهل، الذي بقي مستغرقا في نعاسه، بينما تزاحم الكل في ثلاث زحافات كانت تقف بالباب، وانطلقوا صوب الفندق.

– ٧ –

صاح الكونت وهو يدخل قاعة الجلوس في فندقه، متبوعا بضيوفه والغجر:

– أعدوا الجياد.. "**ساشكا**"! ليس "**ساشكا**" الفجري، وإنما "**ساشكا**" تابعي.. قل للمشرف على مركز البريد أنني سأسوطه إذا أعطاني جيادا سيئة! وهات شايا لنا.. تول تقديم الشاي يا "**زافالشيفسكي**"، فإنني ذاهب لألقي نظرة على "**إيلين**"، وأرى كيف حاله.

ومضى في الردهة، نحو غرفة الفارس الأوغلاني. وكان "**إيلين**" قد فرغ لتوه من اللعب، وخسر آخر "**كوبك**" في جيبه، فانكفأ على الأريكة، وراح يجذب شعرة إثر شعرة– من غطائها المصنوع من شعر الخيل– فيرفعها إلى فمه، ويعضها حتى يشطرها، ثم يبصقها.. وعلى المائدة– التي تناثرت فوقها أوراق اللعب– كانت ثمة شمعتان تناضلان ضوء النهار، الذي بدأ يتسلل خلال النافذة، وقد احترقت إحداهما حتى الورق الذي كان في التجويف الذي أقيمت فيه. ولم تكن في رأس

"**إيلين**" فكرة واحدة، فقد لفّت حواسه غشاوة كثيفة من شهوة المقامرة.. حتى الندم، لم يكن يشعر به. وبذل محاولة واحدة ليفكر فيما ينبغي أن يفعل، وكيف يرحل وهو مفلس، وكيف يسدد الخمسة عشر ألفا من روبلات التاج، وما الذي يحتمل أن يقوله قائد كتيبته، وما الذي قد تقوله أمه وزملاؤه.. وشعر بجزع واشمئزاز من نفسه، حتى إنه- رغبة في نسيان نفسه- نهض، وراح يذرع الحجرة، محاولا ألا تهبط قدمه في خطواته، إلا حيث تلتحم أخشاب الأرض، وبدأ- من جديد- يتذكر بجلاء كل دقيقة من دقائق اللعب.. تمثل بجلاء كيف بدأ يكسب نقوده من جديد، وكيف سحب "تسعة" ووضع "الروا السباتي" على ألفي روبل. ووزع المشرف على (البنك) الورق، فنال اليمين "دام"، ونال اليسار "آس".. ثم "روا كبه" إلى اليمين فإذا كل شيء يضيع. ولو قدر لليمين أن ينال "ستة"- مثلا- وأن ينال اليسار "الروا الكبة"، لقدر له أن يكسب، وللعب مرة أخرى على أن يكسب الضعف أو ينسحب من اللعب، ولربح خمسة عشر ألف روبل، ولاستطاع أن يبتاع من قائد كتيبته جوادا "رهوانا"، وزوجا آخر من الجياد، ومركبة خفيفة "**فايتون**". ثم ماذا بعد؟ كان كل شيء يصبح بديعا، رائعا.. وعاد الشاب ينبطح على الأريكة، يمضغ شعر الخيل.. وراح يسائل نفسه: " لماذا تراهم يغنون في الحجرة رقم ٧؟ لابد أن ثمة شرابا عند "**توربين**". أأذهب وأسكر؟

*****

وفي تلك اللحظة دخل الكونت، فصاح:

- ماذا أيها الزميل؟ هل جردت من كل مالك؟

فقال "**إيلين**" لنفسه: "سأتظاهر بالنوم، وإلا فسوف اضطر إلى أن أتحدث إليه، مع أنني أريد أن أنام!

بيد أن "**توربين**" تقدم منه، وربت رأسه قائلا:

- حسنا يا صديقي العزيز، هل جردت من كل مالك؟ هل خسرت كل شيء؟

أنبئني!

ولم يحر "**إيلين**" جوابا، فجذب الكونت ذراعه. وإذ ذاك تمتم "**إيلين**" – في صوت ناعس، غير مكترث، مثقل بالهم– دون أن يبدل من وضعه:

– خسرت.. ولكن، ما شأنك أنت؟

فصاح الكونت:

– كل شيء؟

وكان الجواب:

– أجل.. وما في ذلك؟ كل شيء ففيم يهمك الأمر؟

فقال الكونت وهو يميل إلى الترفق، تحت تأثير الخمر التي شربها، وقد ظل يربت شعر "**إيلين**":

– اسمع، صارحني بالحقيقة كزميل لك.. لقد تملّكني ميل إليك، فقل لي الحق. إذا كنت قد خسرت نقودا تمت للتاج، فسأنقذك من مأزقك، فإن الفرصة سرعان ما تفلت.. أكان معك نقود للتاج؟". فقفز "**إيلين**" ناهضا، وقال:

– حسنا، إذن.. إذا شئت أن أخبرك، فلا تتحدث إليّ لأنني.. أرجوك، لا تكلمني. إن الحل الوحيد هو أن أطلق الرصاص على نفسي!

وكان يأسه صادقا.. وهوى رأسه على راحتيه، وانفجر باكيا، رغم أنه كان– قبل لحظة– يفكر في الخيل بهدوء.. وقال الكونت:

– يا له من مسلك بديع، كمسلك البنات.. أين الرجل الذي لم يفعل ما فعلته أنت؟ إنها ليست نكبة بالغة، ولعلنا نستطيع إصلاح الأمر. انتظرني هنا!

وغادر الكونت الحجرة، فسأل خدم الفندق:

– أين حجرة السيد "**لوخنوف**"؟

وتطوّع خادم بمرافقته إليها. ودخلها الكونت، رغم أن تابع "**لوخنوف**" الخاص أخبره بأن مولاه قد عاد لتوه، وكان يخلع ثيابه.. ووجده الكونت جالسا إلى منضدة– وهو في ثوب الغرفة (الروب دي شامبر)– وقد راح يحصي عدة حزم من الأوراق المالية كانت

ملقاة أمامه.

وكانت على المنضدة زجاجة من "روم" الراين الذي كان جد مولع به، فكان يسمح به لنفسه- بعد الكسب- على سبيل المتعة.. وتطلّع "**لوخنوف**" في فتور وعبوس- خلال عوينتيه- إلى الكونت، وكأنه لم يعرفه. فقال هذا، وهو يخطو إلى المنضدة في إصرار:

- أحسبك لا تعرفني!

فأبدى "**لوخنوف**" ما ينم عن معرفة، وسأله:

- وما الذي تبتغيه؟

فأجاب "**توربين**" وهو يجلس على الأريكة:

- أحب أن ألعب معك.

فهتف الرجل:

- الآن؟

وأجاب زائره:

- أجل.

- يسرني أن ألعب معك في وقت آخر يا كونت: أما الآن، فإنني متعب، وسآوي إلى فراشي. هل لك في قدح من الخمر؟ إنه شراب مشهور!

- ولكنني أريد أن ألعب قليلا.. الآن!

- لست أعتزم اللعب الليلة.. ربما رغب بعض السادة الآخرين، أما أنا فلست أريد.. أرجو أن تعذرني يا كونت!

- إذن، فأنت تأبى؟

وهز "**لوخنوف**" كتفيه ليعبر عن أسفه لعجزه عن التصرف بما يرضي رغبة الكونت. بينما عاد هذا يتساءل:

- أتأبى مهما تكن الأحوال؟

ولم يتلق جوابا، سوى الهزة نفسها. فقال:

– ولكنني أرجو هذا، بوجه خاص.. فهل تلعب؟

وكان الجواب صمتا. فعاد يتساءل:

– هل تلعب؟ فكرا!

ولم يجب الآخر بغير الصمت ونظرة سريعة– من فوق حافتي عوينتيه– إلى وجه الكونت، الذي بدأ يتجهّم. فصاح هذا بصوت عال، وهو يدق المنضدة بقبضته، فيقلب الزجاجة، ويريق الخمر:

– هل تلعب؟ أنت تعرف أنك لم تكسب عن حق.. هل تلعب؟ إنني أسألك للمرة الثالثة!

فأجاب "**لوخنوف**" دون أن يتطلع إليه:

– قلت إنني لن ألعب.. إنه لأمر عجيب حقا، يا كونت. ثم إنه ليس من اللائق إطلاقا أن تأتي، فتسلط سكينا على حلق رجل!

وأعقب ذلك صمت اشتد فيه شحوب الكونت. وفجأة، هوت على رأس "**لوخنوف**" ضربة، أذهلت حواسه، فوقع على الأريكة محاولا أن يمسك بالنقود، وأطلق صرخة مرتاعة مدوية، ما كان أحد ليتوقعها من رجل في مثل هدوئه ورصانته. وجمع "**توربين**" ما كان على المنضدة من نقود، ودفع الخادم– الذي جرى لمعونة سيده– عن طريقه، وبارح الحجرة في خطوات سريعة. حتى إذا بلغ الباب التفت إلى "**لوخنوف**" قائلا:

– إذا شئت ترضية، فأنا في خدمتك!

وكان كل ما سمع في الحجرة هو: "لص"! سارق! سأستعدي القانون عليك!

ولم يكن "**إيلين**" قد حفل بوعد الكونت بأن يساعده، فظل راقدا على الأريكة في حجرته– كما كان من قبل– وهو يجهش ببكاء يائس.. ولم يبارحه إدراك حقيقة ما حدث له.. الإدراك الذي استطاعت ملاطفات الكونت وعطفه أن تكشف عنه من بين المشاعر والأفكار والذكريات المتشابكة، التي كانت تملأ رأسه ونفسه.. لقد ضاع كل شيء تماما– شبابه الغني بالأمل، وشرفه، واحترام المجتمع، وأحلام الحب والصداقة.. وبدأ

نبع دموعه يفيض ويغدق باطراد، وأخذت فكرة الانتحار تزداد إلحاحا عليه، ولم تعد تملأ نفسه اشمئزازا وجزعا.

وإذ ذاك سمع خطوات الكونت الثابتة.. وكانت آثار الغضب لاتزال بادية على وجه "**توربين**"، كما كانت يداه تهتزان قليلا، ولكن عينيه كانتا تفيضان بطرب رحيم، وبرضا عن النفس.. وقال وهو يلقي على المائدة عدة حزم من الأوراق المالية:

– هاك.. لقد اكتسبناها ثانية.. تأكد من أن جميع نقودك هنا، ثم أسرع وتعال إلى قاعة الجلوس!

ثم أردف:

– فإنني راحل لتوي.

وكأنما لم يلمح الفرح، والعرفان، والانفعال البالغ، على وجه "**إيلين**"، فبارح الحجرة وهو يردد بالصفير لحنا من ألحان الغجر!

– ٨ –

أقبل "**ساشكا**" – وقد أحاط خصره بحزام عريض– فأعلن أن الجياد معدّة. ولكنه أصرّ على وجوب استرداد معطف الكونت– الذي قال إن ياقته الفرائية كانت تساوي ثلاثمائة روبل– وعلى إعادة المعطف الأزرق الباهت، الذي كان الكونت يرتديه إلى الشقي الذي تركه وأخذ معطف الكونت بدلا منه في قصر المارشال.. وما درى حقيقة الأمر، ولكن الكونت قال له أن لا حاجة هناك إلى البحث عن المعطف، ثم سار إلى حجرته ليستبدل ثيابه. بينما استولى الفواق (الزغطة) على الفارس المتقاعد، وهو يجلس إلى جوار فتاته النورية.. وصاح قائد الشرطة يطلب شرابا، ودعا الجميع إلى أن يرافقوه ليتناولوا الفطور معه، ممنيا إياهم بأن زوجته سترقص ولابد مع الغجر. وكان الشاب النبيل الوسيم، مستغرقا في حديث جاد مع

"**أيليـوشكا**" ليبين له أن ثمة روحا حقة في أنغام البيانو، وأنه من غير المستحب توقيع الأنغام المنخفضة العميقة على الجيتار. أما الموظف، فقد جلس واجما في أحد الأركان يشرب الشاي، وقد بدا- في ضوء النهار- مستحييا من سكره وتأثير الخمر عليه. وكان الغجر يتناقشون فيما بينهم- بلغتهم القومية- بصدد الهتاف ثانية لضيوفهم- على ما اعتادوا إذا أرادوا أن يختتموا غناءهم ورقصهم- فكانت "**ستيشكا**" تعارض قائلة أن "**أنباروردي**"- وهي في اللغة النورية ترادف "كونت" أو أميرا، أو على الأدق: سيدا عظيما- خليق بأن يغضب لذلك. وكانت آخر جمرات العبث تخمد في نفوس الجميع، بوجه عام!

وقال الكونت وهو يلج قاعة الجلوس- في ثياب السفر- وقد تجدد نشاطه ومرحه، وبدا أجمل من ذي قبل:

- حسنا، لنسمع أغنية وداع، ثم ينطلق كل منا في طريقه!

فكون الغجر حلقتهم من جديد، وكانوا على وشك أن يبدأوا الغناء، حين دخل "**إيلين**"، وفي يده حزمة من الأوراق المالية، فانتحى بالكونت جانبا، وقال:

- لم يكن معي من نقود التاج سوى خمسة عشر ألف روبل، ولكنك أعطيتني ستة عشر ألفا وثلاثمائة.. فهاك المبلغ الزائد!

- هذا بديع، هاته!

وأعطاه "**إيلين**" النقود، ونظر إليه في استحياء، ثم فتح شفتيه ليقول شيئا، ولكنه لم يتكلم، بل تضرج وجهه، وتبادرت الدموع إلى عينيه، وأمسك بيد الكونت وأخذ يشدّ عليها. فقال هذا:

- عليك بالرحيل.. اسمع يا "**أيليـوشكا**"! هاك بعض المال لكم، على أن ترافقوني بالأغاني إلى خارج البلدة!

وطوّح بالألف وثلاثمائة روبل- التي أحضرها إليه "**إيلين**"- فاستقرت على الجيتار. ومع ذلك، فقد نسي الكونت أن يرد المائة روبل التي كان قد اقترضها من الفارس المتقاعد في اليوم السابق!

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة، وقد أشرقت الشمس فوق سطوح المنازل، وبدأ الناس يروحون ويغدون في الطرقات، وقد فتح أصحاب الحوانيت أبوابهم منذ فترة، وانطلقت عربات وجهاء القوم وكبار الموظفين تجوس خلال الطرقات. وأقبلت السيارات على السوق.. وقصارى القول، كان النشاط قد دب في المدينة، حين خرج الغجر- بكامل فرقتهم- وقائد الشرطة، والفارس المتقاعد، والنبيل، الوسيم، و"**إيلين**"، والكونت- في المعطف الأزرق المبطن بفراء الدب- إلى باب الفندق.. وكان النهار مشمسا، وقد أخذ الجليد في الذوبان. وأقبلت على الباب ثلاث زحافات كبيرة- من زحافات البريد- تجر كلا منها ثلاثة من الخيل عقدت ذيولها.. وصعد إلى الزحافة الأولى: الكونت و"**إيلين**"، و"**ستيشكا**"، و"**أيليوشكا**"، و"**ساشكا**" تابع الكونت. وكان "**بلوخر**" يهز ذيله، وينبح في الجياد. وصعد بقية السادة إلى الزحافتين الأخريين، ومعهم سائر الغجر نساء ورجالا. وما إن انطلقت الزحافات، حتى بدأ الغجر يعزفون ويغنون.. واختلط غناؤهم بأجراس الزحافات، فكانت المركبات الأخرى تندفع نحو الأرصفة، مفسحة الطريق للموكب، الذي اندفع خلال البلدة، ميمما شطر أبوابها الخارجية.. ولم تبد الدهشة على أصحاب الحوانيت والمارة الذين لم يكونوا يعرفون القوم- فما بالك بمن كانوا يعرفونهم- إذ رأوا هؤلاء الوجهاء يجوسون خلال الطرقات في وضح النهار، مع النوريات، ومع السكارى من رجال الغجر، وهم يغنون.

وعندما اجتازوا أبواب المدينة، توقفت الزحافات، وشرع كل امرئ يودع الكونت. واستولى حزن مفاجئ شديد على "**إيلين**"- الذي كان قد أسرف في الشراب، وقاد الزحافة بنفسه- فراح يلحف على الكونت أن يبقى ليوم آخر. حتى إذا وجد أن الأمر غير ممكن اندفع فجأة إلى صديقه الجديد، فقبله، ووعده- ودموعه تجري- بأن ينتقل إلى كتيبة الفرسان الخفيفة التي كان الكونت فيها، بمجرد عودته إلى قيادته. وكان الكونت شديد المرح فوق عادته، فدفع الفارس المتقاعد- الذي ازدادت ألفته في الصباح- وألقى به في بركة من الجليد الذائب.. وأطلق "**بلوخر**"

على قائد الشرطة، واحتوى "**ستيشكا**" بين ذراعيه، وود أن يحملها معه إلى "**موسكو**". ثم قفز أخيرا إلى الزحافة، وأجلس "**بلوخر**" إلى جواره. وقفز "**ساشكا**" إلى جانب السائق، بعد أن كرر رجاءه للفارس المتقاعد كي يستعيد معطف الكونت ويرسله إليه.. وصاح الكونت:

– انطلق!

ثم خلع قلنسوته ولوح بها فوق رأسه، وأرسل صفيرا يستحث به الجياد، كما يفعل حوذية محفات البريد، فانطلقت الزحافات.

وكان السهل مغطى بالجليد، وليس فيه من المناظر ما يدفع السأم، وقد تعرجت خلاله طريق قذرة يميل لون أديمها إلى الصفرة. وكانت أشعة الشمس المشرقة– التي راحت تنعكس على الجليد الذائب في بريق يعابث العيون في دلال– ذات دفء مستعذب، يسري في وجه المرء وظهره. وأخذ البخار يتصاعد كثيفا من الجياد التي بعث الجهد في أجسادها دفئا.. وراحت أجراس المحفّة تصلصل في مرح. وكان ثمة فلاح يقود محفّة مثقلة بالأحمال، فأسرع يدفعها بعيدا عن الطريق، وهو ينثر الماء أثناء خوضه برك الجليد الذائب بحذاءيه المصنوعين من لحاء الشجر.. وفي محفة أخرى– مثقلة بالأحمال– جلست فلاحة سمينة، ذات وجه أحمر، وقد دسّت طفلا رضيعا في صدر معطفها المصنوع من جلد الغنم، وراحت تستحث جوادا أبيض، هزيل الذيل، مكدودا..

وخطرت "**آنا فيدوروفنا**" فجاة بذهن الكونت، فصاح:

– ارجع ثانية!

ولم يفقه الحوذي غرضه، فعاد يصيح:

– عد ثانية.. إلى المدينة أسرع!

واجتازت الزحافة أبواب المدينة من جديد، واندفعت مسرعة إلى الأبواب الخشبية لدار "**آنا فيدوروفنا**". وطوى الكونت سلم الدار، واجتاز البهو، ومرق خلال حجرة الجلوس حتى إذا وجد الأرملة لاتزال نائمة، احتواها بين ذراعيه، ورفعها عن السرير،

وقبّل عينيها الناعستين، ثم هرع عائدا. ولعقت "**آنا فيدوروفنا**" شفتيها، وهي وسنانه، وتمتمت:

– ما الذي جرى؟

وكان الكونت قد قفز إلى محفته، وصاح في السائق، فانطلقت به المحفة.. وغادر بلدة (ك...) إلى الأبد، وقد خلا فكره من كل شيء عن "**لوخنوف**"، والأرملة، و"**ستيشكا**"، ولم يعد يشغله سوى.. ارتقاب ما كان ينتظره في "**موسكو**"...

– ٩ –

وانقضى أكثر من عشرين عاما، سالت خلالها مياه كثيرة، ومات خلالها أناس كثيرون، كما ولد خلق أكثر.. وشبّ كثيرون واكتهل كثيرون.. وولد مزيد من الآراء الجديدة، ثم ذوى ومات.. وفني الكثير من القديم الذي كان جميلا، والكثير من القديم الذي كان رديئا.. ونما كثير مما كان جميلا وحديثا، كما ظهر في دنيا الله أكثر منه مما كان فجا، وفظيعا، وجديدا.. وكان الكونت "**فيدور توربين**" قد قتل منذ أمد طويل في مبارزة مع رجل أجنبي كان الكونت قد جلده بسوط الخيل في عرض الطريق. وصار ابنه– الذي كان يشبهه في تركيبه البدني، كما تشبه قطرة الماء أختها– شابا مليحا في الثالثة والعشرين من عمره، يخدم في فرقة "الحرس الفرسان". على أن "**توربين**" الصغير لم يحرز أقل شبه بأبيه في الناحية الخلقية، فلم يكن به ظل من النزوات الوقحة، المشبوبة، بل المنحطة– إن شئت الصراحة– التي امتاز بها الجيل المنقرض. ولكنه ورث– إلى جانب الذكاء، والثقافة، والفطرة الموهوبة– حبا للثراء والرفاهية، ونظرة عملية إلى الرجال والأعمال.. وكان التعقل والحكمة هما أكثر صفاته المميزة. وقد مضى الكونت الشاب قدما في السلك العسكري، فكان "ملازما أول" وهو في الثالثة والعشرين. حتى إذا بدأت الحرب، هداه فكره إلى أن ترقيته تصبح أكثر احتمالا، إذا هو انتقل إلى الجيش العامل، ومن ثم فقد التحق

برتبة "كابتن" بإحدى كتائب الفرسان الخفيفة، وسرعان ما أصبح قائد فصيلة.

وفي مايو (أيار) سنة ١٨٤٨، كانت كتيبة الفرسان "...." تتحرك خلال إقليم (ك...) في حملة، وقد صدرت الأوامر للفصيلة التي كان يقودها الكونت "**توربين**" الشاب- بالذات- بأن تقضي ليلتها في قرية "**موروزوفكا**" التي كانت من أملاك "**آنا فيدوروفنا**".. وكانت "**آنا فيدوروفنا**" لاتزال على قيد الحياة، ولكنها كانت قد بعدت عن الشباب كثيرا، حتى إنها لم تعد ترى نفسها شابة، وهو أمر يصعب على أية امرأة أن تعترف به.. وكانت قد أصبحت مفرطة السمنة، مما يقال إنه يجعل المرأة تبدو أصغر سنا. ومع ذلك فقد تخللت سمنتها البضة تغضنات عميقة، ناعمة.. ولم تعد تذهب إلى البلدة قط، فقد أصبح الصعود إلى عربتها جهدا مضنيا لها.. بيد أنها ظلت رقيقة القلب، غبية كعهدها من قبل.. فقد بات من الممكن للمرء أن يقول الحق، بعد إذ لم يعد جمالها يستهوي المرء!

وكانت ابنتها "**ليزا**".. التي بلغت الثالثة والعشرين من عمرها- تعيش معها، وهي حسناء ريفية روسية.. كما كان أخوها- صاحبنا الفارس المتقاعد- يقيم معهما بعد إذ بدد ثروته الصغيرة عن طيب خاطر، فوجد في دار "**آنا فيدوروفنا**" مقاما في كهولته. وكان شعره قد أصبح أشيب، وقد غاصت شفته العليا وتجعّدت، وإن ظل الشاربان اللذان كانا يعلوانها يلقيان عناية، ويصبغان باللون الأسود.. ولقد انحنى ظهره، ولم تقتصر التغضنات والتجاعيد على جبينه وخديه، وإنما شملت أنفه وعنقه كذلك.. غير أن مسلك الفرسان ظل باديا في حركات ساقيه الكليلتين الموجوعتين!

وجلست الأسرة وأهل البيت- في ذلك اليوم- في حجرة الجلوس الصغيرة ذات الباب المفضي إلى الشرفة، وذات النوافذ المطلة على الحديقة العتيقة- المنسقة على شكل نجمة- وأشجار الموالح فيها. وكانت "**آنا فيدوروفنا**" الشيباء، تجلس على الأريكة في سترة بنفسجية اللون، وقد أخذت ترتب أوراق اللعب على منضدة مستديرة من خشب "الموجني".. أما أخوها المسن، فقد استقر- في سروال

(بنطلون) أبيض نظيف، وسترة زرقاء- إلى جوار النافذة، وقد راح يجدل حبلا من القطن الأبيض بمعونة شوكة خشبية.. وهي ملهاة علّمته إياها ابنة أخته، فأحبها كثيرا، لأنه لم يعد يقوى على شيء آخر، كما أن عينيه كانتا قد ضعفتا فلم تعودا تمكنانه من قراءة الصحف، وهي هوايته المفضلة. وكانت "**بيموشكا**"- وصيفة "**آنا فيدوروفنا**"- تجلس إلى جواره تستذكر درسا، و"**ليزا**" تساعدها، وتنسج- في الوقت ذاته- جوربين من صوف الماعز لخالها، بإبرتين من الخشب. وكانت أشعة الشمس الجانحة للمغيب، تتسلل- كعادتها في مثل هذه الساعة أشجار الموالح، وتلقي أضواء خفيفة على النافذة القصوى وما إلى جوارها. وكان الهدوء يسيطر على الحديقة والحجرة، حتى لقد كان بوسع المرء أن يسمع حفيف جناحي عصفور خارج النافذة، وزفرات "**آنا فيدوروفنا**"، وأنين الرجل المسن وهو يرفع ساقا ليسندها إلى الساق الأخرى.

وقالت "**آنا فيدوروفنا**"، وهي تستريح من ترتيب أوراق اللعب:

- كيف يسير النسيج؟ أريني يا "**ليزا**"، فإني أنسى دائما!

وسارت إليها "**ليزا**"- دون أن تكف عن حبك الصوف- وألقت نظرة على أوراق اللعب، وقالت:

- لقد أفسدت نظامها يا أماه!

وعكفت على ترتيبها وهي تقول:

- هكذا يجب أن تكون، ولن يعرقل هذا استطلاعك الحظ خلالها!

فقالت الأم:

- لا بأس، لا بأس، أيتها الهرة الماكرة! ولكن أليس هذا وقت الشاي؟

فقالت الفتاة:

- لقد أمرت بإيقاد نار الغلاية (السماور)، وسأرى ماذا تم. أتريدين أن تتناولي الشاي هنا؟ هيا يا "**بيموشكا**"، أسرعي وافرغي من درسك!

وأسرعت "**ليزا**" إلى الباب، فصاح خالها وهو ينعم النظر في شوكته الخشبية:

– "**ليزا**" .. "**ليزي**" ! أعتقد أنني أفلت غرزة، فالتقطيها لي يا عزيزتي!

– سآتي حالا .. يجب أولا أن أعطيهم قمعا من السكر ليكسروه!

وصدقت في وعدها، فما لبثت أن عادت مهرعة بعد ثلاث دقائق، وقرصت أذن خالها، قائلة وهي تضحك:

– هذا جزاء إفلات الغرز!

فقال خالها:

– حسنا، حسنا، لا بأس .. أصلحيها .. هناك عقدة صغيرة!

فتناولت "**ليزا**" الشوكة، وسحبت دبوسا من شعرها الذي عبث به النسيم قليلا، إذ انساب خلال النافذة– والتقطت به الغرزة، وأصلحت الخيط، ثم ردّت الشوكة إلى خالها، قائلة له، وهي تقدم له خدها الوردي، بينما كانت تعيد الدبوس إلى شعرها:

– الآن، أعطني قبلة مقابل ما فعلت .ستظفر ببعض "الروم" مع الشاي اليوم، فهو يوم الجمعة كما تعلم!

وسارت إلى حجرة الشاي، ثم صاحت من هناك بصوتها الصافي:

– تعال وانظر يا خالي، إن الفرسان قادمون!

فخفت "**آنا فيدوروفنا**" مع أخيها إلى حجرة الشاي– التي كانت نوافذها تطل على القرية– لترى الفرسان. ولم يكن ما بدا خلال النوافذ كثيرا، بل تمثل كله في حشد يسير وسط غلالة من الغبار. فقال الرجل المسن لأخته:

– من المؤسف أن تكون حجراتنا صغيرة يا أختاه، وأن الجناح الجديد لم يكتمل بناؤه، وإلا لاستطعنا أن ندعو الضباط. فإن ضباط الفرسان الخفيفة من أبدع الشباب وأبهجهم، وكانت رؤيتهم كفيلة بأن تشرح الصدر!

فقالت "**آنا فيدوروفنا**":

– كم كنت أسرّ بهذا يا شقيق، ولكنك تعرف أننا لم نؤت غرفا كافية. فهناك مخدعي، وحجرة "**ليزا**"، وحجرة الجلوس، وهذه الحجرة، وحجرتك .. وهذا كل ما

هناك.. فأين ترانا كنا ننزلهم؟ لقد نظف كوخ شيخ القرية لإيوائهم، ويقول "**ميخائيل ماتفييف**" إنه أصبح تام النظافة!

– كان إنزالهم هنا كفيلا بأن يمكننا من أن نختار زوجا منهم لك يا "**ليزي**".. فارس بديع من الكتيبة الخفيفة!

– لست أريد فارسا من الكتيبة الخفيفة، وأفضل عليه فارسا من "الأوغلان".. ألم تكن أنت من "الأوغلان" يا خالي.. لا شأن لي بفرسان الفرقة الخفيفة؛ إذ يقال إنهم جميعا مفسودون!

واحمرّ وجهها قليلا، وأطلقت ضحكة كأنغام الموسيقى. ثم أردفت:

– ها هي ذي "**أوستيوشكا**" تقبل مهرعة، فلنسألها عما رأت.

وسألتها "**آنا فيدوروفنا**" أن تدعو "**أوستيوشكا**"، فلما أقبلت هذه، بادرتها قائلة:

– لا قبل لك بأن تنصرفي إلى عملك، فليس بوسعك أن تستغني عن الجري لتري الجنود.. أين نزل الضباط؟

فأجابت الخادم:

– في بيت "**أيرومكين**" يا مولاتي. إنهما ضابطان.. ما أملحهما.. يقال إن أحدهما كونت!

فسألتها "**آنا فيدوروفنا**":

– وما اسمه؟

وأجابت الفتاة:

– "**كازاروف**"، أو "**توربينوف**".. يؤسفني أن نسيت!

– ما أغباك! أليس بوسعك أن تنبئينا بشيء ذي قيمة. كان خليقا بك أن تعرفي الاسم على الأقل!

– حسنا سأجري إلى هناك ثانية.

– أعرف أنك ماهرة في هذا.. لا، دعي "**دانييل**" يذهب.. قل له يا أخي أن يسأل عما إذا كان الضابطان في حاجة إلى شيء، فمن الواجب إظهار بعض المجاملة لهما، على

أية حال. دعه يقول إن سيدة الضيعة أوفدته للسؤال عنهما!

وجلس الشقيقان المسنان في حجرة الشاي، بينما ذهبت "**ليـــزا**" إلى غرفة الخدم لتضع السكر الذي تم تكسيره في الصندوق. وكانت "**أوستيوشكا**" هناك تحدث الخدم عن الفرسان، فما إن رأتها حتى همست:

– يا لهذا الكونت من رجل مليح يا مولاتي الحبيبة.. ملاك ذو حاجبين أسودين. ولو قدر لك زوج مثله، لكنتما زوجين متلائمين.

وابتسمت الخادمات الأخريات محبذات، بينما تنهدت المربية العجوز، وهي تقوم ببعض التطريز إلى جوار النافذة، وراحت تدعو الله هامسة، بينما قالت "**ليـــــزا**" لـ"**أوستيوشكا**":

– إذن فقد أحببت الفرسان.. ما أبرعك في رواية ما رأيت! اذهبي واحضري شيئا من عصير "الآس البري" لنعد للفرسان شيئا يشربونه!

وانصرفت حاملة صندوق السكر، وهي تضحك. ولكنها راحت تقول لنفسها:

– ليتني أرى حقا ذلك الضابط الفارس.. أهو أسمر أم أشقر؟ وما أحسبه إلا كان يسر بالتعرف إلينا.. ولو أنه رحل، فلن يقدر له أبدا أن يعرف أنني كنت هنا، وأنني فكرت فيه. وكم من أمثاله مروا على مقربة مني؟ من ذا الذي يراني هنا سوى خالي؟ ما من أحد يغتبط إذا ما رأى الطريقة التي أعقص بها شعري، أو الثياب التي أرتديها!

وتنهدت وهي تتأمل ذراعها البضة الممتلئة، ثم عادت تفكر:

– أحسبه طويلا، واسع العينين، ذا شاربين صغيرين!

وهأنذي هنا، قد جاوزت الثانية والعشرين، دون أن يقع أحد في حبي، اللهم إلا "**إيفان أيباتيش**" الذي شوه الجدري شكله.. بل إنني كنت منذ أربع سنوات أجمل مما أنا اليوم.. وهكذا تمر أيام شبابي دون أن أشرح صدر أحد. أواه، يالي من فتاة قروية مسكينة.. مسكينة!

وأيقظ القروية المسكينة من أحلامها صوت أمها يناديها لتصب الشاي في الأقداح، فرفعت رأسها مجفلة، وأسرعت إلى حجرة الشاي.. وكثيرا ما تأتي خير

النتائج عفوا. بينما تأتي أسوأ النتائج كلما ازداد المرء جدا. وفي الريف قلّ أن يعنى الناس بتعليم أولادهم؛ ومن ثم فهم يتيحون لهم- دون أن يفطنوا- تعليما بديعا. وقد كانت هذه حال "**ليـزا**". إذ إن "**آنا فيـدوروفنا**"- بذكائها المحدود، وإهمالها الفطري- لم تتح لها تعليما.. أي أنها لم تعلمها الموسيقى، ولا اللغة الفرنسية العظيمة النفع للفتاة.. ولكنها وقد أنجبتها عفوا- من زوجها الراحل- طفلة موفورة الصحة والجمال، فقد هيأت لها مرضعة ومربية، وألبستها خير الثياب القطنية الموشاة بالزخارف، وأحذية من جلد الماعز واعتادت أن ترسلها لتتنزه في الخلاء وتجمع النباتات الفطرية والتوت البري.. واستأجرت لها تلميذة من مدرسة الدير لتعلمها القراءة والكتابة والحساب.. حتى إذا انقضى ستة عشر عاما، وجدت في "**ليـزا**" صديقة، وأنيسة رحيمة القلب دائمة الانشراح، وربة بيت نشيطة. ولما كانت "**آنـا فـيـدوروفنا**" كريمة النفس، فإنها دائما ما كانت تأوي في البيت بعض الأطفال لتربيتهم.. سواء كانوا من أبناء العبيد، أو من اللقطاء. وقد بلغت "**ليـزا**" العاشرة، بدأت تعنى بهم، فتعلمهم، وتلبسهم ثيابهم، وتصحبهم إلى الكنيسة، وتكبحهم إذا أسرفوا في اللعب المرهق. وعندما كبرت ظهر على مسرح حياتها الخال الرقيق القلب الموجوع الساقين، الذي كان بحاجة إلى من يعامله كطفل.. ثم أصبح الخدم والفلاحون يأتون للسيدة الصغيرة بمطالبهم العديدة، وبأوجاعهم التي كانت الفتاة تعالجها بحب البيلسان والنعناع والكافور.. وكانت هناك شؤون التدبير المنزلي التي ألقيت على عاتقيها من تلقاء ذاتها.

وما لبثت أن استيقظ في أعماقها حنين لم يلق رضاء حنين إلى الحب لم يجد منفثا له إلا في الطبيعة والدين فأصبحت "**ليـزا**" أنثى نشيطة، طيبة، بشوشة، معتمدة على نفسها، طاهرة، عميقة التدين.. ومن الصحيح أنها كانت تتألم- بعض الشيء- من جراء غرور أنوثتها، إذا ما رأت جاراتها يقفن بجوارها في الكنيسة، مرتديات أحدث أنواع القبعات المجتلبة من بلدة (ك...). وكانت تستاء أحيانا من نزوات أمها العجوز وزمجرتها إلى درجة البكاء.. وكانت تراودها-

كذلك- أحلام الحب في أكثر صوره سذاجة وإضحاكا. ولكن هذه الأحلام كانت تتبدد في نشاطها النافع الذي تحول إلى ضرورة. فلما بلغت الثانية والعشرين من عمرها، لم يكن قد تبقّى في نفسها الصافية المطمئنة- نفس العذراء التي نمت بدنيا ونفسيا على أجمل صورة- أي أثر للندم أو الحسرة.. وكانت "**ليـزا**" متوسطة الطول، أقرب إلى السمنة منها إلى النحول، ذات عينين في لون ثمار البندق، ليستا بالواسعتين، وقد خلق جفناهما السفليان مكحولين قليلا. كما كان لها شعر طويل الغدائر، ذو لون بني فاتح. وكانت تسير في خطوات واسعة، وهي تتمايل قليلا كالبطة.. كما يقولون! أما وجهها، فكان يبدو- عندما تكون مشغولة، وغير منفعلة- وكأنه يقول لكل من ينظر إليه:

- من المبهج أن يعيش المرء في الدنيا، عندما يكون له من يوليه الحب، وعندما يكون له ضمير صاف!

حتى في لحظات الاستياء، أو الحيرة، أو الجزع، أو الحزن كانت تتجلّى في عينيها- بالرغم منها، وبالرغم من الدموع التي تملأ عينيها وحاجبها الأيسر العابس وشفتيها المزمومتين- نفس صريحة، لم يفسدها عقل معوج.. كانت روحها الصافية تشعّ من غمازتي خديها، ومن ركني فمها، ومن العينين المضيئتين اللتين اعتادتا الابتسام والرضا بالحياة!

- ١٠ -

كان الجو لايزال حارا، رغم أن الشمس جنحت إلى المغيب عندما دخلت الفصيلة قرية "**موروزوفكا**".. وعدت أمام الفرسان- في طريق القرية المتربة- بقرة جامحة شردت عن قطيعها، فراحت تقف وتتلفت من آن إلى آخر، وهي ترسل خوارا، دون أن يخطر لها ببال إطلاقا، أن خير ما تفعله هو أن تتنحّى عن الطريق. واحتشد الفلاحون- شيوخا ونساء وأطفالا، وخدما من دار سيدة الضيعة- على

جانبي الطريق، وراحوا يتأملون الفرسان في فضول، بينما كان هؤلاء يمسكون بأعنة جيادهم- التي كانت تدق الأرض، وتصهل أحيانا- وسط عاصفة كثيفة من الغبار. وإلى يمين الفصيلة، كان ثمة ضابطان استويا- في غير اكتراث- على صهوتي جوادين أسودين بديعين. وكان أحدهما هو الكونت "**توربين**"، القائد. أما الآخر فكان شابا في غضارة الصبا، رقي حديثا من مرتبة الطلبة إلى مرتبة الضباط، ويدعى "**بولوزوف**". ومن أحسن كوخ في القرية، خرج فارس في سترة بيضاء من التيل، فرفع قلنسوته، وسار إلى الضابط. فسأله الكونت:

- أين المقر الذي خصص لنا؟

فقال "جاويش التعيينات" المشرف على مقام الفصيلة، وقد شد جسمه كله:

- لقد نظف كوخ شيخ القرية لسعادتكما. وقد أردت أن أنزلكما في دار سيدة الضيعة، ولكنهم يقولون أن ليست هناك حجرات. إن صاحبة الزمام لئيمة!

فقال الكونت وهو يترجل أمام كوخ شيخ القرية، ويشد ساقيه:

- لا بأس.. وهل وصلت مركبتي الخفيفة؟

فأجاب "جاويش التعيينات"، مشيرا بقلنسوته إلى الهيكل الجلدي لعربة ظهرت لدى المدخل الخارجي للكوخ، واندفعت إلى بابه الداخلي الذي اصطف عنده أعضاء أسرة شيخ القرية ليتأملوا الضابط:

- ها هي ذي قد وصلت لتوها يا صاحب السعادة.

ودفع عجوزا من الواقفات، وهو يفتح بنشاط باب الكوخ الذي نظف حديثا، ويخطو جانبا ليفسح المدخل للكونت.

وكان الكوخ كبيرا، واسعا، ولكنه لم يكن نظيفا للغاية. وكان الوصيف الألماني- الذي كان يبدو في لباس السيد الراقي- يقف في الداخل يرتب الثياب في حقيبة كبيرة، بعد أن أقام سريرا حديديا، وهيأ الفراش. وهتف الكونت في استياء:

- أف.. يا له من مسكن قذر! أليس بوسعكم أن تعثروا على شيء أفضل في منزل أحد السادة، يا "**ديادينكو**"؟

فأجاب "جاويش التعيينات" :

– إذا رغبت يا صاحب السعادة فسأحاول مرة أخرى في بيت سيدة الضيعة. ولكنه لا يبدو أفضل من الكوخ كثيرا.

فقال الكونت:

– لا بأس.. انصرف!

واستلقى على الفراش، وقد عقد ذراعيه تحت رأسه. وما لبث أن صاح بوصيفه:

– **جـوهان**.. لقد تركت جزءا عاليا في الفراش.. كيف لا تتقن إعداد الفراش كما ينبغي؟

فأسرع **جوهان** كي يسويه، ولكن الكونت قال:

– لا، دعه الآن.

وأردف في لهجة تنم عن عدم الرضا:

– ولكن، أين ثوب الغرفة؟

فناوله الوصيف "الروب دي شامبر". فتأمله الكونت– قبل أن يرتديه– وقال:

– لقد توقعت هذا.. إن البقعة لم تنظف بعد. أفهناك خادم أسوأ منك؟

وشدّ الثوب من يد الخادم، وارتداه قائلا:

– قل لي: أتتعمد هذا الإهمال؟ هل الشاي معد؟

فقال "**جوهان**" :

– لم يكن لدي وقت لإعداده.

فهتف الكونت:

– يا لك من بليد!

وتناول الكونت بعد ذلك رواية فرنسية وضعت خصيصا إلى جوار فراشه، فراح يطالع فيها بعض الوقت في صمت بينما خرج "**جوهان**" إلى الردهة ليعد الغلاية. ولاح جليا أن الكونت كان سيئ المزاج، ولعل ذلك كان راجعا إلى التعب، والغبار الذي ران على وجهه، والثياب المشدودة حول جسمه، والمعدة الخاوية. فما لبث أن صاح ثانية:

– "**جوهان**" ! أحضر لي حسابا عن الروبلات العشرة . ما الذي اشتريته من البلدة؟

وتأمل الحساب الذي قدّم إليه، وأدلى ببعض ملاحظات نمّت عن عدم اقتناع بالأثمان الباهظة، ثم قال:

– قدم بعض الروم مع الشاي.

فقال "**جوهان**" :

– إنني لم أشتر (روم)!

فصاح الكونت:

– هذا بديع! كم من مرة نبهتك إلى وجوب وجود الروم؟

– لم يكن معي كفاية من النقود.

– إذن، فلماذا لم يشتر "**بولوزوف**" قدرا منه؟ كان يجب أن تحصل من خادمه على بعض النقود للروم!

– لست أدري لقد ابتاع الشاي والسكر.

– يا غبي! اخرج! إنك الإنسان الوحيد الذي يعرف كيف يجعلني أفقد صبري.. إنك تعرف أنني أتناول دائما الروم مع الشاي في الرحلات!

وكان حامل العلم "**بولوزوف**" قد أشرف على استقرار الفصيلة، فأقبل بوجه مرح. وقال:

– كيف الحال يا "**توربين**" ؟ يبدو أن المكان هنا لطيف. ولكني أصارحك بأنني جد متعب، فقد كان الجو حارا.

فصاح الكونت:

– لطيف؟! كوخ رطب قذر.. ولا (روم) بفضل سيادتك، فإن خادمك الغبي لم يشتر شيئا، وكذلك هذا الغبي.. كان جديرا بك أن تتذكر على الأقل!

وخرج حامل العلم إلى الردهة، حيث راح يهمس لتابعه:

– ولكن، لماذا نشتري نحن كل شيء؟ كأنما أنا المسؤول عن دفع ثمن كل شيء في حين أن وصيفه الألماني لا يفعل شيئا سوى أن يدخن غليونه!

وكان الكونت قد تسلم- في تلك الأثناء- خطابين من وصيفه، قرأ الأول ثم كوره وألقى به على الأرض.. وبدا أن الخطاب الآخر لم يخل من شيء لذّ له، إذ ابتسم وهو يقرأه، فساله "**بولوزوف**"، وقد عاد إلى الحجرة وشرع يعد لنفسه مرقدا على بضعة ألواح خشبية:

- ممن هذا؟

فأجاب الكونت مبتهجا، وهو يسلمه الخطاب:

- مـن "**مـينا**".. أتريد أن تراه؟ يا لها من امرأة لطيفة! الحق أنها أفضل بكثير من شابات طبقتنا الراقية.. انظر مدى ما في هذا الخطاب من مشاعر وذكاء.. ليس به من عيب سوى أنها تطلب نقودا!

فقال الضابط:

- أجل، هذا عيب!

- من الصحيح أنني وعدتها ببعض المال، ولكن هذه الحملة فاجأتنا، كما أن.. ومع ذلك، فسأرسل لها مبلغا، إذا ظللت في قيادة هذه الفصيلة ثلاثة أشهر أخرى. إنها تستحقه، فهي فاتنة!

وكان يراقب وجه "**بولوزوف**" وهو يقرأ الخطاب، فما لبث هذا أن قال:

- إنه فظيع من الناحية النحوية، ولكنه لطيف جدا، ويلوح أنها تحبك حقا!

فقال الكونت:

- أم م م! أظنها كذلك! لا يخلص في الحب سوى هذا الصنف من النساء، إذا ما أحبت الواحدة منهن حقا!

فساله الضابط الشاب:

- وممن كان الخطاب الآخر؟

وأجاب الكونت وقد بدا مستاء:

- آه، ذاك.. هناك رجل، وغد سخيف، كسب مني في المقامرة، فهو يذكرني بالدين للمرة الثالثة.. ولست أملك أن أدفعه في الوقت الحاضر!

وسادهما الصمت برهة، كان حامل العلم- الذي بدا خاضعا لتأثير الكونت وسلطانه- يلقي نظرات على أساریر "**توربين**" الوسيمة، والمكفهرة.. وما لبث هذا أن قال، وهو يحتسي الشاي:

- ولكن أتعرف أن الأمر قد يتحسن تحسنا جوهريا.. فلو أننا حصلنا على ترقية- بحكم الأقدمية- في هذه السنة، واشتركنا- إلى جانب ذلك- في بعض العمليات، فإنني قد أسبق في الترقية من يتقدمونني في الحرس. وكان الحديث لايزال يدور حول هذا الموضوع، عندما أقبل الشيخ "**دانييل**"، وأبلغهما رسالة "**آنا فيدوروفنا**"، ثم أردف من تلقاء نفسه: "وقد كلفت كذلك بأن أسأل عما إذا كنت ابن الكونت "**فيدور إيفانيتش توربين**"؟

وكان يعرف اسم الكونت، ويذكر زيارته لبلدة (ك ...). وعقّب قائلا:

- لقد كانت مولاتنا "**آنا فيدوروفنا**" على تعارف وثيق به!

فأجاب الكونت:

- لقد كان أبي.. وقل لمولاتك إنني جد ممتن لها، ولسنا نريد شيئا، ولكن.. قل إننا كلفناك بأن تسأل عما إذا كان من الممكن أن نظفر بغرفة أنظف من هذه، في أي مكان.. في منزل الضيعة، أو أي مكان!

وقال له "**بولوزوف**" بعد انصراف "**دانييل**":

- لماذا فعلت ذلك؟ ماذا يهمنا؟ إننا لن نمكث سوى ليلة واحدة.. وقد يضايقون أنفسهم من أجلنا.

فصاح الكونت:

- يا لتفكيرك! أعتقد أننا أخذنا حظنا من الإقامة في الأكواخ القذرة! من السهل أن يرى المرء أنك لست عمليا. لماذا لا نقتنص الفرصة عندما يكون ذلك في وسعنا، فنعيش كالآدميين، ولو لليلة واحدة؟ إنهم- على العكس- سيسرون جدا بأن يستضيفونا.. وأسوأ ما في الأمر، أن تكون هذه السيدة قد عرفت أبي حقا!

وابتسم كاشفا عن أسنانه اللامعة، وهو يقول:

– إنني أشعر دائما بالخجل من المرحوم أبي، ففي كل مكان قصة فاضحة، أو دين لم يسدده. ولهذا أكره أن ألتقي بمعارفه. على أن هذا كان سائدا في أيامه.

فقال "**بولوزوف**":

– هل أخبرتك يوما بقصة قائد لواء "أوغلاني" يدعى "**إيلين**"، التقيت به مرة؟ لقد كان توّاقا لأن يراك، فهو يحب أباك كل الحب!

– أعتقد أنه إمّعة! ولكن أسوأ ما في الأمر هم هؤلاء الأكابر الذين يؤكدون لي أنهم كانوا يعرفون أبي، ثم يروون عنه– وهم يتظاهرون بالتفكه– قصصا تجعلني أخجل.. من الحقيقي أنه كان ذا طبيعة جامحة، وكان يأتي– أحيانا– أعمالا غير لطيفة. ولكن هذا كان مسلكا شائعا في أيامه. ولو كان في أيامنا، لكان من المحتمل أن يصبح رجلا ناجحا كل النجاح، فمن الإنصاف أن نعترف بأنه كان ذا مواهب خارقة!

وإن هو إلا ربع ساعة، حتى عاد الخادم برجاء من مالكة الضيعة، أن يتكرم الضابطان فيقضيا الليلة في دارها.

– ١١ –

ما إن سمعت "**آنا فيدوروفنا**" أن ضابط فصيلة الفرسان الخفيفة كان ابن الكونت "**فيدور توربين**"، حتى استخفها الطرب، وراحت تقول:

– واعجبا.. يا للفتى الحبيب! اهرع يا "**دانييل**"، فقل إن مولاتك تدعوهما إلى دارها!

وقفزت مسرعة إلى غرفة الخدم، وهي تصيح:

– "**ليزي**"! "**أوستيوشكا**"! يجب إعداد حجرتك يا "**ليزا**"، وبوسعك أن تنتقلي إلى غرفة خالك. وما أرى لديك مانعا يا أخي من أن تنام الليلة في حجرة الجلوس.. لليلة واحدة!

– لست أحفل يا أختاه، فبوسعي أن أنام على الأرض!

وقالت "**آنا فيدوروفنا**"، وهي تروح وتغدو:

– لابد من أن يكون جميلا، إذا صح أنه يشبه أباه. لكم أتمنى أن أراه، هذا العزيز! يجب أن تتأمليه جيدا يا "**ليـــزا**"، فلقد كان أبوه جميلا.. إلى أين تأخذين هذه المنضدة؟ دعيها هنا. وأحضري سريرين.. خذي واحدا من حجرة رئيس الخدم.. وأحضري الشمعدان البلوري.. وضعي شمعا من النوع الجيد!

وأخيرا، تم إعداد كل شيء، ونسقت "**ليـــزا**" الحجرة للضابطين وفق هواها، رغم تدخل أمها. فنثرت على الفراشين أغطية نظيفة معطرة، ووضعت شموعا وقنينة ماء على منضدة قريبة منهما، ونقلت سريرها إلى حجرة خالها. وهدأت "**آنا فيدوروفنا**" بعض الشيء، فجلست في مقعدها، وعادت إلى أوراق اللعب، ولكنها بدلا من أن تستقرئها الحظ، أسلمت رأسها إلى راحتها، وقد أسندت مرفقها إلى المنضدة، واستسلمت للتفكير، وهي تهمس لنفسها: "آه يا للزمن! ما أسرع ما يطير! ألم يكن ذلك منذ أمد بعيد؟ ومع ذلك فإني أكاد أتمثله الآن.. كان أرعن!".

وتبادرت الدموع إلى عينيها، واستطردت تحدث نفسها: "وها هي ذي "**ليـــزي**" الآن.. ولكنها ليست كما كنت في سنها.. إنها فتاة بديعة، ولكنها ليست كما كنت..".

ثم رفعت صوتها قائلة:

– "**ليزا**".. يجب أن ترتدي ثوبك "الموسلين" الليلة!

فقالت الفتاة وهي لا تتمالك نفسها، لمجرد التفكير في أنها ستلتقي بالضابطين:

– لماذا يا أماه؟ ما أراك ستدعينهما للجلوس معنا؟ يحسن ألا تفعلي يا ماما! والحق أن رغبتها في رؤيتهما كانت أقل من توجسها من الانفعال الطروب الذي تصورت أنه يرتقبها. ولكن "**آنا فيدوروفنا**" قالت وهي تربت رأسها:

– ربما رغبا هما في أن يتعرفا إلينا يا "**ليزي**"!

وقالت لنفسها: "لا، إن شعرها ليس كشعري حين كنت في سنّها.. أواه يا "**ليزي**"، لكن أتمنى لو أنك.." وكانت تتمنى مخلصة شيئا ما لابنتها. ولكنها لم تملك أن

تتصور أن يكون هذا الشيء زواجا من "كونت"، ولم تكن ترغب لابنتها علاقات كتلك التي كانت بينها هي وبين الأب.. ومع ذلك فقد ظلت تتمنى في لهفة شيئا ما.. ولعلها كانت تتوق إلى أن تبعث في نفس ابنتها ما خبرته هي مع الأب الذي مات!

وكان الفارس الكهل منفعلا هو الآخر، لمقدم الكونت، فحبس نفسه في غرفته، ثم خرج بعد ربع ساعة في سترة مجرية، وسروال (بنطلون) أزرق فاتح، ودخل الحجرة التي أعدت للزائرين، وقد غشيه سرور مستحيي كذلك الذي يغشى الفتاة حين ترتدي ثوب سهرة للمرة الأولى في حياتها. ثم قال:

– سأنظر كيف هم فرسان الفرقة الخفيفة اليوم يا أختاه! لقد كان الكونت المرحوم فارسا حقا، ومثلا للفرقة! سنرى!

*****

وصل الضابطان إلى الحجرة التي أفردت لهما عن طريق المدخل الخلفي. فهتف الكونت وهو يستلقي– بثيابه وحذاءيه– على السرير الذي أعد له:

– هاك! أرأيت؟ أليس هذا أفضل من الكوخ بصراصيره؟

فأجاب "**بولوزوف**":

– هذا أفضل طبعا، ومع ذلك.. أن نصبح مدينين لصاحبة الزمام.."

فقاطعه الكونت صائحا:

– هراء.. يجب أن يكون المرء عمليا في جميع الأمور. إنهم جد مسرورين، وأوكد لك.. آه، اسمع يا.. اطلب شيئا نسدله على النافذة، وإلا تعرضنا لتيار هوائي بالليل!

وفي تلك اللحظة، أقبل الفارس الكهل ليتعرف إلى الضابطين. ولم يغفل بالطبع أن يقول إنه كان والكونت المرحوم زميلين– وإن قالها وقد تضرج وجهه قليلا– وأنه نعم بالحظوة لدى الكونت.. بل وأضاف أنه كان أسير فضله مرة أو اثنتين. ولكنه أغفل أن يذكر أي فضل ذلك.. اهو إغفال الكونت أن يرد له المائة روبل التي اقترضها، أو هو تعمده أن يلقي به على الجليد الذائب، أو هو سبابه إياه أمام جمع من الناس.. وأبدى الكونت الشاب أدبا جما للفارس الكهل، وشكر له المأوى الذي أتيح له ولزميله. فقال

الكهل:

– يجب أن تلتمس لنا العذر، أيها الكونت إذا لم يكن مأوى فخما!

وكاد يلقبه بصاحب السعادة، وقد نسي عهده بمحادثة ذوي المكانة.. واستطرد قائلا:

– إن بيت أختي صغير، ولكنا سنسدل على النافذة ستارا في الحال، وسيصبح كل شيء كما تروم. وانحنى مغادرا الحجرة مسرعا. لا ليأمر بإحضار الستار، وإنما ليدلي بتقرير عن الضابطين.

وأقبلت "**أوستيوشكا**" الحسناء بشال سيدتها، فسدّت به النافذة، وقالت إن السيدة أمرتها بأن تسأل السيدين عما إذا كانا يرغبان في تناول بعض الشاي.. وبدا أن الوسط المريح قد أثّر على مزاج الكونت، فابتسم في طرب، ومازح "**أوستيوشكا**" حتى أوشكت أن تقول إنه سافل، وسألها عما إذا كانت سيدتها الصغيرة جميلة، وقال– ردا عن سؤالها إن كانا يريدان– شايا– أن لها أن تحضر الشاي، ولكن المهم هو أن تحضر شيئا من الشراب، وشيئا يؤكل إذا لم يكن عشاؤهما معدا.

وكان الخال متحمسا للكونت الشاب، فراح يطنب في امتداح أدبه، وفي إطراء الجيل الجديد من الضباط، قائلا إنه أرفع من الجيل الماضي بدرجة لا تدع سبيلا للمقارنة. ولم توافقه "**آنا فيدوروفنا**"، فما من رجل يستطيع أن يسمو على الكونت "**فيدور ايفانيتش توربين**".. وأخيرا، اتخذ غضبها مظهرا جديا، وقالت في جفاء:

– إن من يغلبك أخيرا، هو المفضل عندك يا أخي.. إن الناس أكثر مهارة اليوم طبعا، ولكن الكونت "**فيدور إيفانيتش**" رقص بإبداع، وكان لطيفا إلى درجة أن كل امرئ كان متهوسا من أجله، مع أنه لم يبد اهتماما بأحد سواي.. ومن ثم ترى أنه كان هناك أناس لهم قدرهم في الأيام السالفة كذلك!

وهنا بلغها طلب الشراب، والمنعشات الخفيفة، فقالت:

– أرأيت يا أخي إنك لا تتصرف قط التصرف الصحيح.. كان من الواجب أن تأمر بالعشاء.. مري بإعداده يا "**ليزا**"!

وهرعت "**ليـــزا**" إلى المخزن لتحضر بعض الفطريات المخللة، والزبد الطازج، وأمرت الطاهية بإعداد بعض الفطائر المحشوة. وقالت "**آنا فيدوروفنا**" :

– هل لديك شيء من شراب الشيري يا أخي؟

فقال:

– لا يا أختـاه، لم يكن لديّ شيء منه إطلاقـا! إنما الذي لدي "روم" يا "**آنـــــا فيدوروفنا**" !

فهتفت:

– أو ليس الاثنان سواء؟ أعطهما بعضه.. ولكن، ألا يكون من الأفضل أن ندعوهما إلى هنا يا أخي؟ إنك تعرف كيف تدعوهما، وما أظنهما يستاءان!

فقال الفارس الكهل إنه يشهد بأن الكونت الشاب ألطف من أن يرفض، وأسرع ليدعوهما. فذهبت "**آنا فيدوروفنا**" إلى حجرتها وارتدت ثوبا حريريا، وقلنسوة جديدة. ولكن "**ليزا**" كانت في شغل عن الثياب، فلم تجد وقتا لتستبدل ثوبها القطني الوردي ذا الكمين الفضفاضين. فضلا عن أنها كانت في أقصى درجات الانفعال، وقد تولاها شعور بأن شيئا بديعا في ارتقابها، وكان ثمة غمامة داكنة تخيم على روحها.. لاح لها أن الكونت الفارس الجميل، لابد أن يكون مخلوقا جديدا لا ندرك كنهه، ولكنه.. جميل! لابد أن تكون أخلاقه، وطباعه، وحديثه، من طراز غير عادي، يختلف عن كل ما صادفت من قبل.. كل ما يخطر بباله أو على لسانه لابد أن يكون حكيما، صوابا.. وكل ما يفعل لابد أن يكون مشرفا.. وكل مظهره لابد أن يكون جميلا.. أبدا ما داخلها ريب في ذلك. ولو أنه طلب حماما من "البراندي" والعطور– لا مجرد بعض المنعشات– لما دهشت، ولما لامته، بل لاقتنعت اقتناعا راسخا بأن هذا هو الصواب، وأنه ضروري!

ووافق الكونت لفوره عندما أنهى إليه الفارس الكهل رغبة أخته. فمسح شعره بالفرشاة، وارتدى زيه الرسمي، وأخذ علبة السيجار الذهبية. وقال لـ"**بولوزوف**" :

– هيا!

فقال هذا:

– من الخير ألا نذهب في الواقع!

ثم أردف بالفرنسية:

– لسوف نكبدهم الكثير ليكرمونا.

ولكن الكونت أهاب به، قائلا:

– هراء! لن يكونوا إلا سعداء بنا.

ثم عقّب بالفرنسية:

– ولقد قمت ببعض تحريات، فعلمت أن هنا ابنة جميلة.. فهيا!

وهنا قال الفارس الكهل بالفرنسية لمجرد إشعارهما بأنه الآخر كان ملما باللغة، وقد فهم ما قالاه:

– معذرة، أيها السيدان!

- ١٢ -

تضرج وجه "**ليزا**" وغضّت بصرها- وقد خشيت أن تنظر إلى الضابطين- وتشاغلت بملء إبريق الشاي، عندما دخل الضيفان الحجرة. أما "**آنا فيدوروفنا**"، فكانت على النقيض؛ إذ قفزت وبادرت إلى الانحناء، وشرعت تتحدث إلى الكونت الشاب دون أن تحول بصرها عنه.. فقالت إنه كان ذا شبه فذّ بأبيه، وقدمت إليه ابنتها، ثم راحت تقدم إليه الشاي، والمربّى، والحلوى المصنوعة في البيت. ولم يبد أحد أي اهتمام بحامل العلم، لتواضع مظهره وحيائه، فسرّ لذلك كل السرور؛ إذ كان- لوجه الحقيقة- يحملق في "**ليزا**"، ويتمعن جمالها الذي أدهشه، كما بدا واضحا. وكان الخال ينصت إلى حديث أخته مع الكونت، والكلمات تتزاحم على شفتيه، متربصا فرصة يروي فيها ذكرياته في الفروسية. وفي أثناء تناول الشاي

أشعل الكونت سيجارا، فلم تقو "**ليزا**" على أن تمنع نفسها من السعال. وكان كثير الكلام، لطيفا، راح- في البداية- يروي أقاصيصه في الفترات التي كانت تتخلل حديث "**آنا فيدوروفنا**" المتدفق، ولكنه ما لبث- في النهاية- أن انفرد وحده بالحديث.. شيء واحد أذهل مستمعيه. ذلك أنه كان يستخدم في قصصه كلمات لم تكن تعتبر نابية في الوسط الذي كان ينتمي إليه، ولكنها كانت تبدو- في الوسط الذي جلس فيه- جريئة أكثر مما ينبغي، حتى لقد انزعجت لها "**آنا فيدوروفنا**"، واشتد تضرج وجه "**ليزا**".. ولكن الكونت لم يلاحظ ذلك، وظل مطمئنا، منطلقا، متظرفا!

وملأت "**ليزا**" الأقداح في صمت، ولم تسلمها إلى يدي الزائرين، وإنما وضعتها على مائدة بالقرب منهما، وهي بعد لم تتغلب على انفعالها، وقد راحت تصغي إلى ما كان يبدر من الكونت. وما لبث حديثه- الذي لم يكن جد عميق بالنسبة لها- وتردده في الكلام، أن طمأن انفعالها رويدا. فهي لم تسمع منه الأشياء اللبقة البارعة التي توقعتها في خيالها. وعندما ملأت قدحه للمرة الثالثة بالشاي، التقت عيناها المستحييتان بعينيه، فلم يغض بصره، وإنما ظل ينظر إليها في هدوء، وبابتسامة خفيفة.. فشعرت بشيء من المسلك العدائي نحوه، وسرعان ما تبينت أنه لم يكن يختلف في شيء عن الناس الذين اعتادت أن تلقاهم، بل ولم يكن ثمة ما يدعو لأن تخشاه.. ومع أن أظافره كانت طويلة ونظيفة، إلا أنه لم يؤت شيئا فذا من معالم الجمال. وطوت "**ليزا**" حلمها فجاة- وإن لم تسلم من ألم داخلي- وازدادت هدوءا، ولم يعد يمضها سوى النظرات الصامتة التي شعرت أن حامل العلم كان يوجهها إليها.. وقالت لنفسها: "لعل فتاي ليس ذاك الضابط، وإنما هذا!"

- ١٣ -

دعت السيدة العجوز ضيفيها- بعد الشاي- إلي حجرة الجلوس. واستوت ثانية في

مقعدها المألوف، وهي تتساءل:

– ما أظنك تريد أن ترتاح يا كونت؟

فلما تلقّت جوابه بالنفي، قالت:

– ترى ما الذي أستطيع أن أفعله لتسلية ضيفينا العزيزين؟ أتلعب الورق يا كونت؟ إذن، فعليك يا شقيقي أن تهيئ لنا لعبة.

فقال الفارس:

– إنك تجيدين لعبة "الترجيج"(١)، فلماذا لا نلعبها جميعا؟ أتلعب يا كونت؟ وأنت الآخر؟

فأعرب الضابطان عن استعدادهما لأن يفعلا كل ما يروق لمضيفيهم الكرماء!

وأحضرت "**ليـزا**" مجموعة أوراق اللعب القديمة التي كانت تستخدمها لاستطلاع المستقبل ومعرفة متى يزول تورم وجه أمها، أو متى يعود خالها– إذا ما ذهب إلى البلدة– أو هل يزورهم أحد من الجيرة، أو ما إلى ذلك. وكانت هذه المجموعة أنظف من المجموعة التي كانت أمها تستخدمها لاستقراء الحظ. وتساءل خالها:

– ولكن، لعلكما لا تلعبان لقاء مراهنات صغيرة.. إنني ألعب مع "**آنا فيـدوروفنا**" على أنصاف كوبكات.. ومع ذلك فهي تكسب كل أموالنا!

فقال الكونت:

– أية مراهنات تروق لكم، تسرني!

فقالت "**آنا فيدوروفنا**":

– حسنا، إذن.. فليكن الرهان "كوبك" ورقيا واحدا، لمرة واحدة، إكراما لضيفينا.. فليناورائي أنا العجوز المسكينة!

وقالت في سريرتها، إذ استولى عليها في شيخوختها شغف بسيط بالمقامرة:

– لعلّي أكسب منهما "روبل" أو حوالي "الروبل"!

وقال الكونت:

---

(١) في هذه اللعبة يتبارى اللاعبون في إعلان الحيل التي تمكنهم أوراقهم من إتيانها والذي يذكر أعلى رقم يختار مجموعة الورق التي يستخدمها ويؤدي الحيل التي اعلنها وإلا دفع الغرامة واللاعب الذي يعلن إنّه بائس يعني أن لا حيل لديه فإذا قام بحيلة ما دفع الغرامة واصطلاح "آس وفاليه على بياض" معناه أنّ اللاعب يحمل اعلى ورقتين.

– إذا شئتم علمتكم كيف تلعبون "البائس"، فهي طريقة بديعة!

ورغب كل امرئ في أن يتعلم الطريقة الجديدة التي شاعت في "**بطرسبورج**". وزعم الخال أنه كان يعرفها، ولكنه نسيها قليلا. بيد أن "**آنا فيدوروفنا**" لم تستطع أن تفهمها البتة، رغم طول التكرار، حتى اضطرت في النهاية إلى أن تبتسم وتهز رأسها وتقول إن كل شيء أصبح واضحا لها.. ولم يضحك أحد عندما أعلنت– خلال اللعب– أنها "بائس" مع أنها كانت تمسك في يديها "آس وفاليه على بياض"، وضاعت عليها ست حيل.. وما لبثت أن ارتبكت، وتبدت عليها الحيرة والتردد، ثم قالت إنها لم تألف الطريقة الجديدة. ومع ذلك فقد ظل الكونت مصرا على الكسب منها، رغم الغمزات التي راح زميله يزجيها إليه بقدمه تحت المائدة!

وأحضرت "**ليزا**" مزيدا من الحلوى، وثلاثة أنواع من المربى، ونوعا خاصا من التفاح حفظته منذ الموسم السالف. ووقفت خلف أمها تراقب اللعب، وتنظر إلى الضابطين– من آن لآخر– مختلسة النظر، بوجه خاص إلى يدي الكونت البيضاوين– بأظافرهما الوردية المعنى بها– وقد راحتا تتداولان الأوراق برشاقة ومران وثقة.. ومرة أخرى خسرت "**آنا فيدوروفنا**"، فاشتد استياؤها. وقالت "**ليزا**" تسرّي عنها، وتحاول أن تعينها على الموقف السخيف:

– لا تكترثي يا أماه، فلسوف تكسبين كل ما خسرت.. دعي خالي يغش، فهو لن يلبث أن يفتضح!

فرمقت "**آنا فيدوروفنا**" ابنتها بنظرة مرتاعة، وهتفت:

– ليتك تساعدينني، يا "**ليزا**" العزيزة!

فأجابت "**ليزا**":

– ولكنني لا أعرف هذه الطريقة أنا الأخرى، وما أرى إلا أنك ستخسرين مبلغا كبيرا، ولن يتبقى شيء لثوب "**بيموشكا**" الجديد!

فقال حامل العلم، وهو يتطلع إلى "**ليزا**"، تواقا إلى مجاذبتها أطراف الحديث:

– أجل من السهل أن يخسر المرء– بهذه الطريقة– عشرة روبلات فضية!

وأمرت السيدة العجوز ببعض النبيذ الخفيف المصنوع في البيت فشربت قدحين، واشتد احمرار وجهها، وبدا أنها وطدت العزم على أن تتحمل أي حظ يصيبها. وأفلتت خصلة من شعرها الأشيب، فلم تحاول أن تردها إلى مكانها. وما من شك في أن المبلغ الذي خسرته بدا لها كما لو كان بالملايين، فتحمّست لاسترداده. وأخذ حامل العلم يكثر من دفع صاحبه بالقدم، تحت المائدة.. وأخيرا انتهى اللعب، بالرغم من محاولات "**آنا فيدوروفنا**" الخبيثة، بتعمد الأخطاء في الجمع، كي تزيد من مرات كسبها. ومع ذلك فقد اشتد بها الجزع إذ بلغت خسائرها أكثر من اثنين وثلاثين من الروبلات الورقية... ولم يحفل الكونت بجمع أرباحه بل نهض لفوره، وسار إلى النافذة التي كانت "**ليزا**" تقف عندها منهمكة في تنسيق بعض المخللات للعشاء. وهناك فعل ما كان حامل العلم يحاول طيلة الأمسية أن يفعله دون أن يفلح.. استطاع أن يجاذبها الحديث حول الجو! وفي تلك الأثناء، كان حامل العلم في موقف محرج. فإن "**آنا فيدوروفنا**" بدأت تفرج عن غضبها في غياب الكونت، وفي غياب "**ليزا**" بوجه خاص؛ إذ كان وجودهما يسرّي عنها!

وقال "**بولوزوف**" لمجرد أن يقول شيئا:

– لقد كان من المعيب أن نكسب منك كل هذا في الواقع.. إنه لمخجل حقا!

فصاحت:

– طبعا، مادمتم تبتكرون طرقا جديدة لا أعرفها.. حسنا، كم بلغ المجموع بالعملة الورقية؟

فقال أخوها الذي أطربه أن كان رابحا:

– اثنان وثلاثون روبل ورقي.. وربع! هات النقود يا أختاه.. ادفعي!

فصاحت:

– سأدفعها جميعا، ولكنك لن تستدرجني ثانية.. إنه مبلغ لن استرده ما حييت!

ونهضت مسرعة إلى حجرتها، وهي تتمايل، وعادت بالنقود. واستولى الخوف على "**بولوزوف**" خشية أن تعنف "**آنا فيدوروفنا**" معه إذا تحدث إليها، فتركها في صمت

وهدوء، وانضم إلى الكونت و"**ليزا**" اللذين كانا يتكلمان عند النافذة.

أخذت نسمات ليل شهر مايو (أيار) العليلة تداعب- بين آن وآخر لهب الشمعتين الكبيرتين اللتين قامتا على المائدة التي أعدت للعشاء، في حجرة الجلوس.. وكان النور يغمر الحديقة التي كانت النافذة تطل عليها، ولكنه نور من نوع آخر.. نور القمر الذي أوشك أن يكتمل، وقد راح يسبح فوق قمم أشجار الزيزفون السامقة، وهو يضاعف من تألق السحب البيضاء التي كانت تضفي على وجهه غلالة رقيقة، بين الحين والحين.. وكانت الضفادع تنق عاليا، بجوار البركة التي خلع القمر على أحد جانبيها بريقا فضيا، كان يتضح للأنظار عبر الطريق المحفوفة بالأشجار.. وأخذت بعض الطيور ترفرف وئيدا، أو تتواثب من غصن إلى غصن في مجموعة من أشجار البنفسج الشذية التي كانت فروعها تتمايل في دلال نحو النافذة.. وقال الكونت لـ"**ليـزا**"، وهو يجلس على حافة النافذة المنخفضة:

- يا له من جو بديع.. أعتقد أنك تكثرين من الرياضة هنا؟

فأجابت "**ليزا**"، وهي لا تشعر بأي خجل من الحديث معه:

- أجل فحوالي السابعة من كل صباح أعنى بتفقد رغبات أمي في الضيعة واصطحب "**بيموشكا**"- خادمة أمي الخاصة- في نزهة على الأقدام.

فقال وهو يثبت عوينة (مونوكل) على إحدى عينيه، وينقل بصره بين "**ليـــزا**" والحديقة:

- إن الحياة في الريف تشرح الصدر.. أولا تخرجين قط بالليل للنزهة على ضوء القمر؟

- لا، ولكني اعتدت- قبل عامين- أن أتمشى مع خالي في كل ليلة مقمرة. إذ كان يعاني من مرض غريب.. لم يكن بوسعه أن ينام عندما يكون القمر بدرا؛ إذ إن غرفته الصغيرة تطل على الحديقة مباشرة.. ومع أن نافذتها منخفضة إلا أن ضوء القمر ينساب خلالها مباشرة!

وأومأت نحو غرفة خالها، فقال الكونت:

- عجيب.. لقد ظننتها غرفتك.

وكان جوابها:

– لا، فلن أنام فيها سوى الليلة.. فقد خصصت غرفتي لكما.

وهتف الكونت:

– أحقا هذا؟ ويلي! لن أغفر لنفسي أن أزعجتك.

وترك العوينة تسقط على صدره، إظهارا لاستيائه، وأردف:

– لو أنني عرفت بأنني سأزعجكم..

فقالت:

– لا إزعاج هناك، بل إنني– على النقيض– مسرورة، فإن حجرة خالي بديعة، ومشرقة بالضوء، ونافذتها منخفضة، بحيث أستطيع أن أجلس فيها إلى أن يواتيني النعاس، أو أن أهبط إلى الحديقة فأتمشى قليلا قبل أن آوي إلى فراشي.

وقال الكونت لنفسه، وهو يعيد العوينة إلى عينه، ويتأملها:

– يا لها من فتاة رائعة!

وحاول أن يمس قدمها بقدمه، وهو يتظاهر بإصلاح جلسته على حافة النافذة.. "وما أبرعها إذ أطلعتني على أنني أستطيع أن أراها من الحديقة وهي تجلس في النافذة، إذا شئت!". وخيل إليه أن النصر سهل، ففقدت "**ليزا**" في نظره بعض سحرها، وما لبث أن قال، وهو يرسل البصر إلى الطريق المحفوفة بالأشجار:

– وما أبهج أن يقضي المرء ليلة كهذه في الحديقة مع حبيب!

وارتبكت "**ليزا**" لهذه الكلمات، ولتكرر لمسات قدمه لقدمها. فقالت– دون تفكير– محاولة أن تخفي اضطرابها:

– أجل، فإن المشي تحت ضوء القمر جميل!

وبدأت تشعر بشيء من عدم الارتياح. وهمّت أن تنصرف بوعاء "المخللات"، عندما انضم إليهما حامل العلم، فشعرت برغبة في أن تتبين أي نوع من الرجال هو الآخر!

وقال الشاب:

– ما أجملها من ليلة!

فقالت لنفسها: "لا حديث لهما إلا عن الطقس!". واستطرد "**بولوزوف**":

– وما أبدعه من منظر! ولكني أحسبك قد مللته!

فتساءلت:

– ولماذا تحسب ذلك؟ من المحتمل أن يمل المرء ثوبا أو غذاء طال تعوده إياه، ولكن.. كيف يمل المرء حديقة جميلة، يولع بأن يتمشى خلالها.. لاسيما عندما يكون القمر مشرقا؟! إن البركة تبدو واضحة خلال نافذة خالي، وسأملي النظر منها الليلة!

فقال الكونت وقد ساءه أن حلل مقدم زميله دون أن يستوثق من موعد الليلة:

– ولكني لا أظن أن لديكم أية بلابل في هذه المنطقة.

فقالت:

– لا، غير أنه كانت هنا بعض البلابل منذ عام، ولكن الصيادين وأجراس العربات أخافتها.. ولقد كنت– منذ عامين– أجلس مع خالي في الدرب المغطى بفروع الشجر فننصت إليها لساعتين أو أكثر!

وبعد العشاء– الذي راح الكونت خلاله يطري الطعام، ويقبل عليه مما بدّد بعض ضيق رب البيت– تمنّى الضابطان لمضيفيهما ليلة هانئة، وذهبا إلى حجرتهما.. ولقد صافح الكونت الفارس الكهل، وشد ما كانت دهشة "**آنا فيدوروفنا**" عندما صافحها هي الأخرى، دون أن يقبّل يدها.. كما صافح "**ليزا**"، وهو يحملق في عينيها، وعلى شفتيه ابتسامته اللطيفة. وكم أخجلت نظرته الفتاة في هذه المرة، وجعلتها تقول لنفسها: "إنه مليح الطلعة جدا، ولكنه كثير الاغترار بنفسه"!

– ١٤ –

قال "**بولوزوف** لصاحبه حين أصبحا في غرفتهما:

– ألم تخجل من نفسك؟ لقد تعمدت أن أخسر، وظللت أمس قدمك، تحت المائدة. ألست في خجل؟ لقد استاءت السيدة العجوز أيما استياء!

فضحك الكونت من قلبه، وقال:

– لكم كانت مضحكة تلك السيدة العجوز!

وظل يضحك في مرح، حتى إن "**جوهان**"– الذي كان يقف أمامه– أشاح بوجهه ليخفي ابتسامة.. بينما تابع الكونت حديثه وهو يضحك:

– وتصور أن يصيبها هذا مع ابن صديق للأسرة!

فقال "**بولوزوف**":

– لا لقد كان تصرفك سيئا في الواقع. لقد كنت شديد الأسف من أجلها!

فصاح الكونت:

– ياله من هراء! وكم أنت صغير، عديم التجربة.. لماذا أردتني على أن أخسر؟ ولماذا ينبغي على المرء أن يخسر؟ لقد ألفت الخسارة قبل أن أتعلم اللعب! ثم إن عشرة روبلات قد تكون ذات نفع يا عزيزي. انظر إلى الحياة نظرة عملية، وإلا بقيت دائما في ضيق!

ولزم "**بولوزوف**" الصمت، لاسيما وأنه رغب في هدوء يفكر خلاله في "**ليزا**" التي تراءت له ذات طهر وجمال غير عاديين. وخلع ثيابه، ثم استلقى على السرير الوثير، النظيف، الذي أعدّ له. وقال لنفسه وهو ينظر إلى النافذة التي أسدل عليها الشال بدل الستار، فتسلل نور القمر خلال النسيج. "أي عبث هذا الشرف والمجد العسكريين.. إن السعادة في العيش في عش هادئ، مع زوجة حبيبة، عاقلة، ساذجة الفؤاد.. أجل هذه هي السعادة الحقة. الدائمة!".

على أنه لم يفض لصديقه بهذه الخواطر– لسبب ما– ولم يثر ذكر الفتاة الريفية، رغم أنه كان موقنا من أن الكونت– هو الآخر– كان يفكر فيها!

وقال للكونت الذي كان يذرع الحجرة:

– لم لا تخلع ثيابك؟

فأجابه:

– لا أحس برغبة في النوم بعد. تستطيع أن تطفئ الشمعة إذا شئت، وسأستلقي على الفراش بثيابي!

وواصل السير في الحجرة، فقال "**بولوزوف**" الذي شعر- بعد سهرة الليلة- بمزيد من عدم الرضا عن نفوذ الكونت وتأثيره عليه، وخالجه الميل إلى التمرد على هذا الوضع:

- لا تشعر برغبة في النوم بعد؟!

وقال في سريرته، وكأنه يخاطب "**توربين**" في العلن:

- بوسعي أن أتصور ما يجري الآن في رأسك ذي الشعر المنسق. لقد رأيت مدى إعجابك بالفتاة، ولكنك غير كفء لأن تفهم مثل هذه الأنثى الساذجة، الشريفة.. إنما تشتهي امرأة مثل "**مينا**" وإشارات الكتف الخاصة بضابط في رتبة "كولونيل".. يجب أن أسألك حقا عن رأيك في الفتاة".

والتفت إليه، ثم عدل عن رأيه، فقد شعر بأنه لن يقوى على أن يتشبث برأيه أمام رأي الكونت عن "**ليزا**" إذا كان مخالفا لما ينبغي، وقد يعجز عن أن يتحاشى موافقته، فقد اعتاد أن يرضخ لتأثير الكونت، رغم أنه يشعر- يوما بعد يوم- بأن هذا التأثير أصبح يثقله ويضنيه.

وقال إذ رأى الكونت يرتدي قلنسوته ويسعى إلى الباب:

- إلى أين أنت ذاهب؟

فأجابه:

- سأذهب لأتفقد الأحوال في حظائر الخيل.

وهتف الشاب في سريرته:

- عجيب!

ولكنه أطفأ الشمعة، وولّى وجهه شطر الحائط، محاولا أن يطرد عن ذهنه أفكارا سخيفة سداها الغيرة ولحمتها العداء نحو صديقه.

وفي تلك الأثناء كانت "**آنا فيدوروفنا**" قد آوت إلى مخدعها بعد أن قبّلت أخاها وابنتها ووصيفتها- كعادتها- ورسمت علامة الصليب على صدر كل منهم.. وكان قد انقضى زمن طويل مذ تعرّضت السيدة العجوز لمثل هذا العدد من

الانفعالات القوية في يوم واحد، فلم تستطع أن تؤدي صلاتها في هدوء، ولم تقو على أن تطرح عنها الذكريات المحزنة، الحية.. ذكريات الكونت المتوفى، والشاب المتأنق الذي غشها في غير إشفاق على أنها ما لبثت أن خلعت ثيابها، وشربت نصف قدح من "الكفاس"(١)، ثم رقدت على سريرها. وتسللت قطتها المدللة إلى الحجرة في خفة، فنادتها "**آنا فيدوروفنا**"، وشرعت تمسح على ظهرها، وتنصت إلى هريرها(٢). بيد أنها لم تستطع النوم، فقالت لنفسها: "لابد أن القطة هي التي تستبقيني مؤرقة!"، وطردتها من السرير، فقفزت إلى الأرض بخفة، وسارت- وهي تحرك ذيلها المنفوش- فقفزت فوق المدفأة. وأقبلت الوصيفة التي كانت تنام في حجرة "**آنا فيدوروفنا**"، فبسطت فراشا من اللباد على الأرض، وأطفأت الشمعة، وأوقدت فتيلة أمام الأيقونة، وسرعان ما ارتفع غطيطها.. ولكن النعاس لم يواتها، فإذا أغمضت عينيها، كان وجه الفارس الشاب يتمثّل لها، ويخيل إليها أنه كان في الحجرة متنكرا في أي شيء. وإذ ذاك كانت تفتح عينيها، وتتأمل كل شيء حولها على ضوء الفتيلة.. وأحسّت بحرارة تدب في جسدها.. ولم تعد تحتمل دقات الساعة التي كانت تعلو المنضدة، ولا غطيط الخادم، حتى إنها أيقظتها وأمرتها بألا ترسل غطيطا! وعاودتها الأفكار التي كانت تدور حول ابنتها، والكونت الراحل، وابنه الشاب، ولعب الورق.. واختلطت الأفكار جميعا، فكانت تتمثل نفسها وهي تراقص الكونت القديم، وتشعر قبلاته على كتفيها الناصعتين.. ثم تتمثل أنها في أحضان الكونت الشاب.. وراحت تقول لنفسها: "لا، إن الناس اليوم غيرهم بالأمس.. كان الكونت الآخر على استعداد لأن يشب في النار من أجلي، وكان على حق. أما هذا الكونت فينام كالأحمق، سعيدا بأن ربح مني.. فلا غرام يستهويه! ما كان أروع الآخر إذا جثا على ركبتيه قائلا:

– ما الذي تريدينني أن أفعل؟ إنني على استعداد لأن أقتل نفسي إذا شئت! ولو إنني طلبت لقتل نفسه!

وفجأة سمعت وقع قدمين عاريتين في الردهة، ثم اندفعت "**ليزا**"– وعلى كتفيها

---

(١) مشروب غير مسكر، يشبه "السوبيا" في مادته وطريقة صنعه. (٢) الصوت الباطني الذي تحدثه القطة عادة.

شال- فارتمت على سرير أمها وهي شاحبة ترتجف!

*****

كـانت "**ليـزا**" قد أوت وحيدة إلى الغرفة التي كانت لخالها من قبل، فارتدت سترة بيضاء، ولفّت رأسها الغزير الشعر بمنديل، وأطفأت الشمعة، وفتحت النافذة وجلست على مقعد عندها مرسلة بصرها إلى بركة الماء التي كانت تلمع في ضوء القمر الفضي.. وانبعث أمامها- فجأة- كل ما كان يشغل بالها، وقد تبدى على ضوء جديد: أمها العجوز الكثيرة النزوات- التي أصبح حبها الأعمى لها جزءا من نفسها- وخالها المتداعي اللطيف، ورقيق الدار ورقيق القرية الذين كانوا يعشقون مولاتهم الصغيرة، والبقر والعجول، وكل هذه الطبيعة التي كانت تموت وتبعث مرات لا حصر لها، والتي نشأت في غمارها، محوطة بخلق تحبهم ويحبونها.. كل هذه الأمور التي اعتادت أن تضفي على روحها إشراقا وسكينة ناعمة، بدت لها- فجأة- غير كافية لإرضائها.. بل بدت كئيبة، غير ذات قيمة، وكأنما كان ثمة هاجس يهيب بها:

- أيتها الحمقاء الصغيرة.. لقد عشت عشرين عاما في السفاسف، تخدمين الغير دون أن تدري لذلك سببا، دون أن تدركي ما هي الحياة، وما هي السعادة!

وراحت تغوص ببصرها في الحديقة التي أسبغ القمر عليها نوره.. ترى ما الذي بعث في بالها هذه الخواطر؟ لم يكن السبب حبا طارئا تولاها نحو الكونت كما قد يخيل للمرء، فهي- على عكس- لم تمل إليه.. وكان من المحتمل أن تكون أكثر استعدادا لأن تميل إلى زميله لولا أنه كان غير مليح، وكان ساذجا، صموتا، فظلت تنساه- على غير تعمد-وتتذكر طيف الكونت في غضب وحنق، إذ أيقنت أنه لم يكن المثل الأعلى الذي اعتادت أن تحلم به.. كان مثلها الأعلى مفرط الجمال في كل شيء، جديرا بالحب في مثل هذه الليلة، وبين هذه الطبيعة، دون أن يصرفها عن جمال ما حولها..

ولقد أدّت الوحدة التي كانت تعيش فيها من قبل- في غياب من يحتمل أن

يسترعي انتباهها- إلى أن ظلت قوة الحب، التي أودعتها العناية في كل منا على قدم المساواة، هادئة، ساكنة في صدرها. فعاشت طويلا في سعادة آسية كان يبعثها الشعور بوجود هذه القوة في أعماقها، وكانت تفتح مغاليق قلبها- بين حين وآخر- لكي تتأمل كنوزه، حتى تغدق منها على أي امرئ دون تفكير. فليدعها الله تنعم بهذه النعمة النادرة إلى نهاية عمرها.. فمن يدري أنها ليست خير النعم وأقواها، وأنها ليست السعادة الحقة، والميسورة؟! وهتفت الفتاة لنفسها: "أواه يا إلهي، أيها الرب.. أمن المحتمل أن أكون قد بددت شبابي وهنائي عبثا، وأنني لن أحظى قط.. لن أحظى قط..؟" وتطلّعت إلى أعماق السماء التي أنارها القمر، وغطتها سحب كالصوف المندوف، حجبت النجوم، وأخذت تسعى نحو القمر. ثم قالت لنفسها: "لو قدر لهذه السحابة الصغيرة أن تصل إلى القمر، فستكون هذه إشارة إلى أن ما يجول بخاطري صحيح!

وسبحت السحابة الصغيرة الرقيقة، فغطّت الجزء الأسفل من قرص القمر، وإذا بعتمة تدب في الضوء الذي كان يترامى على الحشائش، وعلى قمم أشجار الموالح، وعلى البركة.. وازدادت ظلال الأشجار قتامة.. وسرت خلال أوراق الشجر ريح خفيفة- كأنها تتم التناسق بين الظلال القاتمة- فحملت إلى النافذة عبير الخضرة المخضلة بالندى، والمتربة الرطبة، والبنفسج!

وقالت الفتاة تواسي نفسها: "لا.. إذا غرّد العندليب الليلة، فستكون هذه إشارة إلى أن كل ما أفكر فيه هراء، وأن لا داعي لأن أياس!".. وسكنت في جلستها طويلا، ترتقب شيئا ما، بينما عاد الإشراق إلى كل شيء، ثم عادت السحب الصغيرة تسبح عابرة أمام قرص القمر، مشيّعة العتمة في كل شيء. وكان النعاس قد بدأ يراود أجفان الفتاة، عندما انبعث من لدن البركة شدو العندليب فأيقظها من إغفائها.. وفتحت العذراء الريفية عينيها، وانتعشت روحها مرة أخرى ابتهاجا بتلك الرابطة الغامضة التي كانت تربط بينها وبين الطبيعة التي استلقت أمامها مشرقة، هادئة.. وأسندت ذراعيها إلى حافة النافذة، وأطلت.. وغشي قلبها شعور بأسى عذب، ناعم.. وملأت عينيها دموع حب طاهر شاسع، يهفو إلى الري.. دموع مسرية، مواسية. وأسندت

الفتاة رأسها إلى ذراعيها وجالت بخلدها أدعيتها المفضلة، ثم نامت وعيناها مخضلتان بالدموع.

وأيقظتها لمسة.. لمسة كانت خفيفة، ولطيفة. واشتد ضغط اليد على يدها. وفجأة، تنبهت إلى الواقع فصرخت، وقفزت، وهرعت مغادرة الحجرة، وهي تحاول أن تقنع نفسها بأن الذي كان يقف في ضوء القمر- في الحديقة- لم يكن الكونت.. بل كان طيفا!

- ١٥ -

والحق أنه كان الكونت. وعندما سمع صرخة الفتاة، وحشرجة منبهة من الحارس الساهر خلف سياج الحديقة- وقد نبهته الصرخة- اندفع عبر الحشائش المنداة إلى جوف الحديقة، وقد خامره شعور اللص الذي أوشك أمره أن يفتضح.. وراح يردد لنفسه: "يا لي من أحمق!" لقد أخفتها.. كان خليقا بي أن أتلطف في إيقاظها بأن أتحدث إليها في رفق.. يا لي من جلف!". وتوقف وأصغى، فإذا الحارس قد نفذ إلى الحديقة، وهو يجر عصاه خلفه. وأسرع الكونت إلى البركة ينشد مخبأ، فأفزعته الضفادع، إذ قفزت من تحت قدميه إلى الماء.. ومع أن حذاءيه ابتلا، إلا أنه جلس القرفصاء، وراح يستعيد كل ما جرى.. كيف بحث عن نافذتها، وكيف رأى- أخيرا طيفا أبيض، وكيف اقترب من النافذة ثم ابتعد عنها مرارا، وهو ينصت إلى أتفه صوت.. كيف كان يشعر- في لحظة- بيقين من أنها كانت تنتظره مستاءة لتأخره .. ثم يشعر- في اللحظة التالية- بأن من المستحيل أن تكون قد قبلت أن تلقاه بمثل هذه السهولة.. ثم كيف أقنع نفسه- أخيرا- بأن خجل العذراء الريفية هو الذي جعلها تتظاهر بالنوم على حافة النافذة، فسار إليها في عزم.. ثم نكص على عقبيه.. وبعد أن عيّر نفسه مرارا بالجبن، اقترب في جرأة، ومسّ يدها!

ومرة أخرى، أرسل الحارس سعالا أجش، ثم غادر الحديقة.. وأغلق مصراعا نافذة الفتاة، وسمع رتاجهما يحكم من الداخل.. وكان هذا مثيرا لأساه.. كان على

استعداد لأن يضحي بأي شيء في سبيل فرصة تمكنه من أن يبدأ من جديد، فلا يتصرف بغباء كما فعل.. وراح يقول لنفسه: "فتاة رائعة.. ناضرة.. فاتنة إلى هذا الحد.. ومع ذلك فقد تركتها تفلت من بين أصابعي.. يا لي من نذل أحمق!". وأبى أن ينام، فراح يسير على غير هدى في الطريق التي كانت تحف بها أشجار الموالح! وإذ ذاك أسبغ الليل عليه- هو الآخر- منحه الناعمة.. منحة الأسى المستعذب، والشعور بالحاجة إلى الحب.. وكانت أشعة القمر الواهنة تلقي نقاطا من الضوء خلال الأفنان الكثيفة، على الأرض، حيث نمت بعض فروع من العشب، أو تناثرت بعض أغصان ميتة.. وكان ثمة ضوء يسقط على غصن منحن، فيجعله يبدو وكأنه مكسو بطبقة بيضاء.. وكانت أوراق الشجر المفضضة تتهامس من آن إلى آخر. ولم يكن ثمة ضوء في الدار، كما كان الصمت يرفرف على الكون، وفيما عدا صوت بلبل لاح أنه كان يملأ الفضاء المشرق، الساكن، الذي لا نهاية له.. وهتف الشاب وهو يملأ صدره بعبير الحديقة:

- أواه، يا ربي...! أية ليلة هذه! يا لها من ليلة رائعة! ومع ذلك فإني أشعر بشيء من الحسرة، وكأنني غير قانع بنفسي.. غير راض عن الناس، وغير راض عن الحياة بأسرها.. يا لها من فتاة حلوة، بديعة! لعلها تأذت مني حقا، أو أصيبت بضر!

وهنا اختلطت أحلامه بعضها ببعض، فأخذ يتمثل نفسه مع الريفية العذراء في الحديقة، في أوضاع عديدة، غريبة. ثم حلّ طيف خليلته "**مينا**" محل طيف الفتاة، فهتف لنفسه: "يا لي من أحمق! لم يكن ينبغي عليّ سوى أن أحيط خصرها بذراعي، وأقبلها!"

وعاد الكونت إلى حجرته. وهو في حسرة، فإذا زميله لايزال مستيقظا، وإذا به يتقلّب في فراشه، ويلتفت إليه. فسأله:

- ألم تنم بعد؟

فأجاب "**بولوزوف**":

– لا . .

وعاد الكونت يقول :

– هل أنبئك بما حدث؟

– فقال الآخر :

– هات ما عندك .

– لا، يحسن ألا أخبرك . أو لا بأس سأخبرك!

وابتسم وهو يجلس على حافة سرير صاحبه، وقال :

– هل تصدق أن السيدة الصغيرة واعدتني على اللقاء!

فقفز "**بولوزوف**" من فراشه صائحا :

– ما هذا الذي تقول؟

وأهاب به الكونت :

– ألا استمع إليّ .

ولكن الشاب صاح :

– ولكن . كيف؟ ومتى؟ إنه مستحيل!

– كان ذلك بينما كانت تجمع الحساب عقب اللعب . . فقد أخبرتني أنها ستجلس في النافذة بالليل، وأن من السهل أن ينفذ المرء من هذه النافذة . أرأيت جدوى أن يكون المرء عمليا؟! ألم تسمعها بنفسك تقول– أثناء وقوفك معنا– إنها ستجلس إلى النافذة بالليل، وتتأمل البركة؟!

– بلى، ولكن هذا لم يكن يعني شيئا . .

– هذا عين ما لم أستطع إدراكه : هل قالت ذلك متعمدة، أو أنها لم تكن ترمي إلى غاية؟ من المحتمل أنها لم تكن راغبة حقا في أن توافق بهذه السرعة، ولكن الأمر لاح على النقيض . وانتهى أبشع نهاية . . لقد تصرفت بحماقة!

وابتسم ازدراء لنفسه، فتساءل "**بولوزوف**"

– ماذا تعني؟ وأين كنت؟

فتناسى الكونت ما حاول أن يوقعه في روع صاحبه، وروى له كل ما حدث، ثم أردف:

– لقد أفسدت الفرصة بنفسي.. كان ينبغي أن أكون أكثر جرأة. ولكني جعلتها تصرخ وتجري مبتعدة عن النافذة.

فابتسم حامل العلم في غير ارتياح ردا على ابتسامة الكونت التي ظلت أمدا ذات أثر كبير عليه، وقال:

– إذن فقد صرخت وهربت!

فقال الكونت:

– أجل. ولكن، لقد آن لنا أن ننام!

وعاد حامل العلم يولي وجهه شطر الحائط، وظل صامتا عشر دقائق. ولا يعلم سوى الله ما كان يدور في نفسه، ولكنه– حين التفت ثانية– كان يحمل على وجهه أمارات العذاب، والعزم. فقال فجأة، وبخشونة:

– كونت "**توربين**"!

وأجاب الكونت في هدوء:

– أتهذي؟ ماذا هناك أيها الضابط "**بولوزوف**"؟

فصاح "**بولوزوف**":

– كونت "**توربين**".. إنك لوغد!

وقفز من فراشه مرة أخرى.

– ١٦ –

بارحت الفصيلة القرية في اليوم التالي. ولم يكن الضابطان قد التقيا بمضيفيهما مرة أخرى، ولم يودعاهم.. لا ولم يكلم كل منهما الآخر، بل عقدا العزم على أن يتبارزا في أول مركز تنزل فيه الفصيلة. ولكن الكابتن "**شولز**"– وكان ضابطا طيبا، وفارسا رائعا،

وشخصية محبوبة من كل امرئ في الكتيبة، وقد اختير ليكون شاهد الكونت- استطاع أن يسوي المسألة خير تسوية، فلم يقتصر الأمر على أن الضابطين الفارسين لم يتبارزا فحسب، بل إن أحدا في الكتيبة لم يعلم بالمسألة. وظل "**تـوربـين**" و"**بـولـوزوف**" يتبادلان الأحاديث العادية، إذا ما التقيا في حفلات العشاء والمقامرة، وإن لم يعودا إلى صداقتهما السالفة وودهما القديم!

تمّت بعون الله

هذه فرصتك الآن...

أرسل طلبك اليوم ..!

الروايات الكاملة... والمعرَّبة لشوامخ الكتاب العالميين.

كتب لا تموت ولن تموت... من **روائع الأدب العالمي**...
وباللغة العربية.

أخي القارئ العربي :

تحية طيبة وبعد،

هذه فرصتك الآن لقراءة أشهر القصص والروايات العالمية المعرّبة لشوامخ الكتَّاب العالميين وباللغة العربية.

لقد قمنا بترجمة هذه الروائع ترجمة أمينة وصحيحة ومنقَّحة بلغة عربيَّة صحيحة وَسَلِسَة يفهمها الكبار والصغار. فلا غِنى لك أو لأحد أفراد عائلتك من البدء في شراء هذه الكتب التي تُثري مكتبتك.

هذه فرصتك اليوم.. وليس غداً.

إنّ دار **البشير** تتيح لك هذه الفرصة النادرة للإطلاع على حضارات وروائع أشهر كتَّاب العالم.

وقد قامت بترجمة هذه الروائع من لغات مختلفة واضعة بين يديك دائماً قصص وروايات عالمية قد تفيدك في دراسة الآداب العالمية.

فما عليك سوى الكتابة إلينا لنُرسِل لك مجاناً لائحة مفصَّلة بآخر إصدارتنا من هذه السلسلة العالمية.

قصص وروائع جديدة تصدر كل شهر...

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى تاريخ طباعة الكتاب الموجود بين يديك .

سارع الآن بإرسال طلبك.

ولا تنسى أن تُرْسِل شيك بقيمة ما تطلب من كتب حتى لا تُهْمَل رسالتك.

تُرسَل الطلبات بموجب شيك مصرفي باسم "**دار البشير**" مسحوب على أي مصرف في لبنان وبالدولار الأميركي. ودار البشير لا تتحمل مسؤولية إرسال أي مبالغ نقدية داخل الرسائل.

ويجب أن يُكتب على الشيك عبارة (يُصرف للمستفيد الأول فقط)

تُرسل الطلبات على العنوان التالي :

دار البشير ص.ب 5329-13 بيروت – لبنان.

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي صدرت حتى الآن مع أسعارها بالدولار الأميركي شاملة أجور البريد.

ثمن أي كتاب 7 دولارات أميركية.

إدفع ثمن خمس (5) كتب واحصل على السادس (6) مجاناً.

الرقم	إسم الكتاب	إسم المؤلف
١	أوديب	أندريه جيد
٢	الخمسمائة مليون ثروة البيجوم	جول فيرن
٣	الحرب والسلام	ليو تولستوي
٤	مدام بوڤاري	جوستاف فلوبير
٥	سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
٦	البؤساء	فيكتور هوجو
٧	الثأر للوطن	جون شتينبك
٨	الخاطئة	سومرست موم
٩	الأمير	نيكولاس ماكيافلي
١٠	الإلياذة	هوميروس
١١	الكونت دي مونت كريستو	ألكسندر ديماس
١٢	أرواح هائمة	سومرست موم
١٣	المقامر	فيودور دستوفسكي

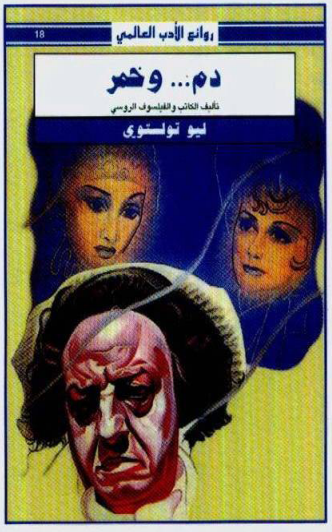

"ليو تولستوي" هو هذا الباحث عن الحقيقة، والثائر بسبب الفقر وحزن الموت واللامبالاة من الآخرين والعبودية والعسكرية والنفاق، وهو في نفس الوقت هذا المثقف ذو التطلع الفضولي على الثقافات الأخرى. لقد اشتهر "تولستوي" بأنه أحد كبار الكتاب الروس وخصوصا مع رواياته العالمية "الحرب والسلام"، و"أنا كارنينا". وقد ولد في عام ١٨٢٨، في طبقة بورجوازية روسية. إن فترة نموه غير العادي جعلته رجلا جذابا وذا ثراء داخلي مؤثر، ورائد "اللاعنف". تسببت أزمة دينية وأخلاقية في تغيير فكره وطريقة معيشته وتأمله للحياة. ياله من تحول حقيقي. كانت الأعوام ما بين ١٨٧٩-١٨٨٦ حاسمة، وهذا يتضح من خلال أعماله (اعترافات، ونقد عقيدة اللاهوت، وتوافق وترجمة الأناجيل الأربعة، وعلام يرتكز إيماني، وماذا يجب أن نفعل؟) أو أنه طور -بالتدريج- الفكر الذي يدين أساسا العنف وخصوصا عنف الدولة، وسيصبح منشقا في بلده ومفصولا ومراقبا من قبل الكنيسة الأرثوذكسية. يرى "تولستوي" أن الدولة المستبدة أو المتحررة ليست إلا منظمة للعنف ليس لها أي مبدأ سوى التعسف الخشن.

كان "تولستوي" والدا لـ١٢طفلا. وهجر التدخين والشراب والصيد واللحم وارتدى ملابس مثل الفلاح. وقطع بنفسه أشجار الغابة، وصنع الأحذية. فتح -في ملكيته بـ"إيسائيبوليانا"-مدرسة للأطفال الفقراء وجرب الوسائل التربوية غير الصارمة وغير العنيفة، وكان هذا تجديدا حقيقيًا في هذا العصر. حدد"تولستوي" هكذا ما أسماه بـ"الحياة الحقيقية": إنها "الحياة التي تضيف إلى الخير المتراكم من الأجيال السابقة، والتي تزيد هذا الإرث في الحاضر، وتوصي به إلى الأجيال في المستقبل. لقد رفض "تولستوي" أيضا العنف الثوري المضاد مثل الذي حدث أثناء الثورة الروسية الأولى،١٩٠٥ "العنف يولد العنف ولهذا تتمثل الطريقة الوحيدة للتخلص منه في عدم ارتكابه".

أثر "ليو تولستوي" كثيرا في فكر "غاندي" وتراسل معه.

لم يكن السيف في يد "تولستوي" في صدر شبابه أقوى من القلم حين امتشقه ليغزو العقول والأذهان كداعية للسلام والإنسانية.. ولقد خلد التاريخ اسم "تولستوي" كفيلسوف. ولكنه كان إنسانا قبل أن يكون فيلسوفا. فلم تكن فلسفته نصوصا جامدة ولا مبادئ حالمة وإنما كانت رسالة عملية لإصلاح الإنسان سواء في مجتمعه الفردي أم مجتمعه المحلي - الوطن- أم المجتمع الأكبر العالم كوحدة.

والقصتان الطويلتان اللتان يحتويهما هذا الكتاب هما. بإجماع النقاد خير ما كتب "تولستوي" من قصص قبل أن يتفرغ لتأليف روايتيه الكبيرتين الخالدتين الحرب والسلام و"أنا كارنينا". وقد صور في إحداهما حياة رقيق الأرض. في "روسيا" القيصرية محللا نفوس تلك الطبقة كاشفا عما فيها، وصور في الثانية حياة الطبقة الراقية في عهد القياصرة بما فيها من تفاهة وانحلال، وفي كلتيهما كان "تولستوي" يخدم رسالة واحدة هي: إصلاح المجتمع ورفع قيمة الكرامة الإنسانية.

حصريات
مجلة الابتسامة
www.ibtesama.com